

طبعة
العربية الأصلية

www.Rewity.com
By Dalvia

حاج كومپوستيلا

رواية

پاولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"

سلسلة المصنوعات للنور مع والسنتر

يمثل هذا الكتاب باكورة أعمال كويلو، ويروي قصة سعي روجي مميز على طريق مار يعقوب في إسبانيا.

ينطلق الراوي في مسيرة طويلة، بحثاً عن سيفه الذي فقدته لحظة كان يُقدّم إليه، اشترط عليه المعلم لاسترداده أن يقوم بالحج على طريق قديمة، كان يعبرها حجاج القرون الوسطى، واعتُبرت مزاراً من أهم المزارات الدينية في الغرب.

في الطريق، يقوم المرشد بترويض بطلقين الراوي بأولو تمارين وطقوس «رام» (جمعية روحانية قديمة)، وهي ممارسات بسيطة تساعد الإنسان على اكتشاف طريق خاصة به، وتمده بالطاقة والشجاعة، معمقة حدسه الشخصي الذي يوصله بالحقيقة.

يتعرّض الراوي، في مسيرته، لتجارب روحية كثيرة، تتمثل في اكتشاف معانٍ جديدة للحب والورع والموت والالم، والأهم من ذلك كله، يتبين أن التوصل إلى مرحلة المصالحة مع النفس والإشراق ليس نخبوياً، وليس حكراً على الناس المختارين، بل هو أيضاً متاح أمام كل إنسان يسير على طريقه الخاصة به، كما سار الراوي على طريق مار يعقوب؛ ذلك أن الخارق موجود على طريق الناس العاديين، المهم هو الطريق بحدّ ذاتها، واكتشافنا لأنفسنا من خلال السفر والمغامرة والسعي، وأمام هذا الاكتشاف، يصبح الهدف أمراً ثانوياً، فالراوي، بعد أن سار على درب بغية اكتشاف سر سيفه، يكتشف ذلك السر، لكنه لا يعلنه، فالسر هو ما يُكتشف، ولا يُعلن.

تعتبر رواية «حاج كوميو ستيلا» المحطة الأهم في حياة كويلو التي انطلق منها إلى محطات أخرى، إنها بداية «الجهاد الحسن»، الذي سيدفع بكويلو ليربح معارك الأدب الرقيق.

حاج كومبوستيلا

پاولو كويلو

www.Rewity.com
By Dalylia

ترجمة: ماريا طوق

تنسيق لغوي: روجي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

فقالوا: «يا رب إن ههنا سيفين» فقال لهم: «يكفي»

لوقا، الفصل الثاني والعشرون، الآية ٢٨

نُشر في الأصل بالبرتغالية. بعنوان، O Diário de um Mago

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاءه. برشلونة

اسبانيا. بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الانترنت،

<http://www.paulocorlho.com.br>

© جميع الحقوق محفوظة لپاولو كويلو

© حقوق النشر بالعربية محفوظة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون، ٢/٣٥٠٧٢١ (٠١)

تلفون - فاكس، ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثالثة ٢٠٠٥

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: زاهية عاصي

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن،
يحتضر، عندما سأل تلميذ من تلاميذه،

— من كان معلمك أيها المعلم؟

أجاب: «هل قل الفات من العلمين، وإذا كان لي أن أسميهم
جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف
ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

— ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير
الآخرين؟

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلمت منهم أموراً على جانب
كبير من الأهمية».

أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم
أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل.
وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه
في تلك الساعة. وفي النهاية، صانقت رجلاً طلبت منه المساعدة،
ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى البيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فتدوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتخذ، على الدوام، متوالاً واحداً لا يتغير: لم أوفق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد».

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جزاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتصالاً بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: «لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد». كان ذلك يمنحني القوة على التابعة».

— «ومن كان العلم الثاني؟

«كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن قد غيّر انعكاس لصورته في الماء.

«دب الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبج. بذل ما بوسعه لتبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، فزر الكلب، وقد غلبه الظلم الشديد، أن يواجه الوضع، فالتقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقف حسن قليلاً، ثم تابع،

— «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيتَه يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمع يا صبي، في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أنتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطلقاً الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أنتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي حكّنت مشتعلة هنا؟ فحركت حينها كم كنت غيباً. من ذا الذي يشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكل ما يحيط بي: للشحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبث أثق بأن النار سوف تتوهج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبين لي أن هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبين لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على الكرامة بمثلها، وأنا أرقب مكتبي تنشرها شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - لبنان، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإلني ممتان للناسر السيد تحسين الخياط لما أبناه من حماس لجعل أعمالي في متناول قراء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة أتمت بالجنّة، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

واوّد أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيله - المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

،پاولو كويلو

ملاحظات الكاتب

هنا عشر سنوات دخلت بيتاً صغيراً في مقاطعة «سان جان بيه دو بور»، وأنا مقتنع بأن ما أفعله مضبوطة للوقت. كان شعبي الروحي مرتبطاً بالفكرة القائلة إن هناك أسراراً وطرائق غامضة وأناساً قادرين على فهم الأشياء العسيرة على معظم الفنانين، والتحكم بها. وهكذا، فإن عبور «طريق الناس العاديين» بدا لي مشروعاً لا فائدة منه.

إن قسماً من جبلي - وأنا بالذات - انقاد لسحر الشيع والجماعات الشريفة، والاعتقاد القائل إن ما هو صعب ومعقد بقوننا حتماً إلى فهم أسرار الحياة. عام ١٩٧٢، دفعت ثمن هذا الاعتقاد غالياً. زال الخوف لكن التفتاني بالخفي ظلٌ هاجساً في حياتي. لذلك، عندما حدثني معلّمي عن طريق «مار يعقوب»، وجدت فكرة هذا الحجّ مضنية وغير مجدية. لا بل أنني اتخذت قراراً بترك «رام»، وهي جمعية دينية صغيرة غير ذات شأن، تستند إلى التبادل الشفوي لكلام مُفعم بالرموز.

وأخيراً، عندما حدثني الظروف لأنفذ الرحلة التي طلبها مني معلّمي، قررت أن أقوم بها على طريقتي. في بداية الحجّ، سعيت لأن أجعل من بتروس، مرشدي خلال الرحلة، شخصاً أشبه بـ «دون خوان»، الساحر الذي يلجأ إليه كارلوس كاستانيدا ليفشّر اتصاله بالخارق. اعتقلت أنه يمكنني، بقليل من الخيال، أن أجعل من تجربة طريق «مار يعقوب» تجربة ممتعة، مستبدلاً بالخفي الموحى به، وبالعقد البسيط، والبشري الضيق.

لكن بتروس كان يتصنى لي كلّما سعيت لتحويله إلى بطل،
مما جعل علاقتنا شاقّة للغاية. وافترقنا أخيراً، ونحن نشعر أن هذه
الصداقة لم توصلنا إلى أي مكان.

نبذ أنفي أدركت، بعد مرور وقت طويل على افتراقنا، الأهمية
التي تُنصف بها هذه التجربة. وهذا الإدراك بالذات هو الآن أغلى
شيء عندي؛ الخارق موجود على طريق الناس العاديين. إن هذا
الإدراك أتاح لي ألا أحفل بالمخاطر، لكي أصل إلى أقصى ما يؤمن به،
وقد أمّنتني بالشجاعة لأكتب أول كتاب لي، «حاج كومبوستيلا»،
وبالقوة لأصارع من أجله، بالرغم مما كان يُقال عن استحالة أن
يعتاش كاتب برازيلي من أدبه. واستطيع القول أيضاً إنه ساعطني
على التحلي بالكرامة واللبّ، وهما زاد «الجهاد الحسن» الذي يجب
خوضه كل يوم مع النفس، إذا ما أرثت الاستمرار في سلوك
«طريق الناس العاديين».

لم تتسّ لي رؤية مرشدي مرة ثانية. حاولت الاتصال به حين
نُشر الكتاب في البرازيل، ولكن لم أتلّق منه جواباً. وعند صدور
الترجمة الإنكليزية للكتاب، شررت لأنه، عن طريق القراءة، بات
بإمكانه استعادة الفترة التي عشناها معاً. حاولت أن أوافيه من
جديد، لكنه غيّر رقم هاتفه.

بعد عشر سنوات، نُشر «حاج كومبوستيلا» في البلاد، حيث
باشرت رحلتي، وحيث رأيت بتروس للمرة الأولى على الأرض
الفرنسية. وأمل أن ألتقيه يوماً، لأقول له:

شكراً، أهديك هذا الكتاب

پاولو كويلو

تمهيد

«وَأَنْتَكَ أَمَامَ وَجْهِ رَامِ الْقَنْسِ، تلمس بيدك «كلمة الحياة»،
وتتلقّ قوة فائقة تخوّلك أن تشهد للكلمة حتى أقاصي الأرض».

رفع العلم سيفي الجليل دون أن يخرج من غمدته. أضربت
النار، فتضاربت السنن، واشتدت فرقتها، وهذا بشير خير، ويعني
الاستمرار في ممارسة الرتبة الدينية التي بدّلناها. عننّني، انحنيت
وظففت أحفر الأرض. أمامي بهنّي العاريتين.

حدث ذلك ليلة ٢ يناير ١٩٨٦. كنا على إحدى قمم جبل «سنرا»
دومار، بالقرب من الناحية التي تدعى «الرؤوس السوداء». كان هناك،
بالإضافة إلّي وإلى معلمي، زوجتي، وأحد تلامذتي، ومرشد محلي،
وممثل عن الأخوية الدينية الكبيرة التي تضم كافة الجمعيات
الروحانية في العالم، والمعروفة باسم «الميراث». كنا نحن الخمسة،
بمن فيهم المرشد الذي أعلم مسبقاً بالمراسيم التي ستجري، نشارك
بسيامتي كمعلم في جمعية «رام»، وهي أخوية مسيحية قديمة
أنشئت عام ١٤٩٢.

حفرّت في التراب حفرة قليلة العمق، لكن واسعة، ورحت
أضرب الأرض بطريقة احتفالية، وأنا أتلو الكلمات الطقوسية.
عننّني، اقتربت زوجتي، وأعطتني السيف الذي استخدمته عشر
سنوات، والذي كان معاوني طوال هذا الوقت. وضعت السيف في
الحفرة، ثم غطيته بالتراب، ومهّنت الأرض فوقه. وفيما كنت أقوم
بهذه الحركات، عاونتني ذكرى الحن التي مررت بها، وأشياء

تعلمتها، وظواهر كنت قادراً على اختعالها، لا شيء إلا لأن هذا السيف الموغل في القدم كان حليفي ورفيقي النائم. الآن، سيلتهمه التراب، وسيفذي نضله وخشب مقبضه المكان الذي غرق منه القدرة والنفوذ.

اقترب مني معلّمي، ووضع سيفي الجديد أمامي فوق منقن سيفي القديم في حين أن جميع من كانوا يقربني بسطوا أذرعهم، وبعث العلّم حولنا بنور غريب لا يضيء، ولكنه ظاهر، ويضيء على القامات لونا مختلفاً عن الأصفر الذي تبعته النار. أخرج العلّم سيفه الخاص من غمده، ولس به كتفي ثم راسي، وقال:

«بقدره ومحبة رام، أعينك معلماً وفارساً في الجمعية، اليوم وكل أيام حياتنا، حيث الحرف الأول من رام يعني الصرامة، والثاني يعني الحب، والثالث الرحمة. عندما يصبح سيفك بتصرفك، لا تجعله سجين غمده فترة طويلة، لأنه بذلك يصدا. وعندما تستله من غمده، ترحفه إليه قبل أن تقوم بعمل خير، أو تفتح طريقاً.

وبرأس سيفه، أحدث جرحاً بسيطاً في رأسي. عندئذ، لم أجد بحاجة للصمت، ولم يعد ضرورياً إخفاء ما كنت قادراً عليه، أو التستر على الأعمال الخارقة التي تعلمت القيام بها، تبعاً لنهج الميراث. وابتداءً من هذه اللحظة، أصبحت أنا.

بسطت يدي لأمسك سيفي الجديد المصنوع من الفولاذ الذي لا يصدا ومن الخشب ذي الترب الذي لا يتاكل، بمقبضه الأسود والأحمر وغمده الأسود. ولكن، ما إن لمست يدي الغمد وتهيأت لاستلّ السيف منه، حتى قام معلّمي بخطوة إلى الأمام وداس أصابعي بعنف، جعلني أزعق الماء وأرخي السيف من يدي.

نظرت إليه دون أن أفهم ما حصل. اختفى النور الغريب ومنتحت النار وجه العلّم منظراً شبيحياً.

نظر العلّم إليّ ببرودة، ونادى زوجتي، وسلمها السيف الجديد. ثم اتجه ناحيتي، ونطق بهذه الكلمات:

«بعد ذلك التي تخدعك فطريق الميراث ليست طريق بعض المختارين، بل طريق كل الناس والقدرة، التي تعتقد نفسك أنك تمتلكها وحدك، لا قيمة لها، لأنك لا تتقاسمها وسائر البشر. كان أولى بك أن ترفض السيف، فيعطى لك لأن قلبك بات نقياً.

ولكن، حصل ما كنت أخشاه، زللت وسقطت. فبسبب طمعك، عليك أن تعاود السير من جديد بحثاً عن سيفك. وبسبب عجزفتك، عليك أن تفتش عنه وسط الناس البسطاء. وبسبب انبهارك بالخارق، عليك أن تصارع كثيراً لتجد ما سوف يعطى لك مخائلاً.

بدأ لي وكأنّ العالم كله أغمي عليه تحت قدمي. بقيت راكعاً، أخرس ومجهض الروح. الآن، وقد أودعْتُ سيفي القديم التراب، لا أستطيع استعانتة. وبما أن السيف الجديد لم يعط لي، فإني أجد نفسي من جديد في وضعية المبتدى، لا قدرة لي ولا دفاع. أرجعني عنف معلّمي الذي سحق أصابعي، في اليوم الأول لسيامتي الكبري، إلى عالم الحقد والارض.

أطلقا اللشد النار، فندت زوجتي مني لتساعدني على النهوض. الآن، سيفي الجديد في عهنتها. أما أنا، بحسب طقوس الميراث، فلا أستطيع أبداً إمساكه دون إذن من معلّمي. التحدرنا عبر الغابات بصمت، مقتفين أثر ضوء السراج الذي يحمله اللشد، ووصلنا في النهاية إلى الطريق الترابية الصغيرة، حيث كانت السيارات متوقفة.

لم يلق أحد التحية عليّ قبل المغادرة. وضعت زوجتي السيف في صندوق السيارة، وأدارت المحرك. بقينا لوقت طويل صامتين، فيما هي تقود ببطء، لتتجنب حفر الطريق ومطباتها.

قالت على سبيل التشجيع،

— لا تهتم. أنا واثقة أنك سوف تستعيد السيف.

سألتها عما كان العلّم يقول لها.

قالت:

— ثلاثة أشياء، أولاً، كان عليه أن يجلب معه ملابس دافئة لأن الطقس كان أشد برودة مما توقع. ثانياً، لم يفاجأ بما حصل، لأنه سبق لأناس كثيرين أن وصلوا إلى الرتبة التي وصلت إليها، وتصرفوا كما تصرفت. وثالثاً، سيفك ينتظرك في مكان ما من الطريق التي عليك سلوكها. لم يحند التاريخ ولا الساعة. حدثني فقط عن المكان الذي يجب أن أخبئ السيف فيه كي تجده.

سألتها بعصبية،

— وأين هي هذه الطريق؟

— إذا هذا لم يشرحه لي جيناً. قال لي فقط إنه يجب أن تبحث في خارطة إسبانيا عن طريق قلعة قروسطية، تعرف باسم غريب، هو طريق «مار يعقوب»^(*)

www.rewity.com
By Dalyia

(*) مار يعقوب هو سانتياغو في اللغة الإسبانية.

الوصول

نظر الجمركن طويلاً إلى السيف الذي تحمله روجتي، وسألنا ماذا نسوي إن فعل به أحبه؟ أن أحد أصدقائنا سيعاينه قبل أن نضعه في الراد العلني. نجحت الكذبة وأعطينا الجمركن تصريحاً يؤكد فيه أننا دخلنا، عبر مطار «باجاناس» وفي حوزتنا سيف، كما أشار علينا أنه إذا طرات مشكلة ما عند إخراج السيف من البلاد، فيكفي، والحال هذه، إظهار التصريح للجمارك.

ذهبنا إلى مكتب لتأجير السيارات، لمحجر سيارتين. تسلمنا التذكريتين، وذهبنا لتناول شيئاً من الطعام في مطعم المطار، قبل أن نهترق.

قصيت ليلة في الطائرة، عانيت فيها الكثير من الأرق، وأنا لا أعرف إن كان الأرق ناجماً عن الخوف من السفر على متن الطائرة، أو مما نخبئه لي الأحداث. شعرت بالإثارة، وبهيت متنبها طوال الوقت.

رذنت روجتي للمرة الألف:

— لا تهتم. عليك الذهاب إلى فرنسا. وهناك في مدينة «سان جان بييه دو بور»، تسأل عن السيدة سافان، وهي تملك على من يرشدك إلى طريق «مار يعقوب».

وسألت للمرة الألف مع أنني كنت أعرف الجواب مسبقاً:

— وأين؟

— أذهب إلى المكان الذي ينبغي أن أنجز فيه ما طلب إلي القيام به. وأبقى من ثم، في مدريد بصصة أيام، أرجع بعدها إلى البرازيل. لنا فائدة على إدارة شؤوننا بشكل جيد، تماماً مثلك أنت.

أجبت باختصار، لأنني لم أشتأ التعرض، الآن، للموضوع.

— أنا أدرك ذلك.

كنت مشغل البال كثيراً على الأعمال التي تركتها في البرازيل. عرفت كل ما يجب معرفته عن طريق «مار يعقوب»، في فترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً بعد وقوع حادثة «الرؤوس السود». ولكنتي كنت أحتاج إلى سبعة أشهر، لأبث في المسألة، أي أترك كل شيء وأقوم بالرحلة. وأخيراً، قالت لي زوجتي، ذات صباح، إن الساعة واليوم قد جانا، وأبني، ما لم أأخذ قراراً حاسماً بشأن الرحلة، فسوف يكون علي أن أنسى إلى الأبد الجمعية ونعاليم «رام». حاولت أن أشرح لها أن المعلم أوكل إلي مهمة مستحيلة، لأنني لا أستطيع أن أتبرأ ببساطة من مسؤولية أعمالي اليومية. ضحكك، وقالت إن هذه الحجة ليست مقبولة، لأنني، خلال سبعة أشهر، لم أفعل شيء الكثير، اللهم إلا قصاء الأيام والليالي، وأنا أتساءل عما إذا كان علي الشروع في السفر أم لا. ثم أعطيني بكل بساطة، التذكريتين اللتين سجل عليهما موعد السفر.

سألنا في كافيتريا المطار،

— لم أخلت هذا القرار هنا بالذات؟ ولست أدري هل من المستحسن أن أذع لحدثاً غيري يتخذ القرار بالتفتيش عن السيف.

أجابني زوجتي أن من الأفضل، إذا كان علينا تكرار هذه الأقوال السخيفة، أن نهترق في الحال.

ثم قالت:

— «لن تسمح أبداً لأحد في حياتك أن يتخذ قراراً بدلاً منك، فلنذهب. لقد تأخر الوقت».

أخذت حقائبها، واتجهت إلى وكالة السفر. لم تتحرك، بل بقيت جالساً أراقب يأتي باب كانت تتأبط سيفي الذي يوشك في كل لحظة، أن ينزلق من تحت ذراعها.

توقفت في منتصف الطريق، ثم رجعت إلى جانب الطاولة، حيث كنت جالساً أمامها، وطبعت قبلة صاخبة على فمي، وبطرت إلي طويلاً دور أن تنطق بكلمة. وفجأة، أدركت أنها إسبانيا، ولي لا أستطيع الرجوع إلى الوراء. كان لديّ اليقين المخيف بأن إمكانيات الفشل كبيرة، لكنني ها قد قمت بالخطوة الأولى. عانقت روحي بشغف كبير، تعبيراً عن الحب الذي كنت أكنه لها في هذه اللحظة. وفيما كنت أعانقها، رفعت صلاة إلى كل ما يؤمن به، وكل الذين يؤمن بهم، متوسلاً أن استمد منهم القوة للرجوع والسيف في حوزتي.

قالت إحدى النسوة الجالسات إلى الطاولة المجاورة، بعد رحيل روحي،

— أرايت؟ إنه سيف جميل.

فاجابها صوت رجل،

— لا تهتمي، سأشتري لك واحداً مثله بالصيطة. هناك اللات منه في الحال الخاصة بالسباح في إسبانيا.

بعد مرور ساعة على فهاكتي السيارة، بدأت أشعر بالتعب الذي تراكم منذ الليلة الفائتة. كان فيط شهر أغسطس مرتفعاً، بحيث أن جهاز قياس الحرارة سجل رقماً مرتفعاً، على الرغم من أن الطريق لم تكن مزدحمة كثيراً. قزرت التوقف قليلاً في مدينة صغيرة أشير إليها، في خارطة الطريق، على أنها موقع سياحي. وفيما كنت أتسلق المنحدر الوعر الذي يؤدي إليها، تنكّرت مرة أخرى كل ما تعلمته عن طريق «مار يعقوب».

في التقليد الإسلامي، يجب على كل مؤمن أن يقوم بفريضة الحج إلى مكة، ولو مرة في حياته. وكذلك شهدت الألفية الأولى من عهد المسيحية طرقاً ثلاثاً مقدسة، تمنح كل من يجتاز إحداها سلسلة من الغفرانات واليعم. تقود الطريق الأولى إلى قبر القديس بطرس في روما وشعارها الصليب. وقد نعي الذين يسلكونها بـ «حجيج روما، أما الطريق الثانية، فتفصلي إلى كنيسة القيامة في القدس، ونعي الذين يسلكونها بـ «المخيليين، لأن شعارهم كان أغصان النخيل التي استقبل بها السيد المسيح لدى دخوله القدس. والطريق الثالثة والأخيرة تؤدي إلى رفات يعقوب الرسول الذي يرقد في مكان ما من شبه الجزيرة الإيبيرية، بالضبط، حيث رأى أحد الرعيان نجمة تسطع فوق حقل من الحقول. وتقول الخرافة إن مار يعقوب والعذراء مريم مزا من هناك بعد موت السيد المسيح، وبشراً بكلام الإنجيل داعين الشعوب إلى اعتناق المسيحية. أطلق على المكان اسم «كومبوستيلا، أي حقل النجمة. ولاحقاً، ارتفعت فوقه مدينة اجتمعت إليها كل الروار المسيحيين. كما أطلق على هؤلاء، الذين عبروا الطريق الثالثة، اسم «الحجاج»، واتخذوا الصلحة شعاراً لهم.

خلال العصر الذهبي للمسيحية، إبان القرن السادس عشر، كان أكثر من مليون شخص يعمدون من أنحاء أوروبا سيوياً، ليجتازوا طريق الحجرة (وقد نعت الطريق بهذا الاسم لأن الحجاج كانوا يهتدون أثناء الليل بهذه النجوم) واليوم، لا يزال هناك متصوفون ورجال دين وبخانة يجتازون، سيراً على الأقدام، مسافة سبع مائة كيلومتر تفصل المدينة الفرنسية «سان جان بييه دو بور» عن كاتدرائية مار يعقوب في كومبوستيلا الواقعة في إسبانيا^(١)

(١) تتفرع من طريق مار يعقوب الواقعة في الأراضي الفرنسية، عدة طرقات تلتقي جميعها في مدينة «بوينتي ليريا» الإسبانية. ومدينة «سان جان بييه دو بور» هي إحدى هذه الطرق، لكنها ليست الوحيدة، ولا الأكثر أهمية.

وبالاستناد إلى ما يقوله الكاهن الفرنسي إيميري بيكو الذي حجّ إلى كومبوسنتيلا عام ١١٢٢، فإن الطريق التي يسلكها الحجاج اليوم مشابهة تماماً للطريق التي سلكها، في القرون الوسطى، شارلمان وفرسيس الأسيري وإيرابيلا دي كاستيل، وحينئذ البابا يوحنا الثالث والعشرون، والكثيرون غيرهم. ألف بيكو، عن تجربته هذه، خمسة كتب جرى تقديمها على أنها من أعمال البابا كاليكستس الثاني، وهو من أتباع مار يعقوب. وعرفت مجموعة هذه الكتب باسم «مخطوط كاليكستس» في الكتاب الخامس من «مخطوط كاليكستس» وعنوانه «كتاب مار يعقوب، بعدد بيكو المواقع الطبيعية وسبل الماء والمصافات والملاحج والدين التي تنتشر على طول الطريق. وارتكزت جماعة تدعى «أصدقاء مار يعقوب» إلى شروح بيكو لتقوم برعاية هذه الأماكن الطبيعية، وإرشاد الحجاج إليها حتى أيامنا هذه.

خلال القرن الثاني عشر، بدأت الأمة الإسبانية تستفيد من قدسية مار يعقوب، في صراعها ضد الغاربة الذين غرروا شبه الجزيرة. وأسست فرق عسكرية عدة على طول الطريق. وأضحى رفات الرسول سوراً روحياً عظيماً لردع المسلمين الذين كانوا يدعون أنهم يملكون «درع محمد». ولكن، بعد أن انحسرت حملات الفتوحات، عطلت قوة التنظيمات العسكرية، بحيث باتت تشكل تهديداً للدولة، مما أجبر الملوك الكاثوليكين على التدخل للحؤول دون تمزّد محتمل تقوم به هذه الوحدات ضد النبلاء. وهكذا سقطت الطريق شيئاً فشيئاً في غياهب المسيان. ولولا بعض التجليات العميقة الماندة، مثل «الجزء» لـ «يونيول»، «العابر» لـ «خواس مانويل سينرا»، لما تذكر أحد اليوم أن آلاف الناس الذين يجمعوا لاحقاً شطر «العالم الجديد»، قد مزوا من هنا.

كانت القرية، التي وصلت إليها في السيارة، فقيرة تماماً. وبعد طول تفتيش، عثرت على حانة صغيرة موحوجة في عمارة من الطراز القروسطي. ألح لي صاحب الحانة، الذي لم يشج بمطره عن

البرنامج العروض على شاشة التلفزيون، إلى أن هذا الوقت وقت القبولة، وأن ثقلي بالسيارة بعد ضرباً من الجيون.

طلبت شرباً بارداً مستسلماً قليلاً لإغراء مشاهدة التلفزيون. لكني لم أكن أستطيع التركيز على شيء كنت أعنف فقط أنني، في اليومين المقبلين، سأعيش من جديد، سأعيش، في خضمّ القرن العشرين، شيئاً يشبه المغامرة الإنسانية الكبرى التي أعادت عوليس من طروادة، ورافقت دون كيشوت إلى الناس، وفانت دانتى ونورفيلوس إلى الجحيم، وكريستوف كولومبوس إلى أميركا، وأعني بها مغامرة السفر نحو المجهول.

حين رجعت لأستقل سيارتي، كنت أكثر هدوءاً، حتى ولو لم أجد سيفي، فإن الحج على طريق «مار يعقوب» سوف يمكنني في جميع الأحوال من اكتشاف ذاتي.



«سان جان بييه دو بور»

كان ثمة أشخاص مفننون وجوقة من البؤافين، وكلهم يرتدون الأحمر والأخضر والأبيض وهي ألوان لباسك الفرنسي، يعبرون الشارع الرئيسي لـ «سان جان بييه دو بور». كان اليوم أحداً. كنت قد قضيت يومين وراء مقود السيارة، ولا يمكنني الآن أن أصبح دقيقة واحدة من وقتي في مشاهدة هذا الاحتفال. شفت طريقني وسط الحشد، وسمعت بعض الشنائم بالفرنسية، لكنني استطعت في النهاية، اجتياز الحصون التي تؤلف القسم القديم من المدينة، حيث علي لقاء السيدة سافان. كان الطقس حاراً خلال النهار، حتى في هذه المنطقة من البيرنيه. وقد خرجت من السيارة والعرق ينصب من جسمي.

فرعت الباب، وفرعته ناسية، وثالثة. وحده الصمت أجابني. جلست على حافة الجدار الصغير، والقلق يثقلني. قالت لي زوجتي إن علي التواجد هنا في هذا اليوم بالذات، لكن لم يتحرك أحد للفاتي، ولم يستجب لنثائي. لعل السيدة سافان خرجت لتشاهد العرض. أو لعلني وصلت متأخراً جداً، ففررت ألا تستقيلي. ها إن طريق مار يعقوب نمتي قبل أن تبدأ.

وفجأة، فتح الباب وفطرت طفلة إلى الشارع. ونهضت أنا أيضاً متوثباً، وسألتها بفرنسية سيئة عن السيدة سافان، فراحت العتاة الصغيرة تصحك، وأشارت إلى الداخل. عمنذ فقط، فهمت خطئي، فالباب يشرف على صحن دار قسيح تحلق به بيوت قديمة

فروسطية مزينة بالشرفات. وقد ترك الباب مفتوحاً من أجلي، في حين أنني لم أجرو على الإمساك بمقبضها

دخلت ركباً باتجاه البيت الذي أشارت إليه العتاة الصغيرة. كانت في الداخل امرأة يلحمة متقدمة في السن نسبياً، ترعق بلغة الياسك موجهة الكلام إلى صبي هزيل عيابه كستناويتان حزيتان. انتظرت حتى انتهت المشاجرة، وأرسلت العجوز الصبي إلى الطبخ تحت وابل من الشنائم. عمنذ فقط، استنارت نحوي دون أن تسألني ماذا أريد. وهاهنا، تارة تراعي وتارة تدفعني، إلى الطابق الثاني من البيت الصغير. كانت هناك غرفة واحدة مفتوحة، فيها مكتب مزدحم بالكاتب والأغراض وتماثيل مار يعقوب وتذكارات الطرق. أخذت اللوحة كتاباً من المكتبة، وجلست أمام الطاولة الوحيدة في الغرفة، وتركتني وفقاً

قالت دون مواربة،

— لا بد أنك زائر آخر لطريق مار يعقوب. علي تلوين اسمك في سجل الحاج.

لكرت لها اسمي. وأردت أن تعرف إن كنت قد أحضرت معي الأصناف التي تمثل شعار الحج، وهي تغطي قبر يعقوب الرسول ونسمح للحجاج بأن يتعارفوا فيما بينهم^(١). قبل مجيئي إلى إسبانيا، فصلت في البرازيل أحد الأماكن المقدسة هو، «باريسينا دو نورتي» وشترت صورة لسيدة «باريسينا» مرسومة فوق ثلاث أصداف. أخرجتها من حقيبتي، وقدمتها للسيدة سافان.

قالت: «جمادى» ثم عقيته وهي ترد لي الأصناف، لكنها ليست عملية كثيراً. فقد تكسر أثناء الطريق.

(١) الأمر الوحيد الذي تركته طريق مار يعقوب في الثقافة الفرنسية يتجلى في الطبخ وهو، في كل حال يمثل مطهرة هذا البلد «صلفة مار يعقوب» (الصلفة لون من الطعام يعد من لحوم السمك ويقدح في صلصة).

قلت:

— لن تنكسر، ساضعها على قبر يعقوب الرسول.

بدا وكأن السيدة سافان لا تملك الكثير من الوقت لتحضنه لي. فذمت لي مفكرة صغيرة تسهل عليّ إقامتي في الأندرة الموجودة على الطريق، وألصقت طابعاً يمثل «سان جان بييه دو بور»، مؤذنة بأن رحلتي قد انتهت. ثم قالت لي لني أستطيع الرحيل الآن بمباركة الرب.

سألتها:

— أين مرشدي؟

أجابت مصطنعة الدهشة، وفي عينيها يلتمع بريق ما:

— عن أي مرشد تتحدث؟

عندئذ، أدركت أن أمراً أساسياً قد فاتني القيام به، والسبب انشغالي بالوصول، والعثور على أحد يستقبلني. نسيت أن أقول الكلمة القديمة التي تمثل رمز التعارف بين هؤلاء الذين انضموا، وينتمون إلى جمعيات البراءة. أصلحت خطتي في الحال وطمعنت بالكلمة فسارعت السيدة سافان، ومنتزعت من يدي بعنف المفكرة التي أعطتني إياها منذ دقائق قليلة.

قالت، وهي تنتزع كلسة من الجرائد القديمة الموضوعة في أعلى صندوق مصنوع من العكرتون:

— لن تكون في حاجة إليها. طريقك ومحطاتك مرتبطة بالقرارات التي يتخذها مرشدك.

انتشلت السيدة سافان من الصندوق قبعة ورداء، حكاءا يبلون قديمين، ولكن في حالة جيدة طلبت مني أن أبقى واقفاً في منتصف الغرفة، وبللت تصلي بصمت. ثم وضعت الرداء على كتفي والقبعة فوق رأسي. لاحظت أن أصداقاً حيكت على القبعة

فصلاً عن كتفيات الرداء. تناولت المرأة دون أن تكف عن الصلاة، عصا حاج مستندة إلى زاوية المكتب، ووضعتها في يدي اليمنى. وقد غلّق في طرف العصا الطويلة كرنيب صغير للماء. وهكنا وجنّني وسط الغرفة مرتنداً ببطال جينر قصير وقميصاً كتبت عليها عبارة "I love Ny"، ومغطى بلباس قروسطي كان يرتديه حجاج كومبوستيلا.

اقتربت العجوز مني. بسطت يديها فوق رأسي، وقد انتابها ما يشبه الرعدة، ثم قالت:

— فليرافقك يعقوب الرسول، وبذلك على الشيء الوحيد الذي يجدر بك اكتشاله. لا تمش بسرعة ولا تتعهل، بل احترم قوانين الطريق وضرورتها. أطلع مرشدك، حتى ولو أمرك بالقتل، أو بالنجيف، أو بالإقدام على عمل آخرق. عليك أن تقسم متعهداً الطاعة الكاملة لمرشدك.

إن روح الحجاج القدامى إلى كومبوستيلا سترافقك في رحلتك. والقبعة تحميك من الشمس ومن الأفكار الشريرة. والكرنيب يرد عنك الأعداء والأعمال الشريرة. بركة الرب ومار يعقوب والعذراء مريم تكون معك، وثرافك على مدى الأيام والليالي. آمين.

بعدها، عادت المرأة إلى سابق عهدها للممت الثياب بسرعة، ووضعتها في الصندوق من جديد، وقد بدت سينة المزاج حكما أعادت الكرنيب والعصا إلى الركن في الغرفة لقبتني كلمات السر، ثم طلبت مني الرحيل سريعاً، لأن مرشدي ينتظرني على بعد كيلومتر أو اثنين من «سان جان بييه دو بور».

قالت:

— هو يكره الأبواق. لكن بالإمكان سماعها حتى على بعد
كيلومترات من الساحة، ذلك أن جبال البيرنيه مخزن لصدى
الأصوات.

ومن دور أي تعليق إضافي، نزلت راجعة إلى الطبخ، لنتمعن في
تعذيب الصبي ذي العينين الحزينتين. عندما خرجت، سألتها ماذا
علي أن أفعل بسيارتي، فنصحتني بأن أترك المفاتيح عندها، لأن أحداً
ما سيأتي لأخذها. ذهبت لأنتشل من صندوق السيارة حقيبة الظهر
الرفقاء التي غلق إليها كيس النوم، ووضعتها في جيبها الأكثر
أماناً، صورة سيدة «باريسيه» والأصناف. تأبطت الحقيبة، ورجعت
لأسلم مفاتيح السيارة للسيدة سافان.

— غادر النوبة سالكاً هذا السارح حتى تصل إلى الباب الذي
هناك عند آخر الأسوار عندما تصل إلى مار يعقوب كومبوسنيلا،
أتل من أجلي السلام لك يا مريم. لحالنا عجزت هذه الطريق. أما
الآن، فاكثفي بأن أقرأ في أعين الحجاج الانفعال الذي ما رلت أشعر
به، ولا يمكنني أن أعيشه كاملاً من جديد بسبب سني. قل هذا
لمار يعقوب. قل له أيضاً إنني سألتقيه قريباً، ولكن عبر طريق
أخرى أكثر استقامة وأقل إرهاقاً.

تركت النوبة الصغيرة مجتازاً الأسوار عبر باب إسبانيا. قديماً،
كانت هذه الطريق العبر الفضل للقراة الرومان. ومن هنا أيضاً،
مزت جيوش شارلمان ونابليون. مشيت بصمت مستمعاً إلى جوقة
اليوافيين في البعيد. وهجاء، لدى بلوغي أنفاص إحدى القرى القريبة
من «سان جان»، تملكني انفعال شديد، وانغورقت عياني بالدموع،
هنا، فوق هذه الأنفاص، أدركت للمرة الأولى أن قديمي تنوسان
الطريق الغربية لمار يعقوب.

كانت تنبعث من جبال البيرنيه الحبيطة بالوادي موسيقى
امتزجت ألحانها باللون الشمس الصباحية. منحني مرآها إحساساً بأنني
أشاهد ممطراً طبيعياً بات منسياً من البشر، لا أستطيع تحليده بأي
شكل من الأشكال. ومع ذلك، كان هذا الإحساس غريباً وجارفاً
فزرت أن أسرع الخطى لأصل إلى المكان الذي حللته لي السيدة
سافان، وحيث كان ينتظرنني مرشدي. أثناء المشي، خلفت القميص
ووضعتها في حقيبة ظهري، لأن حفالاتها ألت كتعني العاريتين. أما
حلتي الرياضي القديم، فكان مناسباً تماماً لقديمي، ولم يشعرني
بأي إزعاج. وبعد أربعين دقيقة من السير، وعند منعطف يحاذي
صخرة ضخمة، وصلت إلى بئر قلعة مهجورة يجلس قربها رجل
شارف الخمسين، ذو شعر أسود، وهيئة تشبه هيئة الفجر. كان
يبحث عن شيء في حقيبته.

قلت في الإسبانية، وبالحجل الذي أشعر به دوماً عندما ألتقي
الغرباء:

— مرحباً. لا بد أنك تنتظرنني. أدعى باولو.

توقف الرجل عن التفتيش في حقيبته، ونفخصني ملئاً من
رأسي إلى أخمص قدمي. كانت نظرتة باردة، ولم يبدُ مبدئياً
لرؤيتي. وقد خالجي شعور غامض مماثل بأني رأيت من قبل.

قال:

— أجل، كنت بانتظارك لكسي لم أتوقع أنني سألتقيك بهذه
السرعة. ماذا تريد؟

أربكني سؤال من يختص به أن يرشدني إلى طريق «الجزء»،
بحثاً عن سبقي.

قال الرجل:

— الأمر لا يستحق العناء. نستطيع أن أجده بدلاً منك إذا شئت.
ولكن اتخذ قراراً، في الحال.

وجدت هذا الحوار غريباً ومع ذلك، وبما أنني تعهنت الطاعة التامة، فقد تهيأت للرد. إما كان يوسعه أن يبوب عني في العنور على السيف، فهذا سيجعلني أكسب وقتاً هائلاً، واستطيع، عندئذ، العودة سريعاً إلى البرازيل، إلى عائلتي وأعمالي التي شغلت أفكاري طوال الوقت. أو لعل في الأمر خدعة. مهما يكن، فلا حرج في الإجابة

هممت أن أجيب بالواقفة، وفجأة انطلق من ورائي صوت يقول بلغة إسبانية ذات نبرة قوية جداً:

— لا يحتاج المرء إلى تسلق الجبال، ليعرف أنها عالية.

هذه كلمة السر. استندت ورائي رجلاً شارب الأربعين يرتدي ببطالاً قصيراً كاكئي اللون، وفمبصاً بيضاء مبللة بالعرق. كان شعره رمادياً وقد أحرقته الشمس بشرة وجهه. نفّس الرجل بالفجري، وأدركت، عندئذ، أنني لغرض استعجالي سيث القوانين الأكثر بدنية لحماية النفس، ورميت بنفسي، جسناً وروحاً، بين ذراعي أول مجهول صادفته في طريقي.

أجبت عن كلمة السر:

— الراكب في أمان عندما يكون في الرفأ، لكن ليس لأجل هذا أضعت الراكب. ومع ذلك، فإن الرجل لم يشج بمطره عن الفجري ولا الفجري أشاح بمطره عن الرجل. نفّس كل منهما بوجه الآخر ملياً دون خشية ولا حسارة .. إلى أن رمى الفجري حقيبته أرضاً والابتسامة الساخرة تعلو وجهه، ثم رحل باتجاه «سان جان بييه دو بور».

عندما اختفى الفجري خلف الصخرة الصحمة التي انعطفت بمحادثاتها منذ دقائق قليلة، قال الواصل الجديد:

— انصت بتروس^(١). كن أكثر حذراً في المرة المقبلة.

كانت هناك بيرة ودية في صونه لم أعدها في صوت الفجري، ولا في صوت السيدة سافان. النقط حقيقته التي رُسمت فوقها ضفدة، ثم انتشل منها زجاجة من النبيذ. احتسى جرعة، ثم قذفها إلى. بعد أن شربته سألته عن هوية الرجل الفجري.
أوضح بتروس قائلاً:

— هذه الناحية الحدودية يؤمنها الكثير من النصوص والإرهابيون للانحناء إلى الباسك الإسباني. إن الشرطة لا تجرؤ على المجيء إلى هنا.

— ليس هذا جواباً مقنعاً. رايتمكما تنظران أحدهكما إلى الآخر وكأن هناك معرفة سابقة بينكما. كما شعرت أنا أيضاً بأنني أعرفه. لذا كنت متهوراً إلى هذا الحد معه.

ضحك بتروس، ثم قال إن علينا متابعة السير.

أخذت أمتعتي ومشينا بصمت. لكن ضحكة بتروس أتاححت لي أن أدرك أنها، كلياً، تعقد شيء نفسه، إنما قابلنا لتؤبنا شيطاناً.

أوغلنا في السير دون أن نبس بكلمة. كانت السيدة سافان على حقي، حتى على بعد ثلاثة كيلومترات، يمكننا دوماً سماع صوت الأبواق التي لا تكف عن العزف. أدت أن أطرح على بتروس أسئلة كثيرة تتعلق بحياته وعمله وسبب وجوده هنا. كنت أعرفه مع ذلك، أن أمامنا سبع مائة كيلومتر علينا اجتيازها معاً، وأن اللحظة المناسبة، لطرح هذه الأسئلة ونهل الأجوبة عنها، لا بد ستأتي. لكن الفجري لم يبارح أفكاري. وأخيراً قطعت حبل الصمت وقلت:

(١) في الواقع، أعلمني بتروس باسمه الحقيقي، ولكن بدافع حماية حياته الشخصية، غيّرت اسمه كما غيّرت أسماء الشخصيات الأخرى التي صادفتها على طريق «مار بقوب».

— بتروس، أعتقد أن الفجري كان الشيطان.

— أجل، كان الشيطان.

عندما أكّد لي بتروس ذلك، أحسست بمريج من الرهبة والعزاء.
وأصاف بتروس.

— لكنه ليس الشيطان الذي عرفته من خلال الميراث.

الشيطان، في الميراث، هو روح ليست بالشريرة ولا بالخيرة.
ويختبر حارساً على معظم الأسرار التي يستطيع الإنسان فهمها، كما
أنه مسلّط على الأشياء المادية وبما أنه ملاك ساقط، فهو يتماهى مع
الجسد البشري ومستعدّ دوماً لإبرام العاهلات، وتبادل الخدمات معه.
سألت بتروس عن الفرق بين الشياطين، بحسب الميراث،
فأجابني وهو يضحك:

— ستلتقي شياطين آخر على الطريق وستفهم وحدك. ولكن،
لإعطائك فكرة، حاول أن تتذكّر حوارك مع الفجري.

استعنت في ذهني الجملتين الوحيدتين اللتين تبادلتها معه. قال
إنه ينتظرني، وأكّد لي أنه سيذهب للعثبش عن سيّفي بدلاً مني.
عندئذ، أوضح لي بتروس أن هاتين العبارتين تنمسان، تماماً،
مع وضع سارق ضابط بالجرم لشهود. كان يحاول أن يكسب
الوقت لكي يتحضّر للهرب من المحكّر أن تحفي العبارتان معنى
مستتراً أكثر عمقاً، أو لعلهما تعكسان فعلاً أفكار الفجري.

سألته،

— أي من الافتراضين هو الصحيح؟

— كلاهما صحيح، فهذا اللص السكين كان يدافع عن نفسه.
وتلا على الفور الكلمات التي يجب أن تغال لك. فكر أنه، بتصرفه
هذا، سيبذل دكياً، وسيكون نداء لعوة عليا لو أنه هرب ساعة

وصلّت لما كنا نتحدث بهذا الشأن الآن. لكنه واجهني، وفكرت في
عينيه اسم الشيطان الذي ستلتقيه في طريقك.

كان هذا اللقاء مع الفجري بشير خير لبتروس، لأن الشيطان
أعلن عن نفسه في وقت مبكر للغاية.

لكن لا تشغل بالك الآن بالتفكير فيه، لأنه، كما قدّ لك،
لن يكون الوحيد. لعلّه الأهم لكنه ليس الوحيد.

استأنفنا السير. كان النبات صحراويّاً تشكّله الجنبات البهتة
هنا وهناك. لعلّ من الأفضل اتباع نصائح بتروس والاستسلام للأمور.
من وقت إلى آخر، كان بتروس يعلّق على حدث تاريخي جرى في
الأمّاكن التي كنا نمرّ بها، رايت بيتاً نامت فيه إحدى الملكات
عشية موتها، وكنيسة صغيرة محفورة في الصخر، هي صومعة
عاش فيها رجل قديم يقول عنه السكان القليلون إنه قادر على
اجتراح المعجزات.

سأل بتروس،

— المعجزة أمر هام جداً، ألا توافقني؟

شاطرته الرأي، مع أنه لم تنسّ لي في حياتي رؤية معجزة
كبيرة. كان اكتسابي لـ «الميراث» ذهنياً للغاية. كنت أعتقد
أنني، حين استردّ سيّفي، سأكون قادراً على تحقيق كل الأشياء
العظيمة التي كان يقوم بها معلّمي.

لكنها ليست معجزات بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنها لا تغير
قوانين الطبيعة. إن ما يقوم به معلّمي هو استخدام هذه القوى لـ . . .

لم أتمكن من إنهاء جملتي، لأنني لم أجد أي تفسير للأمور التي
ينجح معلّمي في تحقيقها، تجسيد الأرواح، ونقل الأشياء من مكانها
دون أن يلمسها. كما رأيته، أكثر من مرة، يفتح فسحات ررقاء
وسط السماء اللبنة بالغيوم، في أوقات بعد الظهيرة

عقب بتروس قائلاً:

— لعلة يفعل ذلك ليقنعك أنه يمسك بزمام القدرة والعرفة.

وافقت على قوله دون اقتناع:

— ربما.

جلسنا فوق إحدى الصخور، لأن بتروس قال لي إنه يكره التدخين أثناء المشي، وإن الرئتين تتشققان، والحالة هذه، كمية أكبر من النيكوتين منا يجعله يشعر بالغثيان.

«هذا هو السبب إذن في أن معلمك رفض إعطاءك السيف، لأنك لا تعرف الغاية التي من أجلها يقوم بأشياء حارقة. ولأنك نسيت أن طريق المعرفة مفتوحة أمام كل الناس، وخاصة الناس العاديين. سأعلمك خلال رحلتنا، بعض التمارين والطقوس المعروفة بـ «ممارسات رام»، وأي شخص قادر، في أي لحظة من حياته، أن يمارس أحد هذه التمارين على الأقل. ومن يفتش عنها بتأن وبغلا بصيرة، يكتشفها، جميعاً ودون استثناء، في الأمثولات التي تقدمها الحياة.

إن ممارسات رام هي بسيطة للغاية للدرجة أن الناس الذين كفوا مثلك تعقيد الحياة، لا يولونها أي أهمية.

كان بتروس على حق. فإن يسمح الله للمتففين وحدهم، أو للذين يمتلكون الوقت والمال لشراء الكتب الثمينة، بالوصول إلى المعرفة، فذلك سيؤيلاً ظلاماً إلهياً.

وأضاف بتروس:

— إن الطريق الحقيقية للحكمة تعرف من أمور ثلاثة: أولاً، تصفيتها الحب الإلهي، وسأحدثك عن ذلك لاحقاً ثانياً، تجلبها عبر ممارسة عملية في حياتك، وإلا تسمى الحكمة عبر مجدية وتصدناً كسيف، لم يشهر وأخيراً، توفر الإمكانيات لدى الجميع لاجتياز

طريق الحكمة، مثل هذه الطريق المائلة أمامك، طريق «مار يعقوب».

مشينا طوال بعد الظهر. وعندما هضت الشمس بالعروب وراء الجبال، قرّر بتروس التوقف من جديد. وكانت القمم الأكثر ارتفاعاً في جبال اليبيرية الملتفة حولنا قد ودعت آخر أضواء النهار طلب مني بتروس أن اتظف مساحة صغيرة من التراب، وأن أركع فوقها.

قال:

«الممارسة الأولى لـ «رام» تعلمك كيف تولد من جديد. عليك تنظيفها لمدة سبعة أيام متتالية، محاولاً أن تعيش بطريقة مختلفة، لفاتك الأول بالعالم.

«كم كان صعباً عليك النخلي عن كل شيء، واتخاذ القرار باختيار طريق مار يعقوب بحثاً عن سيفك. إذا شعرت بهذه الصعوبة، فلأنك كنت أسير الماضي فشلت وأصبحت تخاف من هزيمة جديدة. حصلت على شيء ما، وأمسيت تخاف أن تخسره. ومع ذلك، فإن شعوراً أقوى من كل شيء طمأ على السطح، رغبت في استعادة سيفك وفزرت الجارفة».

وافقت على قوله، لكنني لم أتخلص بعد من الشاغل التي ألح إليها.

«هذا ليس مهماً التمرين يحزرك تدريجاً من الأورار التي خلقتها، لتت نفسك في حياتك».

وعلمني أول ممارسة في «رام»، إنه تمرين البندقة.

قال بتروس،

— قم بهذا التمرين الآن.

وضعت رأسي بين ركبتي. تنفست بعمق واسترخيت. استجاب جسدي بسهولة.

تمرين البذرة

اجث على ركبتيك واستند إلى كاحليك ثم انخفض حتى يلامس رأسك ركبتيك. أبسط ذراعيك إلى الخلف. أنت الآن في وضع جنين، فاسترخ، وفن كل توتر شعشع عميقاً وبهدوء. تشمر تدريجاً تلك بذرة صغيرة بحيط بها سكون الأرض. كل شيء نافي، ولين من حولك، وسوف تستغرق في نوم هادئ.

وفجأة، ترتعش إحدى أصابعك. لا يمكن للبذرة أن تظل كما هي، يجب أن تولد. تحرك ذراعك ببطء، وتعيد جسك إلى وضعه السابق، مستنداً إلى كاحليك. عندئذ، تنهض. وشيئاً فشيئاً، تستند إلى ركبتيك، وتظهر مستقيم. تخيل، طوال هذا الوقت، أنك بذرة تحولت إلى بنة صغيرة، تشق أديم التراب رويدةً رويدةً.

بحين الوقت لتشق التراب. تنهض بنمهل على فاسق الأولى ثم على الأخرى، وأنت تسعى جاهداً للحفاظ على توازنك، أشبه ببنة تصارع لتثبت في مكانها. تخيل الحقل من حولك، والشمس، والرياح، والعصفير، أنت بذرة تمت لتصبح بنة. تنهض ببطء، رافعاً ذراعيك نحو السماء، ثم تمنط جسك بقدر ما تستطيع، وكأنك تريد أن تمسك بالشمس. **هذه هي اللحظة التي تصبح فيها بذرة** ما تستطيع، وكأنك تريد أن تمسك بالشمس. **هذه هي اللحظة التي تصبح فيها بذرة** جسك أكثر تصلباً وعصياً. **هذه هي اللحظة التي تصبح فيها بذرة** عملاقاً. **هذه هي اللحظة التي تصبح فيها بذرة** تطلق صرخة، وتفتح عيونك.

كزز هذا التمرين سبعة أيام متتالية، ونظماً في فوق نصف

— ربما استجاب لأننا مشينا كثيراً خلال النهار، وكان جسدي متعباً. أخذت أصغي إلى صوت الأرض، إنه صوت **جسدي** وأجش. وشيئاً فشيئاً، تحولت إلى بذرة. **لم أذكر شيء...** كان كل شيء قائماً، وأنا نائم في باطن الأرض. ثم فجأة، تحرك جزء مني. أراد جزء مني أن يوقظني ويخشي على الخروج. **كان هناك شيئاً ما آخر فوق.** حللتني باتماً لكن **قبل الجزء الآخر**، وأخذت بحرك أصابعي التي حرّكت بدورها ذراعي. ومع ذلك، لم تكن تلك أصابع ولا ذراعين، بل بذرة صغيرة تصارع للتحرر من قوة الجاذبية في الأرض، وننتجه إلى فوق. شعرت أن جسدي استجاب لحركة ذراعي. وكل ثانية مرّت بدت لي أبدة. لكن البذرة كانت بحاجة أن تولد وتكتشف ماذا يوجد فوق. وبصعوبة فائقة، استقام رأسي، ثم جسدي. كان كل شيء بطيئاً للغاية. وكان عليّ أن أجابه القوة التي تجتذبني إلى باطن الأرض، حيث كنت مستغرقاً في نوم أبدي. لكنني نجحت، وتغلّبت، أخيراً، على هذه القوة، ونهضت. اخترقت الأرض، ووجدتني محاصراً بهذا الشيء الذي يمثل فوق.

إنه الربيع. أحسست بحرارة الشمس، وسمعت طنين الحشرات ووشوشة الساقية الجارية في البعيد. نهضت ببطء، وأنا مخمض العينين، معتقداً، في كل لحظة، أنني سأفقد توازني وأعود إلى الأرض. ومع ذلك، فإني كنت أبدو باطراً، ذراعاي تبتعدان، وجسدي يتصلّب. كنت هنا أولد من جديد، متمنياً من هذه الشمس الهائلة الساطعة، التي تطلب مني أن أبدو وأنمذ حتى أعافها بكل أعصابي، أن تعمري بمورها من الداخل والخارج. اجتذبت ذراعي إلى أقصى حدّ قائمتي كل عضلات جسدي. شعرت أن ارتفاعي يبلغ ألف متر، وأني أستطيع أن أحتص الجبال. تمتد

جسدي، تمند إلى أن شعرت أن الألم العضلي بات غير محتمل،
فصرخت.

فتحت عيني، ورأيت بتروس أمامي يدخن مهتصماً. لم يكن
صوت النهار قد تلاشى بعد. لكبي نهشت لاكتشافي أن الشمس لم
تكن بالإشراق الذي تصوّرته. سألته هل كان يرغب أن أصف له
أحاسيسي، فأجاب بالنفي.

— هذه أشياء خاصة جداً، يجب أن تحتفظ بها لنفسك، فكيف
يسعي أن أحكم عليها، إنها نصيبك وحدك.

ثم أضاف أننا سنام هنا، أشعلنا ناراً صغيرة، واحتسينا ما تبقى
في رجاجة النبهذ. حضرت بعض الشطائر من «بانيه» الكبدة التي
اشتبهتها قبل وصولي إلى «سان جان» ذهب بتروس إلى الساقية التي
تجري قرب المكان، وأصطاد أسماكاً شواها على النار ثم تمند
كل منا في كعس النوم.

من مجمل الأحاسيس التي اعتنسي في حياتي، لا أستطيع
بسياس هذه الليلة الأولى التي قضيتها على طريق «مار يعقوب». كان
الطقس بارداً، على الرغم من أننا في فصل الصيف. لكن طعم
النبهذ الذي أحضره بتروس لا يزال في فمي. بطرت إلى السماء،
ورأيت المجرة التي ترشد إلى الطريق الهائلة التي علينا اجتيازها في
ظروف مختلفة، قد يكون هذا الاتساع حافراً للشعور بالقلق الشديد
والخوف الكبير من الفشل وعدم الجدارة. ولكن، اليوم، كنت
بذرة، وولدت من جديد. «كتشفت أن الحياة فوق أكثر جمالاً،
ورغم الراحة التي تمنحني إياها الأرض، ورغم اليوم الذي استرسلت
فيه. وأستطيع أن أولد قدر ما أشاء، حتى تصبح ذراعاي كبيرتين،
لأعاق الأرض التي أنبت منها.

الخالق والخلقة

لنستلث أيام، مشبهاً عبر البيريه، متسلقين الجبال صعوداً ويزولاً
كان بتروس يجعلني أكرز تمرين البكرة، في كل مرة يحتجب
فيها نور الشمس عن القمم الأكثر ارتفاعاً. في اليوم الثالث، بلغنا
عموداً يشير إلى أن اقديما وطأت الأرض الإسبانية. حنثي بتروس،
تباعاً، عن بعض الجوانب التي تتعلق بحياته الخاصة، عرفت أنه
إيطالي ورسام صناعي^(١). سألته هل كان منشغلاً بالأعمال التي
تركها لينصرف إلى إرشاد حاج يفتش عن سيفه.

أجابني:

— أود أن تفهم شيئاً، أن إرشادك بهدف العثور على سيفك، فهذا
أمر يعود تنفيذك إليك فقط. أنا هنا لأقودك إلى طريق «مار يعقوب»،
وأعلمك قواعد برام. أما الطريقة التي سنطبق من خلالها هذه
القواعد للعثور على سيفك، فشان يضحك أنت وحدك.

— لم تجبني عن سؤالي.

(١) يؤكد كولن ويلسون أن ليس هناك ما يسمى مصادفة في هذا العالم، ومرة أخرى
تسلي لي التأكيد من صحة هذا القول، بعد ظاهرة أحد الأيام، كنت تصفح الجلات
في قاعة الفندق حيث نزلت في مدريد عندما لفت انتباهي تحقيق عن جائزة أمير
استورياس، لا سيما وأن الصحافي البرازيلي روبرتو ماريهو كان أحد الفائزين. نظرت
بتمعن أكثر إلى صورة اللادة التي تقيمت على شرف الجائزة، فصعقتني المفاجأة،
على إحدى الطاولات رأيت بتروس مثقفاً في بذلة سموكبيغ، وفي أسفل الصورة
فترات التعلق التالي بأحد أهم التصميمين في أوروبا حالياً.

— عندما تسافر، تختبر عملياً فعل الولادة من جديد. تجد نفسك حيال أوضاع جديدة عليك تماماً. فالنهار يمضي ببطء، وأنت غالباً لا تفهم اللعبة التي يتكلم بها الناس، كأنك تشبه طفلاً خرج من بطن أمه للتو. في هذه الشروط، تبدي اهتماماً أكبر بما يحيط بك، لأن بقاءك موقوف بذلك. وتصبح إنساناً منفتحاً على الآخرين، ومتقبلاً لهم، لأنهم يشكلون عوفاً لك في الحالات الصعبة. تتلقى أقل نعمة من الآلهة بفرح عظيم، وكان الأمر يتعلق بفصل من حياتك لن تتمكن من نسيانه ما حييت.

وبما أن كل شيء جديد، فانت لا ترى في الأشياء إلا جمالها. وتقبل بسعادة أكبر على الحياة لذلك كان الحج الديني يوماً، إحدى الطرق الأكثر موضوعية لبلوغ حالة الإشراق الروحي. فلنكي تتطهر من أدامك بحجب أن تسير قديماً إلى الأمام متكيفاً مع الأوضاع الجديدة، ومتلفياً، بالمقابل، آلاف النعم التي تمنحها الحياة بسخاء لطالبها.

— أو تعتقد أنه ينبغي لي ألا أخفي قلبي على بصعة مشاريع لم أنجزها، لأكون هنا معك؟

أنار بتروس وجهه، وتبعث حركة رأسه، كان هناك قطيع ماعز يرعى عند منحدر الجبل. تسلفت إحدى العشرات الجريئات صخرة مرتفعة، ووقفت على طرفها المسنون البائن، تساءلت كيف بإمكانها بلوغ ذلك والرجوع سالمة إلى القطيع. ما كنت أنهي سؤالاً حتى وثبتت العنزة، وسنبلت إلى نقطة ماء، لم تستطع عياني رؤيتها، لتوافي رفيفاتها كان كل شيء في الجوار يعكس سلاماً حياً، سلام عالم يمكنه أن ينمو ويبدع ويعرف أنه من أجل ذلك عليه متابعة السير باطراد أحياناً، كان حدوث زلزال عفيف، أو هبوب عاصفة هوجاء، يشعرني بأن الطبيعة قاسية متوحشة. والآن بت أفهم أن هذه الأمور تعد من مخاطر الطريق. فالطبيعة تسافر، هي أيضاً، بحثاً عن الإشراق.

قال بتروس،

— أنا مسرور جداً لوجودي هنا، فالعمل، الذي لم أنجزه، لم تعد له أهمية. أما الأعمال التي سأنجزها لاحقاً، فسوف تكون أفضل.

عندما فرات مؤلفات كارلوس كاستانيدا، رغبت كثيراً في أن ألتقي الساحر الهندي العجوز دون خوس. وعندما نظرت إلى بتروس وهو يتأمل الجبال، بدا لي أنني في حضرة أحد بشبهه وكأنه أخ له.

بعد ظاهرة اليوم السابع، وبعد أن اجتريا غابة من الصوبر، بلغنا أعلى ربوة. هنا، صلى شارلمان للمرة الأولى على أرض إسبانيا. وفوق نصب قديم، كتبت كلمات باللاتينية تشير إلى أن الاحتفاء بهذا الحدث، يقتضي من الزائر أن يتلو «السلام عليك أيتها الملكة». فُلحنا، أنا وبتروس، ما توصي به الكتابة. ثم طلب مني بتروس أن أقوم بتمرين البكرة للمرة الأخيرة.

كانت هناك ريح قوية، وكان الطقس شديد البرودة. اعترضت على ما طلبه مني بتروس، متذرعاً بأن الوقت لا يزال مبكراً، إذ كانت الساعة لم تجاوز الثالثة بعد الظهر، لكنه أمرني بالأداء، وأن أنفذ التمرين في الحال.

جنوئت على التراب وباشرت التمرين. جرى كل شيء كالعادة، إلى أن انبسطت ذراعي، وبدأت لتختل الشمس. عندما وصلت إلى هذه النقطة، حيث الشمس الهائلة تسطع أمامي، شعرت أنني دخلت في حالة من الانخفاف. كانت مشاعري الإنسانية تنطفئ، ببطء، ولم يعد الأمر مقتصر على تمرين أقوم به، بل تحولت إلى شجرة. كنت سعيداً وراضياً بذلك، في حين أن الشمس تسطع وتلدور حول نفسها، وهذا ما لم يحصل من قبل. وبقيت هنا، أغصاني ممدودة، وأورقي تعبت بها الريح. رغبت في ألا أفارق البثة هذه الحالة ..

حتى اللحظة التي مشي فيها شيء ما، فأطلم كل شيء حولي بأقل من ثانية.

فتحت عيني من جديد. كان بتروس قد صفعني، وأمسكني من كتفي. ثم قال لي بلهجة غامضة:

— لا تنس الأهداف التي جئت من أجلها. لا تنس أنه ما يزال أمامك الكثير لتتعلمه قبل أن تعثر على سيفك!

جلست على الأرض، وأنا ارتجف من برودة الريح سالت:

— هل ما حدث لي يحصل دائماً؟

— غالباً، ولا سيما مع الناس الذين تستهويهم مثل تلك التفاصيل، فيسبون الهدف من سعيهم.

استل بتروس سترة من حقيبته وارتناها وارتلجت قميصاً آخرى فوق القميص التي كتب عليها "I love Ny". لم أكن أنخيل أن الطقس سيكون بارداً إلى هذا الحد، في هذا الصيف الذي وصفته الصحف بأنه «الأكثر حراً منذ عظيم ومعني بجمهورية القميصين قد عزلت عني بعض الهواء، فقد طليت من بتروس أن بحث الخطي لكي أشعر بالنفخ قليلاً.

كنا بسلك طريقاً منحدرًا سهل العبور. اعتقد أن ما اخترت به من برد يهري إلى الطعام الخفيف جداً الذي كنا نتناوله، والذي يعتمد، فقط، على الأسماك وثمار الغابات^(١). لكن بتروس أوضح لي أن شعورنا بالبرد راجع إلى أننا نتسلق الآن النقطة الأكثر ارتفاعاً في مسيرتنا على الجبال.

لم نكد نجتاز خمسمئة متر، وبلغ منحطف أحد المسالك حتى تبدل المنظر كلياً. تراءى أمامنا سهل فسيح مموح وعلى بعد

(١) ثمار حمراء لا أعرف اسمها، ولكن رؤيتها اليوم تشعرني بالغبطة. لكثرة ما أكلت منها خلال سفري في جبال فييريه

منقي متر شمال الطريق المنحدر، كانت هناك قرية صغيرة في انتظارنا بمداخلها التي يتصاعد منها الدخان. أردت أن أسرع الخطى، لكن بتروس صني، ثم جلس على الأرض مشيراً علي بأن أأخذ حذوه، وقال:

— أعتقد أن هذه هي اللحظة المثلى لأعلمك التمرين الثاني من برامجي.

جلست رغباً عني. كانت رؤية المدينة الصغيرة، بمداخلها التي يتصاعد منها الدخان، قد هيئت أشجاسي. وفجأة، أدركت أن أسبوعاً قد مرّ وبحر في الربف لا يرى أحداً، نيام في العراء وبمشي طوال النهار. نغدت سجانري، وكنت مجبراً على تدخين سجانر بتروس الملقوفة، التي تثير روعي. أما الرقاد في كبس النوم وتناول السمك دون توابل، فقد كانا من أغلى الأمسيات التي راوتني عندما كنت في سن العشرين. لكن، على طريق «مار يحقوب»، بدأ الأمر وكأنه أمثال مبالغ فيه. انتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي بتروس من لف سيجارته، ويدخلها بصمته، فيما أنا أحلم بالنفخ الذي ثبته في أوصالي كأنني من السهيد لتناولها في حانة أراها من هنا، ولا يستغرق الوصول إليها أكثر من خمس دقائق. كان بتروس يبدو هادئاً، وهو منتثر بسترته، بسرح نظره في السهل المترامي الأطراف.

سألني بعد قليل:

— كيف وجدت اجتياز المبرنيه؟

أجبت، دون رغبة في إطالة الحديث:

— جميلاً جداً

— لا بد أنه كان جميلاً جداً، لأننا قضينا ستة أيام نسير على

طريق كنا نستطيع سلوكها في يوم واحد.

لم أصنّفه. أخذ الحارطة، وأظهر لي المسافة، سبعة كيلومترات.

يمكن سلوك هذه الدرب، بكل ما فيها إحدارات وعقبات، وما يستوجب ذلك من إبطاء في السير، خلال ست ساعات فقط.

«أنت مشغول للغاية بالعنور على سيفك لدرجة أنك نسيت الأهم، الطريق التي يجب سلوكها لبلوغه. كنت تنظر فقط إلى شطر مليحة «كوميوستيلا» التي لا تستطيع رؤيتها من هنا، ولم تلاحظ، بالتالي، أننا مررنا بالأمكن نفسها أربع مرات أو خمس، عبر طرق مختلفة».

فيما كان بتروس يتغوه بهذا الكلام، أدركت أن قمة ليتشاشغري، وهي الأكثر ارتفاعاً في المنطقة، كانت، خلال تجوالنا، تظهر تارة إلى يميني وتارة إلى يساري. لكن، حتى ولو لاحظت ذلك، لما استطعت أيضاً التوصل إلى استنتاج أننا، مشينا الطريق نفسها ذهاباً وإياباً مرات عدة.

«كل ما فعلته، هو أنني سلكت طرقاً مختلفة مستعينا من المسالك التي افتتحها للصوم وسط الغابة. رغم ذلك فإنه كان يفترض بك أن تنبيه للأمر. لكنك سهوت عنه، لأن السير، بحذ ذاته، لم يكن يهتك بل الرغبة في الوصول».

— وافترض أنني انتهت إلى ذلك، فما الذي كان سيحصل؟

— في جميع الأحوال، لا مغز من مسيرة الأيام السبعة، لأن تمارين «رام» تقتضي ذلك أيضاً لكن كان باستطاعتك الاستفادة من البهرية بطريقة أخرى.

أنستني دهشتي البرد والقرية المائلة أمامي.

وأضاف بتروس،

— عندما يسافر سعيّاً وراء هدف، من المهم جداً أن تغير الطريق الاهتمام، لأن الطريق هي التي تسهل الوصول إلى الهدف، وهي التي تربطنا غنى وعمقاً، كلما توغلنا فيها. إن قارئاً الطريق بالعلاقة الجسدية، استطاع أن أقول لك إن اللذات التمهيدية، هي التي تحدد قوة المشوة. والجميع يعرفون ذلك.

«وهكذا، عندما نملك هدفاً في الحياة يرجع، لما وجدنا الأمر في حله أفضل أو أسوأ، تبعاً للطريق التي بجانها لبلوغه، والوسيلة التي تمكنا من اجتيازها أيضاً لهذا السبب، يغدو التمرين الثاني

هي «رام» مهمّاً جداً، وهو يقوم على اغتراف الأسرار من الأمور التي ألفنا رؤيتها كل يوم، ولكن رقابة حياتنا حالت بيننا وبين رؤيتها».

ولفتني بتروس تمرين السرعة،

«لذا كنت في المدينة منهمكاً إلى أقصى حد بعملك اليومي، فعليك أن تمارس هذا التمرين لمدة عشرين دقيقة فقط. لكن، بما أننا اليوم نجتاز الطريق الغربية لار يعقوب، فإننا نحتاج إلى ساعة من الوقت للوصول إلى القرية».

عاودني الشعور بالبرد الذي نسبته، وبظنرت إلى بتروس، وأنا محبط الغربة. لكنه لم يولني اهتمامه، حمل حقيبته، وطفقنا نجتاز اللتي مثر التي تفصلنا عن القرية ببطء ففقط.

في البداية، لم أنظر إلا إلى الحانة، وهي مبنى قديم مؤلف من طبقتين وتعلو بابه لافتة خشبية كنا قريبين جداً، بحيث أمكنني قراءة التاريخ الذي مضى على تشييد هذا المبنى، وهو ١٦٥٢. كنا نتقدم، لكننا نراوح مكاناً، على ما يبدو. كان بتروس يصع قداماً تلو الأخرى ببطء شديد، وكنت أحذو حذوه. أخذت ساعتني من حقيبتي، ووضعتها في معصمي.

قال،

— هذا أسوأ، لأن الوقت لا يجري يوماً على الوثيرة نفسها

طفقت أنظر إلى ساعتني دون توقف، وفهمت أنه كان محقاً. كلما نظرت إلى الساعة، مزت اللذات ببطء أكبر. ففكرت أن أعمل بمصباحته، فأخذت ساعتني إلى الحقيبة. حاولت أن أكرس اهتمامي للمنظر والسهل والحجارة التي تدوسها قدماي، لكن نظري ظلّ معلقاً بالحالة المائلة قبالي، تحلوني قباعة بأننا جامدان لم نتحرك قيد أنملة. خطررت لي فكرة أن اخترع قصصاً لأسلي نفسي، لكن هذا التمرين جعلني عصبياً إلى درجة عجزت معها عن التركيز. وعندما عجل صبري، أخرجت الساعة من حقيبتي مجنناً، فوجدت أن إحدى عشرة دقيقة فقط قد مرت.

تمرين السرعة

امشي لمدة عشرين دقيقة لطفاً مرتين منّا تعني عادة. وفتبه إلى كل التفاصيل التي تحيط بك، الناس والنظر وكل شيء من الأفضل أن تقوم بهذا التمرين بعد تناول الفطور. عاود التمرين لمدة سبعة أيام.

www.newcity.com
By Dalyia

قال بتروس:

— لا تجعل من هذا التمرين عبئاً، لأنه لم يوضع لهذه الغاية. حاول أن تستمتع بسرعة لم تألفها من قبل، لأنك، حين تمارس، يشعرك مختلف، الحركات الروتينية التي تمارسها كل يوم، تنهج، بذلك الإنسان جديد أن يدنو داخلك. والقرار، في النهاية، يعود إليك.

إن اللطف الذي تضمنته العبارة الأخيرة، هذا من روعي قليلاً إذا كان الأمر يعود إلي لأقرر ماذا أفعل بهذه اللحظات، فمن الأفضل أن أبتعد من الوصف، وأغتر مجرأ لصالح. تنفست بعمق، وتحاشيت التفكير، أبطأت في داخلي حالة ذهنية، وكان الوقت بات شيئاً بعيداً، خارجاً عن دائرة اهتماماتي. وبدأت بهوء مترابدة، أنظر إلى ما يحيط بي. والخيال، الذي كان مستعصياً عندما كنت متوتراً، بدأ يعمل لصالح. نظرت إلى القرية القابلة لي، وخرعت لها قصة، وكيف بُنيت، ما أكثر الحجاج الذين مزوا من هنا، ما أسعد التعريف إلى أناس غرباء، ما أذّ تنشق هواء جبال البيرنيه الفارس... في وقت من الأوقات، خيل إلي أني أرى في عمق القرية حضوراً قوياً، غامضاً وحكيماً. لقد أخصب منظر السهل خيالي بالمشاهد، فرأيت الفرسان يخوضون المعارك، رأيت سيوفهم اللامعة في الشمس، وسمعت صرخات الحرب. لم تعد القرية مكاناً فقط لأفكر، روعي بالنبيذ، وجسدي يغطاء، بل صارت حدثاً تاريخياً، صديق أناس أبطال تركوا كل شيء ليقوموا في هذه الأماكن القصية. كان العالم يصيح من حولي، وأدركت أني لم أوله من اهتمامي سوى القليل، في أغلب الأحيان.

عندما أدركت ذلك، كنا أمام باب الحانة، وكان بتروس يدعوني للدخول، قلناً:

— أدعوك إلى كأس مبيد. سسام باكرأ، أني غدا سأعزفك إلى
مجوسي كبير.

وصعي في حالة من الذهول تشبه الرعدة التي خيرتها خلال
ممارسة الطقوس التي حكما نعيمها في جمعية المراثي.

سالت بتروس متذكراً أقواله البارحة،

— والمجوسي؟

فاتار بحركة من رأسه إلى كاهن تحيل متوسط العمر،
يرتدي نظارة ويجلس قرب الرهبان الآخرين، على مقعد طويل
يحيط بالمذبح. إنه مجوسي وكاهن، فهل هذا يعقل!

نمت نوماً عميقاً خالياً من الأحلام. وفيما كان النهار يطلع
وينتشر عبر الشوارعين الوحيدين في قرية «روسوفو»، قرع بتروس
باب غرفتي. قصيداً ليلتنا في الطابق الثاني من الحانة، التي كانت
في الوقت نفسه نزلًا.

تناولنا القهوة السوداء والخبر الفخس بريث الريتون، وخرجنا.
كان هناك ضباب كثيف يكتنف المكان. اكتشفت أن
«روسوفو»، لم تكن قرية كما ظننت. وعرفت أنها كانت تشكل
النير الأكثر نفوذاً في عهود الحج القديمة، وكانت تابعة مباشرة
لأراضي تمتد حتى حدود «نافارا»، وقد احتفظت بخصائص تلك
الرحلة. أما مبانيها القليلة، فتشكل جراً من مدرسة دينية، في
حين أن البنى، ذا الطابع العلماني الوحيد، هو الخانة التي نزلنا فيها.

مشينا عبر الضباب، ودخلنا الكنيسة الجمعية. كان هناك
عدة كهنة يقيمون رتبة القناس الصباحية، وهم يرتدون ثيابهم
الكهوتية البيضاء. لم أفهم كلمة واحدة مما يقولونه، لأن القناس
كان يقدّم في لغة الباسك. جلس بتروس على مقعد في الخلف
وطالب مني أن أبقى إلى جانبه.

كانت الكنيسة ضخمة، وتحوي أعمالاً فنية لا تُقتر قيمتها
بثمن. شرح لي بتروس أنها بنيت بعصل هيات ملوك وملكات
البرتغال وإسبانيا وفرنسا والناسيا، في مكان عثبه الامبراطور شارلمان
مسبقاً. كان تمثال عذراء «روسوفو»، يعلو المذبح، وهو منحوت من
الفضة الثقيلة. أما الوجه، فمن الحشب العفيس، وسحتت بأفة الأزهار
التي تحملها بين يديها، من الأحجار الكريمة. وقد نمكت راحة
البخور والبناء القوطي والكهنة بثيابهم البيضاء وثأشيتهم، من

بعد انتهاء رتبة القناس، تركني بتروس جالساً وحدي على
المقعد، واتجه خارجاً عبر الباب نفسه الذي خرج منه الكهنة.
وبقيت أتأمل الكنيسة. قلت في نفسي إن عليّ أن أصلي، لكني لم
أستطع التركيز على شيء. كانت الصور تبدو لي أسيرة ماضٍ
غابر لن يرجع، حتى يرجع العصر الذهبي لطريق «مار يعقوب».
ظهر بتروس عند الباب وأومأ لي أن أتبعه.

وصلنا إلى الحديقة الداخلية التي تحيط بالنير، على حافة
السيل، كان الكاهن ذو النظارة متأهباً للقائنا.

قال بتروس، معزفاً عني،

— أيها الأخ جوردي، هذا أحد الحجاج.

بسط لي الكاهن يده، فصافحته. وحُيّم عليها صمت عميق.
انتظرت أن يحدث شيء، لكني لم أسمع إلا صياح الديكة في
البعيد، وأصوات البورس الباحث عن طرائد يومية. نظر إليّ
الكاهن، ببرودة، نظرة شبيهة بتلك التي رمفتني بها السيدة سافان
حين تلعّظت «الكلمة القديمة».

— يا عزيزي، يبدو أنك تسلفت بسرعة المرتب هي جمعية الميراث. أحبته أن عمري ثمانية وثلاثون سنة، ونسي نجحت في جميع التحكيمات^(١) تابع الكاهن كلامه، وهو يحرق إلي بمنطرة خالية من أي تعبير،

— إلا تحكيماً واحداً، وهو الأهم. من دونه يعدو كل ما تعلمته بلا معنى.

— من أجل هذا، أخرج على طريق «مار يعقوب».

— لكن هذا ليس ضماناً. تعال معي.

بقي بتروس في الحديقة، وثبتت الأب جوردي. اجتريا أروقة النهر، ومررنا بالقرب من المكان الذي نفن فيه أحد الملوك، سانشي الباسل توقفنا داخل كنيسة صغيرة بنيت في أقصى الأبيسة الرئيسية لنهر «رونسوفو».

في الداخل، كانت الكنيسة فارغة، إلا من طاولة وكتاب وسيف. لكنه لم يكن سفي.

جلس الأب جوردي أمام الطاولة، وتركني واقفاً ثم تناول بعض الأعشاب، وأحرقها مما عطر الجو. كان الوضع يدكرني بلقائي السيدة سافان.

قال الأب جوردي،

— بدياً، أريد أن أنتهك، إن طريق «مار يعقوب» هي إحدى الطرق الأربع، إنها طريق البستوي. وهي تجلب لك القوة، لكن هذا ليس كافياً.

— وما هي الطرق الثلاث الأخرى؟

— تعرف اثنتين منها، طريق أورشليم، وهي طريق الكنا، أو

(١) التحكيمات هي اختبارات طقسية لا تستند فقط إلى داب التلميذ أو إلى اجتله، بل تقوم، أيضاً، على إعلان التي تظهر خلال إجرتها. ويعود أصل هذه الكلمة إلى عهد المحاكمات الدينية

الكاس التي قنحها المسيح أثناء العشاء السزي، وهذه تجلب لك القدرة على اختراع العجرات. وطريق روما، وهي طريق السباتي التي تتيح لك الاتصال بالعوالم الأخرى.

قلت ممزحاً،

— تبقى، إذن، طريق الدياري، لتكتمل ألون الورق الأربعة

— تماماً. هذه هي الطريق السرية التي ستسلكها ذات يوم. لكنك لن تتمكن أن تخبر أحداً عنها. والآن لندع هذا جانباً أين هي أصنافك؟

فتحت حقيبة ظهري، وأخرجت الأصناف وصورة سيدة «باريسيا». وضعها على الطاولة، ثم بسط يديه فوقها، وركز طالباً مني أن أفعل ما فعل. ارتد العطر المنبعث من الأعشاب قوة. كانت أعيننا، أنا والكاهن، مفتوحة. وفجأة أدركت أن الظاهرة، التي شاهنتها في «إيناسييا» تتكرر. كانت الأصناف تلتمع بصوت لا يميز، ثم ارتد البريق حدة، وسمعت صوتاً غامضاً ينبعث من حنجرة الأخ جوردي، قائلاً،

— «حيث يوجد كنزكم، هناك يكون قلبكم».

كانت هذه جملة من الكتاب المقدس. وتابع الصوت،

— «حيث يوجد قلبكم، هناك يكون مهد المجيء الثاني للمسيح، وكما هي هذه الأصناف كذلك هو زائر طريق مار يعقوب، ليس إلا صنف». وأنا سكسرت الصنف الصنوعة من الحياة، نظهر الحياة التي هي الحب الإلهي.

سحب الأب جوردي يديه، وكففت الأصناف عن اللمعان. ثم سأل اسمي داخل كتاب موضوع على الطاولة. وحلال رحلتي على طريق «مار يعقوب» سأل اسمي في كتب ثلاثة هي: كتاب السيدة سافان وكتاب الأخ جوردي، وكتاب «المعرفة»، حيث أكتب اسمي بنفسي.

«هذا كل شيء يا مكاكم الذهاب. فلترافقكم بركة عداء
«رونسوفو، ومار يعقوب حامل السيف».

وثناء عودتنا إلى المكان الذي ينتظرنا فيه بتروس، قال لي
الكاهن، على سبيل الإيضاح،

— إن طريق «مار يعقوب» يشار إليها بنقاط صفراء مبعثرة عبر
إسبانيا، إذا أضعتم الدرب في وقت من الأوقات، فما عليكم إلا أن
تفتشوا عنها على الأشجار والحجارة واللافتات المصوبة في الطريق
ليستدل بها المسافر، وثقوا أنكم قادرون على بلوغ مكان آمن.
— لنسئُ مرشد جيد.

— عليك أن تعتمد على نفسك، كي لا تكون مضطراً لقضاء
سنة ليام ذهاباً وإياباً في وسط البيرنيه.
كان الكاهن إذن يعرف ما حصل لي.

وافينا بتروس، ثم استأننا بالانصراف. تركنا «رونسوفو» في
الصباح، وقد انقشع الصباب تماماً. كانت الطريق تمتد أمامنا
مستقيمة مستوية، ورحلت نفتش عن العلامات الصفراء التي حثثني
عنها الأب جوردي. كانت حقيبة ظهري أثقل، لأنني اشتريت
زجاجة خمر من الحانة، مع أن بتروس قال لي إن هذا ليس
ضرورياً، لأننا ابتداءً من «رونسوفو» سنجتاز مئات القرى، ولن
نضطر إلى النوم في العراء إلا لأمأً.

— بتروس، حثثني جوردي عن المجيء الثاني للمسيح، وكان هذا
الأمر حدث فعلاً.

— ويحدث دائماً. هذا هو سر السيف.

— ثم لا تمسى أنك قلت لي إنني سألتقي أحد الجوس، لكنني
التقيت كاهناً. ما علاقة هذا بالكنيسة الكاثوليكية؟
تلفظ بتروس بعبارة واحدة،
— علاقة مطلقة.

سألت العجوز، إذ لاحظت رغبته في الكلام،

— ماذا اغتيل الحب هنا؟

— منذ قرون، كانت هناك أميرة نحج على طريق «مار يعقوب»، وهي فيليبي داكتيان. فزرت أن تتخلى عن كل شيء، وتقيم هنا لدى رجوعها من كومبوستيلا. كانت تجسداً حياً للحب، لأنها تقاسمت ثروتها مع الفقراء، واعتنت بالمرضى.

اشعل بتروس إحدى سجنائه الفظيعة المعلقة. لكنني لاحظت أنه كان يولي القصة اهتماماً، رغم مظهره اللامبالي.

أصاف العجوز،

— عمنلخب، أوفد والدها أخاها النوق غوبرمو لاسترجاعها، هرففست. ولما بنس النوق من الأمر، طعنها بخنجر في الكنيسة الصغيرة التي تراها هناك، والتي بنتها بينديها الاثنتين، لتعني بالفقراء وتمجد الله.

«عندما رجع النوق إلى بلاده أترك فعلته، فذهب إلى روما ليطلب المغفرة من البابا، الذي أجبره على أن يقوم بالحج إلى كومبوستيلا، تكفيراً عن ذنبه. عمنلخب حصل أمر غريب، لدى مروره من هنا، أحمل بالانقطاع نفسه، وفزر الإقامة في الكنيسة الصغيرة التي بنتها أخته، ليعني بالفقراء حتى آخر أيام حياته الطويلة.

قال بتروس وهو يضحك،

— إنه قانون العودة.

لم يفهم الزارع تعقيب بتروس. لكنني كنت أترك تماماً ما كان يرمي إليه. أثناء تجوالها الطويل، أجريتا نقاشات لاهوتية مطولة عن العلاقة التي تربط الله بالبشر، قلت له إن العلاقة بالله موجودة في «جمعية اليراث»، لكنها مختلفة تماماً عن الشكل الذي تحدثته خلال رحلتنا على طريق «مار يعقوب». هالكهية

القسوة

«هنا، في هذا المكان بالذات، اغتيل الحب»، قالها مزارع عجوز، وهو يشير إلى كنيسة صغيرة محفورة في الصخر.

مشينا خمسة أيام متتالية، يقتصر عملنا على الأكل والنوم. بقي بتروس متحفطاً عن حياته الخاصة، لكنه بدأ كثير الاهتمام بالبرازيل ويعملني. قال إنه يحب بلادي كثيراً، لا سيما وأن صورته مرتبطة في ذهنه بصورة المسيح الفادي «كوركو فادو» التي تمثله بأسطاً لراعيه وليس معذباً فوق الصليب. كان يريد أن يعرف كل شيء عن البرازيل، وكان يسألني مع كل خطوة، عما إذا كانت النسوة هناك جميلات كالنساء هنا. كانت الحرارة، خلال النهار، تغدو غير محتملة، وشكا الناس في كل الحانات والقرى التي كنا نصل إليها، شدة الحر والجفاف. بلغنا متوقف عن المشي بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر، أي في الوقت الذي يرتفع فيه حر الهاجرة إلى أوجه، متبعين العادة الإسبانية في الخلود إلى القبولة.

بعد الظهر، وفيما كنا نرتاح في بستان زيتون، أقبل مزارع عجوز باتجاهنا، وقدم إلينا شيئاً من الخمر، رغم الحر الشديد، فتلك عادة متأصلة منذ قرون من عادات السكان في هذه الأصقاع المعزولة من الأرض.

المجوس، والعجبر الذين صاروا شياطين، والقلبيسون الذين يجترحون العجرات، بنا لي أنهم يعودون إلى زمن غابر، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالسيحية التقليدية، وأنهم يعبدون من السحر والنشوة التي تشبههما «طقوس الميراث» كان بتروس يرد على مداخلاتي، قائلاً إن طريق مار يعقوب طريق يستطيع الجميع عبورها، وليست حكرًا على أحد. وبما أنها كذلك فهي تفود حتماً إلى الله.

فقال بتروس:

— أنت تؤمن بوجود الله وأنا أيضاً. قاله، إذن، موجود بمنظرنا. لكن إذا كان هناك من لا يؤمن به، فهذا لا يعني أن الله كف عن الوجود. كما أن هذا لا يعني أن الإنسان الذي لا يؤمن، قد أخطأ وصل.

— إن حدود الله تنتهي إذن عند رغبة الإنسان وفترته؟

— كان لديّ صديق يطلّ عملاً، لكنه كان يتلو كل مساءً بالسلام عليك يا مريم، ثلاث مرات، لأن أمه عذته منذ الطفولة تلاوتها. كان يعود إلى البيت عملاً فاقداً وعيه. ورغم ذلك، ورغم العدم إيمانه، فإنه يتلو صلاته دائماً. بعد وفاته، وخلال طقس كنا نقيمُه هي «الميراث»، سألت روح الأقدمين عن مكان وجوده، فأجابني الروح أنه بخير، وأنه محاط بالمور. لم يكن مؤمناً في حياته، انحصر جهده فقط في تلاوة الصلوات الثلاث بطريقة آلية إذ كان يتلوها على سبيل الواجب. ومع ذلك، فإن هذا الجهد قد خلّصه.

تجلى الله في كهوف الأهدش وفي الرعود وبعد أن اكتشف الإنسان أن الرهود ظاهرة طبيعية، سكن الله بعض الحيوانات والطيور الغنسة وفي عصور ما قبل الميلاد لم يتواجد الله إلا في سراديب الأموات الكثيفة داخل الجبال الكبيرة لكن طوال هذا الوقت لم يمتد الله عن أن يغمر قلب الإنسان متخذاً شكل الحب.

في أيامنا هذه، عند الله، معهما شبه مثبت علمياً. لكن على هذا المستوى أيضاً، ترجعت المفاهيم التاريخية إلى الوراء، وأصبح كل

شيء يبدأ من جديد. إنه قانون العودة. عندما استشهد الأخ جودري بجملة من السيد المسيح تقول: «حيث يكون قلبكم، هناك يكون كنركم»، كان يشير إلى هذا بالضبط. فحيثما نرغب برؤية وجه الله نر. وإذا لم تكن تريد رؤيته، فليس لهذا أهمية. المهم أن يكون جهتك صادقاً. عندما بنت فيليسي داكثيان الكنيسة وراحت تساعد الفقراء، نسيحت الله الفاتح كان «حيثما» على طريقها الأكثر بلانية وحكمة في الوقت نفسه. من خلال الحب.

وهنا، كان المزمع محققاً عندما قال إن حب قد اغتيل كان الأربع غير قادر على متابعة حوارنا، وبدا مزرعجاً.

أضاف بتروس:

— رجع قانون العودة إلى الظهور، عندما رأى أخوها نفسه مجبراً على إتمام العمل الذي كان قد عرقله. ذلك أن كل شيء مسموح إلا أن تعرقل تجلباً للحب. وعندما يحدث ذلك، فعلى كل من حاول الهدم، المباشرة بإعادة البناء.

قلت لبتروس إن قانون العودة، الذي يتحدث عنه، يعني في بلادي ظهور التشوهات والأمراض التي تصيب البشر، وهي شكل من أشكال العقاب على أخطاء ارتكبتها الإنسان خلال تجسدت سابقة.

احتج بتروس قائلاً:

— هذا سخف. الله ليس انتقاماً. الله محبة. وعقابه الوحيد يقوم على إرغام من عرقل عمل الحب بإعادة البناء.

اعتذر رارع، قائلاً إن الوقت قد تأخر، وأنه يفترض به العودة إلى عمله. وراى بتروس أن هذه الحجة جيدة أيضاً لتتابع سيرنا.

قال، أتماء جتيازنا بستان الرينون:

— على سبيل الختام، أستطيع القول إن الله موجود في كل ما يحيط بنا. ويجب أن نستشعر وجوده، ونعيشه. أحاول هنا أن أجعل

من وجوده مسألة منطقية لكي تفهم. تابع تمزيك على الشئ البطيء وستعي حضوره أكثر فأكثر.

بعد يومين، صعدنا جبلاً يدعى «قمة الغفران». دنا اجتيازنا الجبل بصبح ساعات، وعندما وصلنا إلى القمة، رأيت مشهداً صدمني: كان جماعة من السياح يتسلقون في الشمس، وهم يشربون البيرة، وصوت الراديو ينبعث صاحباً من سياراتهم. كانوا قد سلكوا درباً ضيقة تقود إلى الأعلى.

قال بتروس:

— هكنا إذن. وكنت تعتقد أنك ستلتقي هنا أحد المحاربين في مسرحية «السيد»، متأهباً لصن الهجوم الوشيك للمفارقة؟

أثناء برولنا، قمت، لآخر مرة، بتمرير السرعة. ووجدنا أنفسنا، من جديد، قبالة سهل قسيح محفوف بالثلال. الرقفا تكسوه النباتات الصغيرة التي تبيسها الجفاف. لم تكن هناك أشجار، بل طريق حجرية وبعض الأشواك.

عند انتهاء التمرين، سألني بتروس عن عملي. وأدركت أنني لم أفكر فيه منذ وقت طويل. تلاشي من ذاكرتي، تماماً، الفلق على أعماله غير المنجزة هناك، وعلى كل ما تخلت عنه. تلكرته هنا المساء، ولم أعلق أهمية كبيرة على الأمر. كنت مسروراً لوجودي على طريق «مار يعقوب».

قال بتروس مازحاً، بعد أن أعلمته حقيقة مشاعري،

— قليلاً، ونتفوق على فيلبيس داكتيان!

ثم توقف، وطلب مني أن أضع حقيبتي أرضاً،

— أنظر من حولك، وثبت نظرك على نقطة تختارها.

فاخترت صليب إحدى الكنائس التي أحنها في البعيد.

— (جعل نظرك ثابتاً على هذه النقطة، وحاول التركيز على ما

أقوله لك. لا تشرذ، حتى وله شعرت أن شيئاً ما سيتحول. افعل ما أقوله لك.

وقفت مسترخياً، وثبتت باظري على قبة الجرس، فيما كان بتروس واقفاً خلفي، واضعاً إصبعه على أسفل رقبتي.

— إن الطريق، التي تسلكها الآن، هي طريق القدرة، ولن تنلن إلا تمارين القدرة. والسفر، الذي كان في البداية عذاباً لأنك لا تريد إلا الوصول، بدأ يتحول إلى متعة، متعة السعي والمغامرة. هذا هو الغذاء الحقيقي لأحلامنا

٢٠ لا يستطيع الإنسان أن يكف عن الحلم. الحلم هو غذاء الروح، كما أن الطعام غذاء الجسد. وغالباً ما تخيب أحلامنا، وتحبط رغباتنا خلال مسيرة حياتنا. لكن هذا الأمر يجب ألا يبعدنا عن الاستمرار في الحلم، وإلا ماتت الروح فيما، وعجز الحب الإلهي عن اختراقها. لقد أهرق الدم الكثير في الريف الممتد أمام باظريك. هنا جرت المعارك الأكثر دموية لإحراز النصر في معارك الفتح وليس مهماً من كان على حق، أو من كان يمسك برمام الحقيقة. اللهم إن نعرف أن كلا الطرفين كان يخوض «الجهد الحسن»

لينا نلتزم «الجهد الحسن» لأن قلوبنا تمشد ذلك. هي أيام البطولة وهي زمن الفرسان الجوالين، كان الأمر سهلاً، هناك أراضي يجب غروها، وأشياء كثيرة يجب تحقيقها اليوم، تغير العالم، واستفلت ساحات «الجهد الحسن» إلى داخل نفوسنا.

إن «الجهد الحسن» هو الذي نخوضه باسم أحلامنا عندما نكون شباباً، نتفجر أحلامنا في داخلنا بكل عريمتها، ولا تفتصنا الشجاعة إطلاقاً. لكننا لم نتعلم بعد كيفية الصال. وحين نخلص إلى تعلمها بعد جهود مصيبة، نكون قد فقدنا الطاقة على الكفاح. عندئذ، يرتد على أنفسنا، ويصبح الذأ أعينها يتنزع قائلين إن أحلامنا طفولية وسهلة التحقيق، أو إنها ثمرة جهلنا لحقائق الحياة. نقتل أحلامنا، لأننا نخاف من خوص «الجهد الحسن».

كان ضغط إصبع بتروس على رقبتي يردك حذو. خيل لي أن قبة جرس الكنيسة أهدت تنغير وأن حدود الصليب تحولت إلى

رجل باجنحة، إلى ملاك. طرفت بعيني، فرجع الصليب إلى سابق عهده

أضاف بتروس،

— إن العارض الأول، الذي يتسم به قتل الأحلام، هو النزع بعدم توفر الوقت. فالباس الأكثر تشغلاً، الدين رأيتهم في حياتي، كانوا يملكون الوقت لكل شيء. وكان الذين لا يفعلون شيئاً نعبين دائماً، غير آبهين للعمل القليل الذي يسجرونه، ويتذمرون دائماً من قصر النهار. هذا لأنهم يخافون، في الواقع، من خوص «الجهاد الحسن».

أما العارض الثاني لموت أحلامنا، فهو اليقين الثابت الذي توضحنا إليه أو اعتقلنا. نحن نرفض النظر إلى الحياة بوصفها مغامرة كبرى لا حدود لها، ونفزع أنفسنا أننا متعطلون وعادلون ومستقيمون في القليل الذي ننتظره من الحياة. ننظر أبعد من أسوار حياتنا اليومية، ونكاد نسمع صوت الرماح التي تتكسر، ونشتم رائحة العرق، ويلمح الفبار، ونشاهد السقطات الكبيرة وبظرات المحاربين المنشوقين إلى إحراز المصير. لكننا لا نستطيع أبداً أن نفهم معنى البهجة. تلك البهجة العظيمة التي يحملها المحارب في قلبه، لأن الانتصار لم يعد بهمة، ولا الانكسار. المهم خوص «الجهاد الحسن».

وأخيراً، يتمثل العارض الثالث لموت أحلامنا بالراحة والطمانينة. تصبح الحياة شبيهة ببعد ظهر يوم أحد، لا تطلب مما شيء، الكثير، ولا تفرص علينا أكثر مما نستطيع أن نعطيه. نفكر، عنده، أننا باصحوون، أننا وضعنا جانباً بروات الطفولة، وتوصلنا إلى تحقيق ذواتنا على الصعيد الشخصي والهندي. مصاب بالدهشة إذا سمعنا أحد أترابنا يقول إنه يحب هذا شيء، أو ذلك في الحياة. لكن، في دخیلتنا، نترك فداحة ما حصل، نعرف أننا نحلبنا عن البصال من أجل أحلامنا، وعن خوص «الجهاد الحسن».

كانت قبة جرس الكنيسة تتغير في كل لحظة، لتتحول إلى

ملاك باسط جناحيه عينا، طرفت بعيني، لكن الشهد لم يتغير. حاولت أن أقول ذلك لبتروس، لكنني شعرت أنه لم يبنه بعد من كلامه.

أضاف بتروس، بعد توقف قصير،

— عندما نتخلّى عن أحلامنا لصالح السلام والراحة، نبلغ مرحلة قصيرة من السكينة. لكن الأحلام، الهيئة تواصل تعفها فيها، وإفساد جونا كله. يصبح فساد حيال هؤلاء الذين يحيطون بها، ثم ترتد هذه القسوة في النهاية على نفوسنا. عنده، تبدأ العذبات والهانات. ويصبح ما أردنا تجنبه في القتال، أي الخيبة والعش، الإرث الوحيد لحياتنا. وذات يوم، تجعل الأحلام الهيئة، المتعفة جونا خافاً، فتمتلي الموت، الموت الذي يحزرننا من قاعاتنا، ومن هذا السلام المرعب الشبيه بسلام ما بعد ظهيرة أيام الأحد.

كنت متأكد أن ما أراه أمامي ملاك. ولم أعد أستطيع متابعة ما يقوله بتروس، لا بد أنه لاحظ ذلك، فرفع إصبعه عن رقبتي وسكت. بقيت صورة الملاك فترة وجيزة، ثم خفت ليحل محلها من جلد جرس الكنيسة.

بقينا صامتين بضع دقائق. لقد بتروس سبحارة وراح يدخل. فتشلت من حقبتي زحاجة البيد، واحتسيت جرعة. كان النبيذ ساخناً، لكنه احتفظ بنكهته.

سألني

— ماذا رأيت؟

أخبرته قصة الملاك. وقلت له إن الصورة كانت تختفي في البهجة ما إن أطرف بعيني.

كنت أيضاً عليك تعلم خوص «الجهاد الحسن». تعلمت تقبل الغامرات والتحديات التي نواجهها بها الحياة. لكنت تستمر في إنكار الحارق.

أخذ بتروس من حقيبتة شيئاً صغيراً، وأعطاني إياه. كان
دينوساً ذهبياً،

— هنا هدية من جدي. هي جمعية «رام»، يمتلك جميع القدامى
ديابليس كهلنا، ونحن ندعوه «زروة القسوة». عندما رُئيَت الملاك
يظهر عند قبة الجرس، أُرنت إنكار ما رأيته، لأن ذلك لم يكن
شيئاً تالفه، ولكنه من ضمن مفهومك للعالم. إن الحكمائس هي
الحكمائس، ولا يمكن أن تحدث الرؤى إلا في لحظات الانخراط، إثر
ممارسة طقوس «البراث».

أحبته أن الرؤيا نمت تحت تأثير الضغط الذي يمارسه إصبعه
على رقبتني،

— هذا صحيح، لكنه لا يغير شيئاً. المهم أنك رفضت الرؤيا. لا
بدُّ أن فيليسي شاهدت رؤيا مماثلة، وفزرت وضع حياتها على الحاك
بسبب رؤياها. وكانت النتيجة أنها حوّلت عملها إلى حب. كما
حصل الشيء نفسه لأخيها، وهو يحصل للجميع، وكل يوم، يرى
دنياً الطريق المثلى التي يجب سلوكها، لكننا نمشي في الطريق
التي ألفناها.

تابع بتروس السير، ولحقث به. كانت أشعة الشمس تعكس
ذهب النعوس الذي أحمله في يدي.
ثم قال،

— إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ أحلامنا هي أن نكون حكرماً،
تجاه أنفسنا، يجب التعامل بصرامة مع أي محاولة نقوم بها، لعاقبة
ذواتنا مهما تكر بسيطة أو تافهة. ولكي نعرف متى يصبح فساد
مع أنفسنا، علينا أن نحول أدنى ظهور للألم روحي، كممثل الشعور
بالنعب والندم والترند، إلى ألم جسدي. وعندما نجعل من الألم
الروحي ألماً جسدياً، نستطيع أن نعرف مدى الأذى الذي يلحقه بنا،
وعلمي بتروس «تمرين العقاب الأليم».

قال،

— في ما مضى، كنّا نستعمل دينوساً من ذهب. أما اليوم، فالأمور
تغيرت، كما تتغير الماطر على طريق «مار يعقوب».

تمرين العقاب الأليم

كلّما خطرت لك فكرة تؤدي «جسد أو شفقة على الذات» عذاب حب أو
طمع أو حقد، افعل ما يلي،

اغمرْ ظفر السبابة في جدر ظفر الإبهام حتى يصبح الألم حاداً. احصر
تفكيرك في الألم، فهو يعكس، في الحقل الجسدي، العذاب الذي تعانيه على
الصعيد الروحي. لا توقف ضغط إصبعك، إلا عندما تخرج الفكرة من روحك.

حكّرْ هذا التمرين مرّات عدّة، ما دمت تجد ذلك ضرورياً. لا تتوقف حتى
تغادرك الفكرة. ربما عاودك الألم على فترات طويلة، لكن سرعان ما يختفي
بعدها، شرط ألا تنسى القيام بهذا التمرين، كلّما لفتك الفكرة من جديد.

كان بتروس على حق إن رؤية السهل من الأسفل تجعله شبيهاً
بمسلة من الربوت.

قال،

— فكر بشيء قاس فعلته اليوم ضد نفسك، وقم بالتمارين.
لم استطع تذكر أي شيء.

قال بتروس،

— الأمر هكذا دائماً. لا تنجح بأن تكون أسعياً مع نفسك، إلا
في اللحظات النادرة التي نحتاج فيها إلى القسوة فعلاً.

وهجأة، تذكرت أنني استسخت ارتقاء قمة الجبل، ونجف
مشقة الصعود، فهما وجد هؤلاء السياح طريقاً سهلاً للقيام بذلك.
أدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولبي كنت فاسياً مع نفسي،
لأن السياح يبحثون عن الشمس، أما أنا، فم سيقي. لم أكن أبداً،
لكنني شعرت بأنني كذلك. فغررت عميقاً طغر سباتي في جحر
طغر إيهامي، وشعرت بالم جسدي حاذ. وهما كنت لوجكم على
الأم، اختفى شعوري بالبلاهة.

قلت ذلك لبترس، فصحك دون تعليق.

عند المساء، نزلنا في فندق رجب في القرية التي لحت فيها
الكنيسة من بعيد. وبعد العشاء، قررنا القيام برحلة صغيرة لعالجة
التخمة التي تعرض لها جهازنا الهضمي.

قال بتروس،

— بين جميع الوسائل التي وجدها الإنسان لإيذاء نفسه، يبقى
الحب أسوأ وسيلة. فحين نتعذب دائماً بسبب واحد لا يحبنا، أو
هجرنا، أو يهملنا بأن يهجرنا فإننا كنا غير متزوجين، فذلك لنا لم
نهد إلى من يحبنا، وإذا كنا متزوجين، نحول الزواج إلى عبودية
هذا أمر فطيع.

وصلنا أمام الساحة الصغيرة، حيث شيدت الكنيسة التي رأيناها
من بعيد. حاولت رؤية الملاك لكنني لم أفلح.

أخذ بتروس يرفف الصليب المعلق فوق القبة. اعتقدت أنه رأى
الملاك هو أيضاً، لكن لا.

تابع كلامه،

— عندما اتحد ابن الآب من السماء إلى الأرض، حمل معه الحب.
لكن، بما أن البشرية لا تفهم الحب إلا عذاباً وتضحية، فقد انتهى
المر بنا إلى صلبه. لولا ذلك، لما آمن به أحد، لأن الناس الفوا العذاب
في كل يوم، بسبب أهولهم بالذات.

جلسنا على حافة الجبل، وتابعنا النظر إلى الكنيسة.

مرة أخرى، قطع بتروس حبل الصمت.

— هل تعرف ما معنى بار آنا، يا باولو؟ بار، يعني الابن، وآنا،

حنق بتروس إلى الصليب المائل فوق الجرس. التمعت عبادة،
وشعرت أن شيئاً ما قد تملكه، ربما كان هذا الحب الذي طالما
تحدث عنه، والذي لم أكن أتوصل إلى فهمه.

قال متعجباً، وصدى صوته يملأ الساحة الفارغة،

— ما أعظم الحكمة التي تجسدها رسوم المجد الإلهي. عندما
طلب بهلاطوس من الشعب أن يختار، لم يترك له في الحقيقة أي
خيار. فتم إليهم رجلاً مجلواً محطماً، ورأساً آخر مرفوعاً، هو رأس
الثوري، بار آنا. كان بهلاطوس عارفاً أن الشعب سيحكم على
الأضعف بالموت، لكي يثبت حبه.

وختم قائلاً،

— ومع ذلك، ولنا يكن الخيار، فإن ابن الآب كان مصيره
الصليب.

أن يتسنى له تحقيق رغبته. وحصل الأمر نفسه لي، ففكرت أن أغرز طعمر السبابة في جذر طغر الإبهام، وبفؤة. كان جمال تلك اللحظة يحول دون أن يرتكب أقل سوء بحق أنفسنا

كان العشاء يتألف من حساء الخصر والخبز والسّمك والنبيد. رفع الجميع الصلاة، وشاركنا فيها. وعندما انصرف إلى الأكل، تلا أحد الرهبان، بصوت رتيب، مقطعاً من رسالة بولس الرسول:

«احتار الله جهال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء. نحن جهال من أجل المسيح صرنا كأكابر العالم ووسع كل شيء إلى الآن. لأن ملكوت الله ليس بكلام بل بفؤة. ظلّ تائب مار بولس لأهل كورنثوس مدوناً في أرجاء القاعة ذات الجدران العارية، طوال الوقت الذي استغرقه تناول الطعام.

في صباح اليوم التالي، دخلنا «بوينتي لارينا»، ونحن نتحدث بشأن زيارتنا القصيرة للرهبان مساء أمس. اعترفت لبتروس أنني دخلت بالسر في الغرفة، مع أنني كنت أموت خوفاً من أن يشتم أحد رائحة التبغ صحتك، وفهمت أنه كان حزيناً به أن يفعل كما فعلت.

قال،

— مار يوحنا المعمدان انكأ إلى الصحراء، لكن يسوع وفي الخطاة ولم يكف عن السفر. وأنا أفضل هذا

أجل، هذا صحيح فعلى الفترة القصيرة التي قصدها السيد المسيح في الصحراء، فقد عاش وسط البشر

«إن إحدى عجائبه الأولى لم تقتصر على تخليص روح أو شفاء مريض أو طرد شيطان، بل على تحويل الماء خمرًا ممتازة خلال عرس قانا الجليل، لأن رب المنزل لم يعد لديه ما يقدمه من شراب»

«الرسول»

هنا، كل الطرق المؤدية إلى «مار يعقوب» تختصرها طريق واحدة،

كانت هذه العبارة مكتوبة على قاعدة تمثال يصور حاكماً في زي قروسطي يعتمر قبعة مثلثة القرون، ويرتدي ثوباً وأصنافاً. ويحمل في يده العصا التي غلق فيها الكرييب. كان مرآه يذكر بمرحلة غابرة، نحاول أنا وبتروس إعادة إحيائها.

وصلنا إلى «بوينتي لارينا» في الصباح الباكر، بعد أن قضينا ليلتنا في أحد الأبنية الكثيرة المنتشرة على طول الطريق. استقبلنا الراهب البواب، وحضرنا من التعمّو بكلمة واحدة في حرم النير ثم قادنا راهب آخر إلى غرفنا المجهزة فقط بما هو ضروري: سرير خشب وشرشف بالية لكن نظيفة، وجرة ماء، وطشت للاغتسال. لم يكن هناك لا حنفية ولا ماء ساخن. وكان موعد تناول الطعام مكتوباً خلف الباب.

وفي الموعد المحدد، نزلنا إلى قاعة الطعام. كان الرهبان الذين بنوا الصمت، يتواصلون، فقط، عبر النظرات. شعرت أن أعينهم أكثر بريقاً من بريق عيون الناس العاديين. قُدم الطعام، في وقت مبكر من المساء، على طاولات مستطيلة، وجلسنا إلى جانب الرهبان الذين يرتدون السّوح. من مكانه، أشار لي ببتروس وفهمت أن لديه رغبة جامحة في إشعال سيجارة. لكن يبدو أن الليل سيمضي دون

وعند هذه الكلمات، جمد بتروس في مكانه. كانت حركته عنيفة جداً للرجة التي، أنا أيضاً، توقفت، وقد اشغل بالي. وجلدنا أنفسنا أمام الجسر الذي منح اسمه للمدينة الصغيرة. لكن بتروس لم يكن يبظر شطر الطريق التي كان علينا سلوكها، بل يحنق إلى صبيّين يلهوس بكرة من الكاوتشوك على ضفة النهر. كانا في حوالي الثامنة أو العاشرة من العمر. لم يكن يبدو عليهما لهما تنبها لوجودنا. وبدل أن يجناز بتروس الجسر، انحدر من ثلة المرج، واتجه إلى الصبيّين. وأنا، كالعادة، تبعته دون أن أطرح أي سؤال.

طلّ الصبيان متجاهلين وجودنا. جلس بتروس وراقبهما، وهما يلعبان، حتى اللحظة التي سقطت فيها الكرة قربه، فامسكها بحركة عنيفة وفنطها باتجاهي. التفطتها في ظهرتها، منتظراً ما سيحدث.

اقترب الصبي الذي بدا أكبر سناً مني، وكان أول ما تبادر إلى ذهني أن أعيد له الكرة. لكن نصرف بتروس كان من الغريبة، بحيث رغبت في أن أعرف إلى ما ستؤول الأمور.

قال الصبي،

— أعطني الكرة يا سيد.

نطرت إلى هذا الوجه الصغير الذي يقف على بعد مترين مني وشعرت باللغة تنبعث منه، وراودني الشعور نفسه عندما التقيت الفجري.

كزر الصبي طلبه مزّت عنه. وعندما تيقن أنني لا أريد الاستجابة لطلبه، انحنى والنقط حجراً.

أصّر قائلاً،

— أعطني الكرة، وإلا ضربتك بالحجر.

كان بتروس والصبي الآخر يراقباني بصمت.

ثارتني عنيفة الصبي وأجبت.

— لرم الحجر. إذا رميتني به، فسوف أمسك بك، وأصربك صرباً مبهزجاً.

شعرت أن بتروس يتنهد ارتباحاً. كان شيء ما يريد الخروج من أعماق روحي. كان لديّ شعور جارف بأنني عشت هذا الشهد من قبل.

ألقيت الذعر في قلب الصبي، فرمى الحجر أرضاً، وراح يبحث عن وسيلة أخرى.

— هنا في «بوينتي لاريندا»، مذخر، كان يملكه حاج ثري جداً. ولما أرى من أصنافكم وحقيقتي طهركم، أنكم، أنتم أيضاً، حاجان. فإذا أملت لي الكرة، فسوف أعطيك هذا المذخر المذخور في الرمل على ضفة النهر.

أجبت دون أن أكون على فناعة بما أقوله،

— أريد الكرة.

في الواقع، كنت أريد المذخر. بدا على الطفل، وكأنه يقول الحقيقة لكن، لعلّ بتروس في حاجة إلى هذه الكرة لسبب أو لآخر، ولا يمكنني أن أخيب أمله. فهو مرشدي.

قال الصبي، وهو على وشك البكاء،

— أيتها السيد أنت لست في حاجة إلى هذه الكرة. أنت قوي، تسافر وتعرف العالم كله. أما أنا، فلا أعرف أبعد من حدود هذا النهر، وليس لي ما ألهو به سوى هذه الكرة، أعنها لي من فضلك.

نقلت كلمات الصبي إلى أعماقي. لكن الجوّ الأليف والغريب، في آن، ثم الشعور بأنني عشت هذه الحالة، أو قرأت عنها، قد دفعاني إلى معاومة الطفل مزّة أخرى.

وقلت،

— لا، أنا في حاجة إلى هذه الكرة، سأعطيك مالاً للتشترى أجمل منها، أفا هذه فهي لي.

حين قلت ذلك، بدا لي وكأن الرمن قد توقف. وتحول المشهد من حولي دون أن يصطر بتروس إلى الضغط بإصبعه على رقبتني خنيل إلي أنسي، انتقلت إلى صحراء شاسعة مخيفة من الرماد لم يحكن هناك لا بتروس ولا الصبي الآخر. فقط أنا، والغلام في مواجهتي، بيد أنه كان يبدو أكبر سناً، وملامحه البهية وقريبة، لكن في عينيه يلتصع بريق جعلني أخاف.

لم تدم الرؤيا إلا لحظة واحدة، رجعت بعدها، إلى «بوينتي لارينا»، المكان الذي تلنقي عنده جميع الطرقات المنزعجة، من أنحاء أوروبا، ولؤدية إلى «سانياغو»، أمامي بقف صيني بطالب بكرته، وهو يلقي نظرات عنيدة وحربية.

اقترب بتروس مني، أخذ الكرة من يدي، وأعطاهما للطفل.

سأل بتروس الطفل:

— أين المذخر السري؟

أمسك الطفل يد صديقه، وهرب ليرمي بنفسه في الماء، قائلاً:

— عن أي مذخر نتحدث؟

نسلقنا القلعة من جديد، واجتربنا الجسر أخيراً، أخذت أطرح الأسئلة عما حدث. كلمته عن رؤيا الصحراء، لكن بتروس غيّر الحديث، قائلاً إننا سنكنم في هذا الموضوع، ما إن يبتعد قليلاً من هنا.

بعد نصف ساعة من السير، بلغنا مكاناً يحفل بالآثار الرومانية. كان ثمة جسر آخر متهلّم، فتوقفا لتناول الإفطار الذي أعده لنا الرهبان، خبز شعير ولبن وجبة ماعز.

سألني بتروس،

— لماذا كنت تريد الكرة؟

أجبتته أني لم أكن أريد الكرة، وأنني تصرفت على هذا النحو بإيعاز منه، لأنه تصرف بطريقة غريبة، وكان للكرة أهمية كبرى في نظره.

— إنها مهمة في الواقع. فعلت ذلك، لتقوم باتصال فطش مع شيطانك الشخصي.

قلت في نفسي: «شيطاني الشخصي؟» لم أسمع بمثل هذه السخافة طوال الرحلة. فصيت سنة أيام أروح وأحي، وسط البيريه، وتعزفت إلى كاهن مجوسني لم يمارس أي سحر، وألني ظفري لأنسي، كلما خطرت لي فكرة مؤذية عن نفسي، سوياً، أو شعور بالنصب، أو عفة دونية، أضطر إلى أن أغرر صمري في الجرح وهذا كان بتروس محقاً، لقد خفت حنة الأفكار السلبية بشكل ملحوظ. لكن قصة الشيطان الشخصي هذه أمر جديد عليّ، وبشقّ عليّ تصديقها.

أصاف بتروس،

— اليوم، قبل عبورنا الجسر، شعرت، بقوة، أن هالك حضوراً ما لكان أحداً يريد إخطارنا لكن التنبيه لم يكن موجهاً إلي بل إليك. كان الصراع نهياً، وكان عليك أن تحوص الجهاد الحسن.

إذا كنا لم نتعزف بعد إلى شيطاننا الشخصي، فبإمكاننا التعرف إليه، إنه يتجسد عادةً في الشخص الأكثر قرباً منا بطرت حولي، ورأيت الصبيين يلعبان، واستنتجت أن التنبيه يعطى لنا من هذا المكان. لكن طينت أن هذا مجزّد شعور لا أكثر ولم أتيقن أن الأمر متعلق بشيطانك الشخصي، إلا عندما رفصت أن تعيد الكرة.

قلت لي تصرفت على هذا النحو، ظناً مني، أني أطاوع رغبته.

— ولم أنا؟ هل قلت شيئاً؟

بدأت أشعر بالدوار. ربّما كان هذا بسبب الطعام الذي التهمته بشراهة، بعد حوالي ساعة من المشي على الريق. وفي الوقت نفسه، عاودني الشعور بأن الصبي كان ثقيلاً.

— إن شيطانك حاول أن يجزبك بثلاث طرق تقليدية، أولاً، من خلال التهديد، ثانياً، من خلال الوعد، وثالثاً، بالتأثير على الجانب الأضعف فيك. هيناً لك، فقد قاومت بشجاعة.

الآن تذكرت أنني سألت الصبي عن المدخر، مع لي قلت هي نفسي إن الصبي يحاول خداعي. لكنني عدت، واقتنعت بحتمية وجود مدخر، لأن الشيطان لا يتفوه أبداً بوعود كاذبة.

— إذا لم يعد الصبي يتذكر المدخر، فهذا لأن شيطانك الشخصي رحله. ونابح بتروس دور توقف، «حان الوقت لاستدعائه، فانت سنحتاج إليه».

كما جالسني على الجسر القديم المهذم. جمع بتروس بقايا الطعام بعناية ووضعها في كيس من الورق، كان الرهبان قد أعطوه إياه في الريف المبسط أمامنا، كان المزارعون يحرقون الحقول، لكنهم كانوا بعيدين جداً، ولم نستطع الإبصارات إلى كلماتهم كانت الطريق متعرجة تماماً، والأراضي المحروثة ترسم أشكالاً غامضة. وعند أفهامنا، يسيل مجرى ماء شبه صامت لأنه على وشك الجفاف.

نم قال بتروس،

— قبل أن يطوف السيد المسيح العالم، ذهب إلى الصحراء للتحنن

مع شيطانه الشخصي. أيقن ما عليه أن يعرفه عن الإنسان، لكنه لم يسمح لشيطانه بأن يُملي عليه قواعد اللعبة. وهكذا هزمه

«قال أحد الشعراء: لا أحد منا جريئة. لكي نخوض «الجهاد الحسن، نحتاج إلى العون، نحتاج إلى أصدقاء. وعندما يبتعد الأصدقاء، علينا أن نجعل من وحدتنا سلاحنا الرئيسي. لكل ما يحيط بها يجب أن يؤزربا للقيام بالخطوات التي تسعدنا على بلوغ الهدف. كل شيء يجب أن يكون تجسيدا شخصياً لتطلّعنا إلى البصر عند خوض «الجهاد الحسن، فلنا لم نهم لنا نحتاج إلى الجميع وإلى كل شيء، نكون مجزء محاربين متبحرين. وهذا التبحر سوف يثمرنا، لأن ثقتنا العظيمة بأنفسنا ستعمينا إلى حد لا نرى معه الألفام الموجودة في ساح المعركة».

إن حكاية المحاربين هذه قد ذكرتني، ثانية، بشخصية كارلوس كاستانيدا، «نون خوان، تساءلت عما إذا كان الساحر الهندي العجوز يُلْقِن تلميذه دروس الصباح قبل أن يتسلى للتلميذ هضم طعام إفطاره.

لكن بتروس تابع، قائلاً،

— بالإضافة إلى القوى المادية التي تحيط بنا وتؤازرنا، هناك قوتان روحيتان ترهقنا، الملاك والشيطان. فالملاك يحمينا دائماً، وهذه نعمة إلهية، وليس ضرورياً استدعاؤه. فانت ترى وجه ملاكك عندما تنظر إلى العالم بظرة مبعدة، إنه الجدول وعفان الحقول والسماء الزرقاء. وعلى هذا الجسر القديم الذي يسمح لنا بالعبور فوق الماء، والذي بينه الأيدي الجهولة لفيالق الرومان... على هذا الجسر أيضاً، ترى وجه ملاكك. وقد عرفه أبائنا بصفته الملاك الحارس، ملاك الحماية والحراسة.

«والشيطان هو، أيضاً، ملاك، لكنه قوة حزة وعاصية وأفضل

تسميته «الرسول»^(١)، لأنه الصلة الأساسية بينك وبين الوجود. في العصور القديمة، كان متمثلاً بـ «عطاره» و«هرمس»، «رسول الآلهة». بيد أنه لا يتدخل إلا على الصعيد المادي، وهو موجود في ذهب الكنيسة، لأن الذهب يأتي من الأرض، والأرض مبدؤه وهو موجود، أيضاً، في عملنا، وفي علاقتنا بالثال. عندما ندعه حراً، يميل إلى التشبث. وعندما نقرّ منه، نفقد كل ما يستطيع تعليمنا إياه من أشياء جيدة نحتاج إليها، لأنه يعرف العالم ويشير لكن، عندما نفتتن بقدرته، يمتلكنا، ويبعدنا عن «الجهاد الحسن».

«بيد أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة «رسولنا» هي أن نجعل منه صديقنا، أن نستمع إلى بصائحه، وندعوه لساعتنا، عندما يكون ذلك ضرورياً، لكن دون أن نجعله يملئ علينا القواعد، كما فعلت مع الصبي. من أجل ذلك، يجب أن تعرف، أولاً، ماذا تريد، ثم تتعرف إلى اسمه».

سألته،

— وكيف يمكنني ذلك؟

وعلمني بتروس طقس «الرسول»

قال بتروس:

«مارس هذا التمرين مساءً، سهلاً، اليوم، خلال لقائكما الأول، سيكشف لك عن اسمه. وهذا الاسم سزي، ويجب ألا يفرق جيداً، حتى أنا، لأن من يعرف اسم رسولك يستطيع تغييره».

نهض بتروس، وأكملنا السير. خلال فترة وجيزة، وصلنا إلى حفل يحضره بعض العمال. تبادلنا التحيات الصباحية، وتابعنا طريقنا.

(١) «الرسول» مصطلح ارتبطته مناسباً للتعبير عن الحقة التي يعطيها كويكولو ذلك الشيطان. ووظائفها بين مزدوجين كي لا يقع كي التباس بينها وبين كي معان دينية مختلفة لهذا التعبير

طقس «الرسول»

اجلس وسنرخ تماماً دغ فكرك يسرح حيثما يريد، ودع الأفكار تتدفق دون رقابة. ودع للحظات «الآن» أنا مسنرخ، وعياني تستغرقان في يوم العالم.

حين تلحظ أن روحك تفتقت من مشاغلك، تخيل عموداً من نار إلى يمينك، واجعل السنة الذهب متقدة لامعة. عتدها، قل بصوت خافت، «امر عقلي الباطني بأن يتجسد». فليعلن لي عن نفسه، وليكشف أسرار السحرية. انتظر قليلاً، وركز فقط على عمود النار. فإن أبتضت صورة ما، فاحتفظ بها، لأنها تجعل لعظمتك الباطني.

والآن، وفيما عمود «النار» إلى يمينك، تخيل عموداً آخر إلى يسارك. عندما نتناول سنة اللهيم العظ، بصوت خافت، الكلمات التالية، «لنأت قوة العمل بلدي فجأة في كل شيء»، وفي الجميع، ولنتجلى في، فيما استدعي «رسولي». وليظهر علي اسم «الرسول»

نخبط في رسولك الذي سيظهر بين العمودين، وشرح له مشكلتك. اطلب صوته، واتصل به التواضع اللازمة.

بعد انتهاء الحوار، اطلب منه الانصراف، وأنت تقول، «اشكر الحمل على المعجزة التي حققتها. وليرجع «الرسول»، كلما استدعيت، حتى وإن كان بعيداً، وليساعدني في تحقيق أعمالي».

ملاحظة: خلال الاستدعاءات الأولى، وتبعاً لقدرة ذلك الذي يمارس الطقس على التركيز، لا يجوز لفظ اسم «الرسول». نقول فقط، «هو». وإذا نفذ الطقس بشكل صحيح، فعلى «الرسول» أن يكشف عن اسمه عن طريق التخاطر. أما إذا حصل العكس، فعليك الإصرار لتعرف هذا الاسم، وبطلافاً من هذا، باشر حوار معه. كلما ركزت التمرين، زاد حضور «الرسول» قوة، وتسارعت وتيرة أعماله

«إلا كان لا بد لي أن أستخدم صورة، يمكنني القول إن اللاتك هو درعك والرسول سيفك. فالدرع يحمي في كل مناسبة، لكن السيف يمكنه أن يسقط خلال المعركة أو يقتل صديقا، أو يرتد على صاحبه».

ثم ختم بتروس، ضاحكا،

«في أي حال، فإنك تستطيع أن تفعل ما تشاء بالسيف، إلا أن تجلس فوقه».

توقفنا في إحدى القرى لتناول طعام الغداء. كان الصبي الذي قدم إلينا الطعام سنيء المزاج، على ما يبدو لم يجب عن أسئلتنا، ووضع الطعام كهيما أثيق، على الطاولة، لا بل صب قليلا من القهوة على بطنال بتروس. رأيت مرشدي يتحول، عمنذ، إلى كائن آخر، غصب واستدعى رب العمل، وهو يعترض بشدة. وأخيرا، اتجه إلى الرحاض ليبتذل بطناله، فيما كان صاحب الطعام يغسل القهوة عن البطنال.

كنا نمتظر أن تجفف شمس الظهيرة بطنال بتروس. وفكرت بكل ما قلناه هذا الصباح. صحيح أن معظم أفكار بتروس عن الصبي قد تحققت، إذ رأيت صحراء ووجها لكن قصة الرسول هذه بدت لي قديمة تخطأها الزمن. فبحن في القرن العشرين، ومفاهيم الجحيم والخطيئة والشيطان لم تعد تعني شيئا لأحد. في الميراث الذي أثبتت بهجه لفترة طويلة تموق المنة التي استغرقتها تعاليم طريق «مار يعقوب»، كان «الرسول»، الذي يدعى أيضا شيطانياً دون أن تكون التسمية تحقيرية، روحاً طاغياً مهيمناً على قوى الأرض، ويمكنه أن يضع نفسه في خدمة الناس نحن نلجأ إليه يوماً، لكن لا نعتبره حليفاً أو مرشداً في الأعمال اليومية. ألح

بتروس إلى أنني أستطيع استغلال صداقة «الرسول» لتقدم في عملي، وفي الوجود. لكن بدت لي الفكرة حقيرة، لا بل ساذجة. بعد أني كنت قد أقسمت بالطاعة أمام السيدة سافان ومزة أخرى، غرزت ظفري في لحم إبهامي حتى الألم.

قال بتروس، بعد رحيلنا من الطعام،

«ما كان يجدر بي أن أغضب. لم يصب الخادم الفصحان علي، بل على العالم الذي يكرهه. فهو يعرف، تماماً، أن ثقة عالماً وراء حدود خياله، في حين أن مشاركتي، في هذا العالم، تتلخص في نهوضه باكراً، وذهابه إلى الفرن، وخدمته الربون العابر، واستمائه ليلاً، وهو يحلم بنساء لن يتعرف إليهن أبداً».

حان الوقت للتوقف من أجل القيلولة. لكن بتروس فضل أن يتابع السير. قال إن هذه هي طريقته ليعاقب نفسه على سلوكه المتعنت. وأما الذي لم يفعل شيئاً، كان علي مرافقته في هذه الشمس الحارقة فكبرت بـ «الجهاد الحسن»، وبملايين الناس الذين يقومون على هذا الكوكب بأشياء لا يحبونها صحيح أن تمرير القسوة كان يؤلم لحم ظفري، لكنه يعود علي بالفائدة كثيراً. وقد سمح لي أن أدرك إلى أي حد يمكن لفكري أن يطوي ويجرني إلى أعمال لا أوافق عليها، وإلى مشاعر لا تفيطني بشيء. في هذه اللحظة، تمنيت أن يكون بتروس علي حق، أن يكون هناك «رسول» أتحدث معه في الأشياء العملية، وأطلب منه «المعونة في شؤون هذا العالم». فنظرت الليل بنقاد صبر.

ومع ذلك، فإن بتروس لم يكف عن التحدث بشأن الخادم، واقتنع أخيراً بأنه حسناً فعل، مستنداً في ذلك إلى حجة مسيحية، «إن السيد المسيح غفر للمرأة الزانية، لكنه لعن التهمة التي لا

تثمر. وأنا أيضاً لا يجدر بي أن أكون لطيفاً على النوام!
حسناً. فالمسألة خُلّت في فكره. ومرة أخرى، ألقته الكتاب
القدس.

وصلنا إلى إستيليا حوالي التاسعة مساءً اغتسلت، ثم بزلت وإيانه
للتناول العشاء وكان إيميري بيكو، وهو أول من كتب دليلاً
لطريق «مار يعقوب»، قد وصف «إستيليا» بأنها مكان حصص تجد
فيه خبثاً شهيئاً وخمراً معتارة، ولحمًا وسمكاً ثم إلى مياه «إيغا»
مياه عذبة، سليمة، لذيذة جداً لم أشرب من ماء النهر، ولكن
بيكو كان محققاً بشأن الطعام، حتى بعد مرور ثمانية قرون.
فقموا لنا شرائح من فخذ خروف، وأرضي شوكة، ونمينا بلديا
معشفاً. بقينا على المائدة بوقت طويل، نتحدث عن أشياء وأشياء،
ونحن نحسني السبب. وأخيراً، أعلن بتروس أن الوقت قد حان لأقيم
أول اتصال لي بـ «الرسول».

بهضنا، وجلسنا في شوارع المدينة سيراً على الأقدام. وكانت بعض
الأرقة تطل مباشرة على النهر، حكما في مدينة البندقية وفي
إحداها، قررت الجلوس. كان بتروس يعرف أنني أنا الآن من يفقد
الاحتفال، لنا فضل الانسحاب قليلاً.

تأملت النهر طويلاً. أبعثني مياهه وصخبها، تدريجاً، عن العالم،
والهمتي سكوناً عميقة أغصت عيني متخيلاً أول عمود نار،
فلم يظهر إلا بعد قليل.

تبقت بالكلمات الطقسية، فاستبق العمود الآخر إلى يساري.
كان المكان، الذي يفصل بينهما والذي تصينه النار، فارغاً تماماً
بقيت أحنق إلى هذا المكان، محاولاً عدم التفكير بشيء، لكي
أسمح لـ «الرسول» بالظهور. ولكن «استثقت» بدلاً منه، مشاهد غريبة
جداً، تدخل أحد الأهرامات، امرأة ترتدي الذهب الصافي، ورجال
سود يرقصون حول النار. توالى الصور بسرعة، فتركناها تنوالى،

دون توقف، ودون رقابة. وظهرت أمامي مراحل عدة من الطريق
التي سلكتها مع بتروس. وطلت تتجلى، حتى هذه اللحظة ودون
سابق لئلا، مناظر ومطاعم وغابات، إلى أن تبسطت صحراء
الرمال بين عمودي النار. وهناك، وقف الرجل النوبودي ببطر إلي،
والبريق المحاذع يلتمع في عيني.

صحتك، وابتهتت مرتعداً أشار إلى كيس نفوذ مخلوق، ثم فتحه
ناظراً إلى داخله. لكسبي، من المكان الذي وقفت فيه، لم أستطع
رؤية شيء. وعندئذ، خطر لي اسم «استران»^(١). تمثلت ذهياً هذا
الاسم، وتلفظته بين عمودي النار، فأوما «الرسول» بحركة من رأسه.
عرفت أن هذا هو اسمه.

حان الوقت لاختتام التمرين، تلتفتت بالكلمات الطقسية،
وأطلقت عمودي النار، أولاً عمود الشمال، ثم عمود اليمين. فتحت
عيني من جديد، وبدأ أمامي نهر «إيغا».

قلت لبتروس، بعد أن أخبرته بما حدث،

— كان الأمر أسهل مما توقعت.

— هذا أول اتصال لك به، اتصال تعارف متبادل، وصداقة متبادلة
ويصبح الحوار مع «الرسول» مثمراً، إذا استدعيته كل يوم، ناقشت
معه في بعض المسائل، وأنت تعرف كيف تميز فعلاً العون من
العج. لا تجعل سيفك يغيب عن بالك عندما تلتقيه.

أجبت،

— ليس لدي سيف الآن

— لهذا، لا يمكنه أن يؤذيك كثيراً. وفي أي حال، فإن من
الأفضل ألا تسهل المهمة عليه.

(١) بالطبع، هذا اسم مزيف.

بعد انتهاء التمرين، ألقيت تحية مساء على بتروس، وعنت إلى الفندق. تذكّرت بالغطاء، مفكراً بالخادم المسكين الذي قدّم إليها الغداء. كانت لدي رغبة أن أرجع لرؤيته، وتعليمه «طقس الرسول»، وأن أقول له إن كل شيء يمكنه أن يتغير، إذا شاء. لكن من العبث السعي إلى إنقاذ العالم. فانا لم أجد، حتى الآن، في إنقاذ نفسي (١).

الحب

قال لي بتروس في صباح اليوم التالي،

إن التحنّن إلى «الرسول» لا يتعلق بطرح الأسئلة عن عالم الأرواح
فالبسطة الوحيدة، التي يفنمها «الرسول»، هي الاستعانة به في العالم
للأدي. ولن يملك بهذا العمود، إلا إذا عرفت حقاً ما تريد.

توقفتنا في إحدى القرى، لستأول شرباً طلب بتروس البيرة،
وطلبت الصودا. كان الصحن، الموصوع تحت كوبي، مؤلفاً من دارة
بلاستيكية تحوي ماء ملوّناً رحت ألهي نفسي برسم أشكال
مجزئة فوقها.

— قلت لي إن «الرسول» قد تجلّى لي من خلال الصبي، لأنه أراد
ليأبني أمراً ما.

أجاب بتروس مؤكداً،

— أمراً ملخاً

تحنّنا أيضاً بالرسول واللائكة والشياطين. وصعب عليّ التسليم
بهذا الاستخدام العملي لأسرار الميراث. أضرب بتروس على فكرته
القائلة بوجوب البحث الدائم عن مكافأة وتذكّرت كلام السيد
المسيح، «الأغنياء لا يدخلون ملكوت السموات».

— لكن السيد المسيح كافأ الرجل الذي عرف كيف يصارع
وربات سيده. ثمّ لما لم يؤمن به، لأنه كان خطيباً فصيحاً فقط،
بل لأنه حقق المعجزة، وكافأ الذين تبعوه.

فأطعنا صاحب البار، الذي كان يستمع إلى حوارنا،

(١) إن طقس الرسول، موصوف بشكل مجتزأ، في الواقع، نشر لي بتروس معي الرؤيا
والذكريات والفكرات التي تظهره لي استرلين. ولكن، بما أن لقاء «الرسول» يختلف
باختلاف الأشخاص، فقد يبدو الإلحاح على تجربتي الشخصية ذا أثر سلبي في تجارب
الآخرين.

— لا يتكلم أحد بالسوء عن يسوع في حياتي.

أجاب بتروس،

— لم يتكلم أحد بالسوء عن يسوع فالكلام بالسوء عنه بمثابة ارتكاب للخطايا، تحت سنار النصزع لاسمه، وذلك ما فعلتموه هنا في هذه الساحة.

تردد صاحب الحانة قليلاً، ثم أجاب بسرعة،

— لا دخل لي بذلك، كنت لا أزال صغيراً.

وغمغم بتروس،

— اللذيون هم، دائماً، الآخرون.

خرج صاحب الحانة من باب المطبخ وسألت بتروس بما كان يتحدثان، فقال،

— منذ عشرين سنة، وفي منتصف القرن العشرين، أحرق عجري هنا في الساحة، لأنه ألهم بالسحر والتنجيد على القربان المقدس. أجري التعميم على القضية، بسبب قطائع الحرب الأهلية. ولا أحد يتذكر، اليوم، هذه القصة، إلا ساكنو هذه المدينة.

— وكيف علمت بذلك يا بتروس؟

— جزاء عبوري، من قبل، طريق «مار يعقوب».

تابعا الشرب في الحانة المقفرة. كانت الشمس شديدة السطوع عند القبولة بعد قليل، رجع صاحب الحانة برفقة كاهن القرية

سأل الكاهن،

— من أنتم؟

أظهر بتروس الصلصة الرسومة على حقيبة ظهره. منذ ألف ومئتي سنة والحجاج يمرون بهذه الحانة والتقليد بقصي يأن يحترم كل حاج، ويستقبل بشكل حسن، مهما تكن الظروف.

غير الكاهن لهجته، وسأل بببرة تعليمية،

— كيف يحدث أن يتكلم حجاج ذاهبون إلى «سانتياغو» بالسوء

عن يسوع المسيح؟

— لا أحد يتكلم بالسوء عن يسوع هنا. كما يذكر بالجرائم التي ارتكبت باسمه ونثرنا، كمثال على ذلك، قصة العجري الذي أحرق في الساحة.

أجبرت الصلصة، الموضوع على حقيبة بتروس، صاحب الحانة أن يغير تصرفاته هو أيضاً توجه إليها هذه المرة باحترام، وقال، بالرغم من نظرة الكاهن المستهجة،

— إن لعنة العجري لا تزال قائمة على القرية.

أصّر بتروس على معرفة حقائق هذه اللعبة. أجاب الكاهن أنها مجرد روئيات شعبية، لم تثبتها الكنيسة. لكن صاحب الحانة أضاف،

— قبل أن يموت العجري، قال إن شياطينه ستنقل إلى أصغر طفل في القرية وتسكنه. وعندما يكبر هذا الطفل ويصير عجوراً، تنقل الشياطين إلى طفل آخر، وهكذا دواليك، على مر العصور.

قال الكاهن،

— إن الأرض هنا هي نفسها الأرض الموجودة في القرى الأخرى المجاورة. عندما تعاني القرى الجفاف، تعاني نحن أيضاً. وعندما بهطل المطر هناك ويكون الموسم جيداً، يملأ، نحن أيضاً، بهوت مؤسنا. لم يحدث شيء لنا، أو للقرى المجاورة. إن كل هذه القصة خيال محض.

أوضح صاحب الحانة،

— لم يحدث شيء، لننا عزلنا اللعبة.

اقترح بتروس،

— فلنذهب إلى، إلى عفر دارها!

ضحك الكاهن للعبارة المفاجئة، ورسم صاحب الحانة إشارة الصليب، لكن أحداً منهما لم يتحرك.

دفع بتروس الحساب، وأصرّ على أن يصطحبنا أحدهما إلى الشخص الذي سكنه اللعنة. اعتذر الكاهن قائلاً إنه مضطر للعودة إلى الكنيسة، لأن عملاً مهماً كان ينتظره، ولم يجره بعد. ثم رحل قبل أن يتمكن أحد من التفوه بكلمة واحدة.

رمى صاحب الحانة بتروس بمنظرة قلقة.

قال مرشدي،

— لا تهتم، يكفي أن نرشدنا إلى البيت الذي نسكنه اللعنة، وعلينا أن نسعى لتخليص المنية منها.

قائدا صاحب الحانة إلى الشارع المظلم، والمبهر نحت أشعة شمس بعد الظهيرة الساطعة. بلغنا مخرج القرية، وأشار إلى بيت مسكون.

على جانب الطريق

قال، وكأنه يحذر،

— نرسل دائماً طعاماً وملابس، وكل ما هو ضروري لكن الكاهن نفسه لا يذهب إلى هناك.

استأذناه بالانصراف. توقف العجوز، ولعنه اعتقد أننا لن نقصد البيت. قرع بتروس الباب. وعندما استمرت، كان صاحب الحانة قد اختفى.

فتحت لنا الباب امرأة شارفت الستين من عمرها، يرافقها كلب أسود ضخمة يحرك ذنبه، ويبدو مبهجاً بالزيارة. سألنا المرأة ماذا تريد، قائلة إنها مشغلة بالقسيل، وإنها تركت القدر على النار. لم تبد مندهشة لرؤيتنا. لعلّ حجاجاً كثيرين لا يعرفون شيئاً عن اللعنة، فرعوا بابها بحثاً عن ماوى.

قال بتروس،

— نحن حجاجان في طريقنا إلى كومبوستيان، وبحاجة إلى ماء ساخن. أعرف أنك لن ترفضي لنا هذا الطلب.

فتحت العجوز الباب رغماً عنها. دخلنا غرفة صغيرة نظيفة، ولكنها فقيرة الأثاث. كانت ثفة أريكة ذات عطاء بلاستيكي ممزق، وصوان، وطاولة من الفورميكا، وكريسيان. واجتلت الصوان صورة لقلب يسوع وقنيسين، ومصنوب يتوجه إكليل من شوك. كان هناك بايان يؤدى إلى الغرفة الصغيرة، عبر أحدهما، استطعت رؤية الغرفة، وعبر الآخر، قادت المرأة بتروس إلى المطبخ.

قالت،

— لدي القليل من الماء الفلتي. سأذهب لأحضر وعاء، بعدها يمكنك العودة من حيث جئتما.

بقيت وحدي في الغرفة مع الكلب الضخم. كان يحزّ ذنبه فرحاً وظاعة. بعد قليل، رجعت المرأة تحمل عذبة قديمة، ملأها مياها ساخنة وفنمئتها لبتروس.

— حظّكم ولاهب، ولباركك الله

لكن بتروس لم يتحرك. انتشل من حقيبته مغلفاً صغيراً من الشاي، ووضع في الماء الساخن، معلماً أنه يرغب في أن يتقاسم القليل الذي يملكه معها، ليشكرها على حسن استقبالها.

ذهبت المرأة لتأتي بكوبين، وقد بنا عليها الانزعاج صراحة. ثم جلست أمام الطاولة إلى جانب بتروس. تابعت النظر إلى الكلب، وأنا نستمع إلى الحوار.

قال بتروس بلهجة محايدة،

— قالوا لي في القرية إن لعنة جائمة على هذا البيت.

التمعت عينا الكلب، وبدا وكأنه يفهم هذه الأقوال.

نهضت العجوز متوقفة وقالت،

— كلبا شعودة قديمة! أسرع، لو سمحت، بتناول الشاي، لأن لديّ أعمالاً كثيرة تنتظري.

أحسّ الكلب بتغير مزاج المرأة المفاجيء، وبقي جامداً متاهياً

لكر بتروس ظل محتفظاً ببرودة أعصابه. صبّه على مهل، الشاي في الكوب، ورفعته إلى شفتيه، ثم أعاده إلى الطاولة، دون أن يحتسي شيئاً.

— إنه ساخن جداً. فللمدعه يبرد.

ظلت المرأة واقفة. بدت منزعة جناً من حضورنا، ونائمة لأنها استقبلتنا لاحظت أنني أنظر إلى الكلب محدقاً إليه باستمرار، فدعته إلى جانبها. أطاع الحيوان لكنه استمر، هو أيضاً، في التحديق إليّ.

قال بتروس، وهو يستدير ناحيتي،

— من أجل هذا يا عزيزي، ظهر عليك «الرسول البارحة، على هيئة طفل.

وفجأة، لاحظت أنني لم أكر أنا من ينظر إلى الكلب. فقد دخلت، وهذا الحيوان يسفر عيبيه إلى عيني، كأنه يؤمسي مضطرباً ويجعلني أحقق إرادته. شعرت بتعب كبير، وبرغبة في النوم على هذه الأريكة المزقة، لأن الطقس كان حاراً في الخارج، ولا رغبة لي في معاودة السير. كل ذلك بدا لي غريباً وشعرت أنني سقطت في الغيغ. كان الكلب يحدق إليّ باستمرار وكلما نظر إليّ، تعاطمت رغبتني في النوم.

قال بتروس، وهو ينهض ليقتحم إليّ كوب الشاي،

— اشرب قليلاً، ولنذهب. إن السيدة تريدنا أن نرحل في أسرع وقت ممكن.

ترنخت، لكنني نجحت في الإمساك بكوب الشاي. احتسيت قليلاً من الشاي الساخن، فاعشنتني. أردت أن أقول شيئاً، أن أسأل عن اسم الحيوان، لكنني فقلت صوتي. شيء ما استفاق فيّ، شيء لم يلقني إياه بتروس، ولكنه يرناد تجلياً في داخلي، كأنها رغبة لا تقاوم بتلفظ كلمات غريبة أجهل، أنا نفسي، معها فكرت أن بتروس نسأل لي شيئاً في الشاي. بدا لي كل شيء بعيداً. شعرت

بشكل غامض، أن المرأة تقول لبتروس إنه علينا الرحيل. وغمرني إحساس بالقبضة، قررت أن أقمّوه بالكلمات الغريبة التي جالت في خاطري.

كان الكلب الشيء الوحيد الذي أستطيع تمييزه في العرفة وعندما بدأت أتلفظ بتلك الكلمات الغريبة، أخذ الكلب يحدث دمنمة، لقد كان يفهمها. شعرت بالإثارة، وتابعت الكلام بصوت يعلو باظرب. يتصب الكلب وكثر عن أنيابه. لم يعد ذلك الكلب الطبع الذي التقيته لدى وصولي، بل تحول بهيمة شذيرة متوغدة، يمكنها أن تهاجمني في أي لحظة. كنت أعرف أن الكلمات تحميني فاصدرتها بصوت أعلى، متجهاً بكل قواي إلى الحيوان. شعرت أن قدرة مختلفة تعمل في داخلي، قدرة تمنع الحيوان من مهاجمتي.

وعندئذ، توالى الأحداث بشكل بطيء. أنكر منها أن المرأة اقتربت مني محاولة أن تلحقني إلى الخارج، وأن بتروس صنها، فيما الكلب لا يولي المشاجرة أنني اهتمام. كان يحدق إليّ، وراح يدمدم مكشراً عن أنيابه. حاولت أن أفهم اللغة الغريبة التي تكلمت بها، لكنني كلما توقفت قليلاً لأفهم معناها، يتصاعد تأثيرها، فيقترب الكلب مني أكثر، ويرناد عندي عسلخ، رعت بأعلى صوتي، وأخذت المرأة تصرخ، هي أيضاً، والكلب يسهج ويهندي. لكنني كلما تابعت الكلام، أصبح أكثر أماناً. سمعت ضحكة مدونة، ولم أدرك حقاً إذا كانت هذه الضحكة حدثت في الحقيقة، أم أنها ثمرة خيالي.

وفجأة، وكان كل شيء يحدث في الوقت نفسه، عصفت الريح في البيت، وقام الكلب بوثة كبيرة، وهجم عليّ. رفعت ذراعي لأحمي وجهي وطلقت بكلمة مستطراً تأثيرها، فانقض الحيوان عليّ بكل ثقله، وسقطت على الأريكة. تفرّس أحداً في الآخر للحظات ثم خرج الكلب وهو يركض.

طلعت أبكي بحرارة. فكرت بعائلتي وزوجتي وأصدقائي،
ورأيتني إحساس جارف من الحب، وانتابني فرح غامض لا حد له.
لكي كنت أعني، كل هذه القصة مع الكلب، وعياً متزامناً مع
حلوئها. أخذني بتروس بذرعني، واصطحبني إلى الخارج، والمرأة
تدفعنا كلياً نظرت من حولي، لا أثر للكلب، بيد أنني احتميت
ببتروس، واسترسلت في الهكاء، فيما كنا نمشي تحت أشعة
الشمس.

لم احتفظ بذكرى هذه المرحلة. وعندما رجعت إلى حواشي،
رأيتني جالساً قرب سبيل ماء. بلل بتروس وجهي ورفعتني. أردت أن
أشرب، فقال لي إن أي شيء أشربه سأنتفاه في الحال. المني وخز في
قلبي. ومع ذلك، شعرت أنني في حالة جيدة، غمرني حب عظيم
لكل شيء، وللجميع. نظرت من حولي، رأيت الأشجار المترامية
على حافة الطريق، وسبيل الماء الصغير، حيث توقفنا ناعبني
النسيم النعش، وسمعت صوت العصافير في الغابات. رأيت وجه
ملاكي في كل هذا، كما قال لي بتروس من قبل. سألته عما إذا
كنا ابتعدا عن بيت المرأة، فأجابني أنا مشياً حوالي ربع ساعة.

قال،

— لا بد أنك راغب في معرفة ما جرى.

في الواقع لم يكن لذلك أي أهمية عندي: الكلب والمرأة
وصاحب الحانة.. كل ذلك بدا لي أشبه بذكريات بعيدة لا علاقة
لها بما أشعر به الآن. اقترخت على بتروس أن نمشي قليلاً، لأنني
استعنت قوياً كاملة.

نهضت، وتابعنا السير معه على طريق «مار يعقوب». بقيت شبه
صامتة طوال الوقت، مغموراً بهذا الشعور المبيل الذي يملأ كل
شيء. في وقت ما، خطر لي أن بتروس قد دس لي مخدراً في

النشاي، أو ما شابه. لكن هذا أيضاً لا أهمية له. اللهم هو أن أنامل
الجبال والجداول والأرهار على حافة الطريق، وأرى الملامح السامية
لوجه ملاكي.

مزلنا في فندق قرابة الثامنة مساءً. وكنت، على الدوام، أشعر
لنني في حال من الغبطة، على الرغم من أن حدة الشعور قد خفت.
طلب صاحب الفندق جوبز سفري، ونظر إليه، ثم أعاده لي، قائلاً،

— أنت أت من البرازيل. سبق لي أن ذهبت إلى هناك، ونزلت في
فندق على شاطئ «إيبانيم».

أعانني هذه الجملة النافذة إلى واقعي، في منتصف طريق «مار
يعقوب»، وفي قرية شُيّدت منذ عصور، كان هناك صاحب فندق
يعرف شاطئ «إيبانيم».

قلت لبتروس،

— أنا مستعد الآن للنقاش، وأريد أن أفهم كل ما حدث لي اليوم.
فقد اختفى الشعور بالغبطة، وأعيد الاعتبار لأحكام العقل،
ونصاعف الخوف من المجهول. شعرت برغبة ملحة في أن أضع قدمي
على الأرض من جديد.

أجاب

— بعد العشاء.

طلب بتروس من صاحب الفندق تشغيل جهاز التلفزيون، لكن
دون صوت، موضحاً لي أنها أفضل طريقة لأسمع كل شيء دون أن
أطرح الكثير من الأسئلة، لأن جانباً من كياني سيكون منصرفاً
إلى مشاهدة التلفزيون. سعى ليعرف إلى أي حد كنت أتذكر ما

حدث لي قلت اني اتذكر كل شيء، إلا العنزة التي مشيما حلالها
الى اليمبوع.

اجاب،

— ليس لهذا أي أهمية.

على شاشة التلفزيون، تعرض فيلم تنعلق قصته بمناجم الفحم،
وثرندي شخصياته أزياء تعود إلى بداية القرن.

قال بتروس،

— «البارحة، عندما شعرت بالحاج رسولك عليك، عرفت أن
معركة ستخاص على طريق «مار يعقوب». أنت هنا للعنور على
سيفك، ولتعلم ممارسات «رام» لكن، في كل مرة يفود مرشد
حاجاً، يحدث أن يخرج أمر طاريء عن سيطرة الإنس. وهو نوع من
اختبار عملي لا جرى تلقينه وفي حالتك، كان اللقاء مع الكلب.

«أما تفاصيل الصراع ووجود شياطين عنزة هي أحد الحيوانات،
فهذا أمر سأشرحه لك لاحقاً» اللهم الآن هو أن نعلم أن هذه المرأة قد
تعوذت اللعنة، تفنلتها وكابها شيء عادي، فعظمت لديها حقارة
العالم. وهكذا تعلمت أن ترضى بالقليل القليل، فيما الحياة سخية
وتريد يوماً منحنى الزيد.

«عندما طرئت الشياطين من هذه العجور المسكينة، أحللت،
أيضاً، بعالمها كما قد تحللتا، في ذلك اليوم، عن القسوة التي
يمكن للناس ارتكابها بحق أنفسهم. وعندما نحاول أن نظهر لهم
الخبر، وأن الحياة سخية معطاء، غالباً ما يرفضون الفكرة، وكابها
من عمل الشيطان، لا أحد يؤذ طلب الكثير من الحياة، لأنه يخاف
ال فشل. ولكن من يتوق إلى خوص «الجهاد الحس»، فعليه المظر إلى
العالم، وكأنه كيز لا ينصب ينتظر أن يعثر عليه أحد ويمتلكه.

سألي بتروس عما إذا كنت أعرف، فعلاً، الغاية من رحلتي على
طريق «مار يعقوب».

أجبت:

— أبحث عن سيفي.

— ولماذا تريد سيفك؟

— لأنه سيحمل لي القنرة وحكمة «الميراث».

شعرت أن جوابي لم يرضه تماماً، فاضاف:

— «أنت هنا بحثاً عن مكافأة. تجرؤ على الحلم وتعمل كل ما
في وسعك، لتجعل الحلم حقيقة. عليك أن تعرف، بشكل أفضل،
ماذا ستفعل بسيفك. وينبغي أن يكون ذلك واضحاً في ذهنك قبل
العنور عليه. إلا أن لديك حسنة هي أنك تسعى إلى مكافأة،

«أنت لا تجتار طريق «مار يعقوب»، إلا لأنك رغب في أن تجاري
على جهلك. لاحظت أنك تسعى إلى تطبيق ما لقبتك إياه بحثاً عن
حل عملي. وهذا إيجابي جداً.

«بقي عليك أن تربط بين ممارسات «رام» وحسك الخاص بك.
هي لغة القلب التي تحدد الوسيلة الصحيحة لاكتشاف سيفك
وتوجيهه. وألاً فإن ممارسات «رام» سوف تصبغ في حكمة «الميراث»
العقيمة.

قال لي بتروس ذلك من قبل، لكن بعبارة مختلفة. كنت
منعقاً معه، بيد أن معرفة ذلك لم تكن تهنئي لقد وقع لي أمران
لم أتوصل إلى تفسيرهما، اللغة المختلطة التي تكلمتها، والغبطة
والحب اللذان شعرت بهما، بعد طرد الكلب...

— إن الشعور بالغبطة تشفع بك، لأن بادرثك قد لامسها الحب
الإلهي

— فتحدثت كثيراً بالحب الإلهي، ولم تشرح لي، حتى الآن،
ماهيته.

— سيأتي الوقت، ونشعر بهذا الحب العظيم الذي يلتهبهم من يحب.
وفي انتظار ذلك، اكتب بمعرفتك أنه سيتجلى بحرية في داخلك.

— سبق لي أن عرفت هذا الشعور، لكن بشكل وحيز ومختلف
بعد نجاح مهين أو امتلاك امرأة، أو لدى الإحساس بأن الحظ
يحالفني. ومع ذلك، كنت، حين ينبثق هذا الشعور، أغلق، وأخاف
أن أعيشه بحدة. وكأنّ هذه البهجة يمكنها أن تثير حسد
الآخرين، أو كأنني كنت غير جدير بها.

اعترف بتروس، وعيناه نحلّقان إلى شاشة التلفزيون، قائلاً:

— بكلّنا نتصرف هكذا، قبل أن نعرف الحب الإلهي.

سألته عن اللغة الغريبة التي تكلمت بها.

— فاجاني الأمر، لأن هذه الممارسة لا تتعلق بطريق «مار يعقوب»،
بل هي خطوة تنمي إلى ممارسات «رام» على طريق روما.

سمعتهم، في السابق، يتحدثون بالخطوة، أو بالوهبة اللصيّة،
لكنني طابعت من بتروس شرحاً أوضح.

— إن الخطوات هي عطايا الروح القدس، وهي تتجلى في كلّ
مّا. قد تكون موهبة الشفاء، أو اجتراح العجرات، أو النبوة... واليوم
أنعم الله عليك بموهبة اللغات، التي عرفها الرسل يوم العصرة.

إن موهبة التكلم بلغات عديدة هي الاتصال المباشر بالروح،
وهي الشرط الأساسي للناملات المافكة، والتعاريم القوية والحكمة.
وفي حالتك أنت، تمكنت أيام المسير، وممارسات «رام»، والخطر الذي
مثله الكلب عليك، أن توقف فيك نعمة اللغة، من طريق المصادفة.
ولن تعود هذه الوهبة، إلا إذا وجدت سيعك، وفزرت أن تسلك طريق
روما. وفي أي حال فإن هذا قال خبير.

على شاشة التلفزيون الأخرس، تحولت قصة مناجم الفحم إلى
سلسلة من الصور، حيث الرجال والنساء يتكلمون دون توقف
ويتناقشون ويتحاورون. من وقت إلى آخر يتبادل ممثل وممثلة
القبل.

قال بتروس:

— هناك شيء آخر، يمكنك أن تلتقي الكلب مجدداً. وفي هذه
الحالة، لا تسع إلى بحث موهبة اللغات، لأنها لن ترجع أبداً. افعل ما
يمليه عليك حنك. سألقت ممارسة أخرى في «رام» توقف فيك
هذا الحنك، لتتعرفه شيئاً فشيئاً، إلى اللغة السرية لروحك.
وسيفيدك هذا في كلّ أيام حياتك.

أطفا بتروس جهاز التلفزيون في اللحظة التي بدت فيها اهتمام
بحبكة الفيلم. ثم اتجه إلى البار، وطلب زجاجة مياه معدنية.
احتسى كلّ منا بضع جرعات.

ذهبنا للجلوس في مكان منعش. بقينا صامتين لفترة وجيزة.
كانت سكبنة الليل تختم علينا، والمجرة في قبة السماء تذكرني
بالغاية التي جئت من أجلها، العثور على سيني.

ثم علمني بتروس تمرين الماء.

ثم قال بتروس:

— أنا متعب وأريد النوم. أما أنت، فمارس التمرين الآن. أيقظ
حنك وجانبك الخفي. لا تهتم بالمطق، فالأمر عنصراً سائلاً، ولن
يسمح لشيء بأن يهيم عليه بسهولة. سينجح لك الماء بأن تفهم،
تدريجاً ودون عنقه صلة جديدة بالكون.

وختم، قبل أن يدخل الفندق.

— لن يكون هناك كلب دوماً لمساعدتنا.

استمتعت قليلاً بنبأفة الليل وصمته. كان الفندق بعيداً عن
كل مكان مأهول. ما من أحد يعبر الطريق أمامي. تذكرت
صاحب الفندق الذي يعرف «إيبانيما»، والذي كان يستغرب وجودي
هنا في هذا المكان القاحل، الذي تحرقه الشمس المسعورة كل يوم.

كنت متعاساً، وحاولت أن أنفذ التمرين دونما إبطاء. صيبت بقية الماء في الرحاجة على الأرض الإسمنتية، فارتسمت بركة ماء في الحال.

لم يكن هناك أي صورة أو شكل. ولم يكن هذا ما أبحث عنه. كانت أصابعي تجول في الماء الباردة، وبدأت أشعر بهوع من الخدر، كممثل الحذر الذي يسري في أوصالنا لدى مشاهدة النار ما عدت أفكر بشيء. كنت فقط ألهو وأنسئ ببركة الماء المائلة، وأمامي رسمت بعض الخطوط على الصعاف. بدت وكأنها تتحول إلى شمس مبهلة. وللحال، امتزجت الخطوط وتشابكت، بسطت يدي، وضربت صفحة البركة، فتمنحت غامرة الأرض بالشار الذي بدا كمجوح سواد فوق خلفية رمادية استغرقت في هذا التمرين الغريب. هكنا دون هدف، واستمنعت به أحسست أن أفكاري قد توقفت تماماً، وأن روحي فرغت منها. وهذا ما لم أكن أبحثه إلا بعد ساعات طويلة من التأمل والاسترخاء وبموارة ذلك، كان شيء ما في دخيلتي، يقول لي إن هناك قوة تتشكك، وتنهياً لتتجلي.

بقيت وقتاً طويلاً، وأنا ألهو ببركة الماء صعب علي أن أصنع حناً للتمرين. لو أن بتروس علمني تمرين الماء في بداية الرحلة، لوجدت هذا مصيبة للوقت بالتأكيد. لكن، الآن، وقد بدأت أتكلم بلغات مختلفة وأطرد الشياطين، فإن هذه البركة الصغيرة كانت تقيم اتصالاً، ولو هشاً، بالجزء، تعكس نجومها، وترسم أشكالاً لا أتوصل إلى فهمها، وتمنحي الشعور ليس بإصاعة الوقت، بل بحلق سس، جديد للتواصل مع العالم. إنه الشئ السري للروح واللغة التي يعرفها، ولكن قليلاً ما نسمعها.

عندما أدركت ذلك، كان الوقت متأخراً، فقد أطفئت الأنوار أمام الباب. دخلت دون صجة، ثم أويت إلى فراشي، واستدعيت مرة أخرى أسرار قطهر لي بوصوح أكبر. حينئذ، لبعض الوقت

نقطة الحدس (أو تمرين الماء)

شكل بركة ماء صغيرة فوق مساحة ملساء لا تمنع الماء، ونافلتها لبعض الوقت. ثم حاول أن تلهو بالماء، دون أي التزام أو هدف. رسم أشكالاً لا معنى لها، ومارس هذا التمرين، طوال أسبوع، بحيث يستغرق كل مرة ما لا يقل عن عشر دقائق.

لا تبحث عن نتائج عملية. فهذا التمرين يوظف حدسك تدريجاً وعندما تتجلى هذا الحدس في ساعات أخرى من اليوم، تلى به دفناً.

www.newcity.com
By Dalvin

عن سيفي وأهداني هي الحياة. لم يقل شيئاً. لكن بتروس أنبلي
أن استراي سيصبح، خلال الاستدعاءات، حضوراً حياً، وجتاراً إلى
جانبي.

الزواج

تعدّ «لوغرونيو» إحدى أكبر المدن التي يجتارها الحجاج، سالكو
طريق «مار يعقوب». ونحن، إلى الآن، لم نعبز إلا مدينة واحدة
مهمة، هي «بامبيلونا» ولكننا لم نقض ليلتنا فيها. بعد ظهر
ذلك اليوم، وصلنا إلى «لوغرونيو»، وكان ثمة احتفال كبير
ينحضر فيها. افترج بتروس أن يمكننا هذه الليلة على الأقل.

كنت قد آلت صمت الريف والحربة، فلم أستسغ الاقتراح. مرّت
خمسة أيام على حادث الكلب. وكنت، كل مساء، استدعي
استراي وأقوم بتمرين الماء. بدأت أشعر أنني أكثر هدوءاً، وأني أعي
أكثر الأهمية التي ترتبها طريق «مار يعقوب»، حيال ما ساقفه
لاحقاً وبالرغم من قحط المناظر، والغذاء الذي لم يكن جيداً في
الغالب، والتعب الذي سببته لي أيام السير الطويلة، فإني كنت
أعيش في حلم حقيقي.

اختفى كل ذلك يوم وصولنا إلى «لوغرونيو». فالهواء فيها لم
يكن الهواء النقي والقي الذي الغدا في الأرياف الداخلية من البلاد،
بل هواء مدينة مزدحمة بالسيارات والصحافيين وقرق التلفزيون.

دخل بتروس أول حانة، ليسأل عما يجري.

أجابه أحد الرجال،

— أيعقل أنك لا تعرفه إنه يوم زفاف ابنة الكولونيل م. وسوف
تقام مأدبة شعبية في الساحة، ونحن بهذه المناسبة، نقفل متاجراً
قبل الموعد المعتاد.

لم تتمكن من العثور على غرفة في الفندق. لكن عجورث
عابها الصدف للعلقة على حقيبة بتروس، اقترحا أن نبيت عندهم،
قمت بالاستحمام، وكذلك فعل، وليست البطل الوحيد الاحتياط
الذي جلبته معي. ثم خرجت وبتروس.

في الساحة، كان عشرات الحدم الذين يضعون لمساتهم الأخيرة
على الطاولات الموضوعة في كل جانب، والعرق ينصبب نحب
بدلاتهم السموكينغ، أو لباسهم الأسود. كان التلفزيون الإسباني
يبث بعض الاستعدادات للرفاف. فولجنا شارعاً يؤدي إلى كنيسة
«مار يعقوب الملكي»، حيث سيقام حفل الرفاف.

كان المدعوون في أحسن هدام، وقد خشيت المسوة أن تسبل
مساحيق ريشتهن بسبب الحز. وكان الأطفال بملابسهم البيض
يدخلون الكنيسة دون توقف، وقد بنا عليهم الاستياء انفجر
مفرقات الألعاب الدرية، وتوقفت سيارة ليمورين سوداء أمام البوابة
الرئيسية، وصل الخطيب، لكنا لم نستطع احتراق الحشد فر
الكنيسة، فقررنا الرجوع إلى الساحة. ذهب بتروس للقيام بجولة
وجلس فوق أحد المقاعد منتظراً انتهاء حفل الرفاف، وبينما
الوليمة، إلى جاسبي، كان بائع فشار يستطر، هو أيضاً، بهبه
الاحتفال، ليريد مبيعاته.

سابي،

— هل أنت أيضاً مدعو؟

— لا، نحن حجاج في طريقنا إلى «كومبوستيلا».

— هناك قطار ينطلق مباشرة من «مريد» إلى «كومبوستيلا»
وإن سافرتم يوم الجمعة، فلنكن الحق في درول في الفندق مجاناً

— لكنا نقوم بالحج.

نظر إلى البائع، ثم أجاب بلهجة رصيدة:

— إن الحج أمر خاص بالقنيسين.

فضلت السكوت. وراح العجور يروي أنه روج أبنته، وأنها تعيش
الآن منفصلة عن زوجها.

قال،

— في أيام فرانكو، كان الاحترام أكبر للعائلة واليوم لا أحد
يكثر لهذا الأمر.

لم نستطع أن نجعل هذا الكلام يمر دون تعليق، مع أنني كنت
أعرف أن ليس مستحسناً التحدث بالسياسة على أرض أجنبية. قلت،
— فرانكو كان ديكتاتوراً، لا يمكن لشيء من ذلك الرمن أن
يتصف بالإيجابية.

احمر وجه العجوز غضباً، وقال،

— من أنت لتتكلم هكذا؟

— أعرف قصة بلانك. أعرف أن شعبك ناضل من أجل الحرية.
وقرأت الكثير عن جرائم الحرب الأهلية في إسبانيا.

— لقد شاركت في الحرب، ولي الحق في الكلام، لأن دم عائلتي
أهرق أفا الفاربخ الذي قرأته، فلا يهمني. ما يهمني هو ما جرى
لعائلتي. حاربت فرانكو، ولكن، بعد انتصاره، تحضنت حياتي.
لست فقيراً، فلدي عربة فشار، بيد أن هذه الحكومة الاشتراكية
لم تساعدني على امتلاكها. وأنا اليوم أعيش في حال أسوأ من حال
البلوحة.

تذكرت ما قاله بتروس عن أن الناس يكتفون بالقليل القليل
في حياتهم. لم أحب. وعممت إلى تغيير مفعدي.

وظاني بتروس. فابلغته حديثي مع بائع البوب العشار.

علق قائلاً:

— أمر عظيم أن تجادل، حين تريد أن تضع أنفسنا بما نقول. أنا
عصو في الحرب الشيوعي الإيطالي، ويفجئني هذ الجانب العاشق
لديك

سألت متعجباً ومستنكراً: هي أن،

— عن أي جانب فاشي نتحدث؟

— ساعدت هذا العجور على الاقتناع بأن نظام فرانكو كان النظام الأفضل. ربّما لم يكن يعرف تماماً لما أحسّ بذلك من قبل. إلا أنّه الآن عرف بالتأكيد.

— لكن أنا المغاضب. لم أكن أعرف أن أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي يؤمنون بمذهب الروح القدس.

ضحكنا. ثم انفجرت الألعاب النارية من جديد، وجاءت فرقة موسيقية ووقفت فوق المنصة التي أعنت في الساحة. بوزن الموسيقىون آلاتهم. فلاحتمال سببنا بين لحظة وأخرى.

نظرت إلى السماء، كان الليل يهبط، كما أن بعض النجوم قد تألّفت. اقترب بتروس من أحد الخدم، وعاد حاملاً كوبين من البلاستيك ممتلئين خمرًا.

قال بتروس، وهو يقدم إليّ الكوب:

— اشرب قليلاً، قبل أن يبدأ الاحتفال. فهذا قال خير، وهو يُنسبك أيضاً بائع الفشار العجوز.

— لم أعد أفكر فيه.

— لكن عليك أن تفعل. إن ما حدث هو رسالة رمزية تشير إلى تصرف مفلوط. نحن نحاول دوماً أن نتخذ اتباعاً لنا يوافقون على تصوراتنا عن الكون. ونعتقد أن إرثنا عند الناس الذين يفكرون مثلاً يجعل من تصوراتنا حقيقة، مع أن الأمر لا علاقة له بذلك.

أنظر من حولك. ثمة احتفال كبير يتحضر. وأشياء كثيرة أخرى سيحتفل بها في الوقت نفسه، حلم الأب الذي كان يريد ترويح ابنته، حلم الفتاة التي كانت تريد أن تخرج، حلم الخطيب، وهذا جيد. جيد أن يؤمنوا بهذا الحلم، ويثبتوا للجميع أنهم بلغوا أهدافهم. ليس هذا احتفالاً لإقناعنا بأي شيء. ولهذا، فهو يرقّه عن

النفوس. كل شيء يشير إلى أن هؤلاء الناس حاصوا الجهاد الحسن من أجل الحب.

— لكن أنت، أيضاً، يا بتروس تحاول إقناعي: تفونني على طريق «مار يعقوب».

نظر إليّ ببرودة، وقال:

— أعلمك ممارسات مرام. لكنك لن تعثر على سيفك إلا إذا اكتشفت أن في قلبك الطريق والحق والحياة.

وأشار بإصبعه نحو السماء، حيث كانت النجوم ساطعة، ثم قال:

— المجرة تدل على الطريق حتى «كومبوستيلا». ليس هناك بين قادر على تجميع كل هذه النجوم، فلو كانت الحال كذلك، لأصبح الكون مكاناً هائلاً فارغاً، لفقد معنى وجوده. إن كلّ نجمة — كل إنسان — تمتلك مساحتها وميراثها الخاصة بها. هناك نجوم خضراء وصفراء وورقاء وبهضاء هناك منخبات وشهب ونيازك وحلقات وسديم. إن ما يبدو من الأرض أشكلاً هندسية، مكوبة من نقاط صغيرة متساوية، يتألف، في الحقيقة، من ملايين العناصر المختلفة المبعثرة في فضاء يتجاوز الإدراك البشري.

انفجرت باقة من الألعاب النارية، وغمر نورها الفضاء، حاجباً النجوم لبعض الوقت، ثم انهمر شلال من الجريئات الخضراء البزاقة.

قال بتروس، على سبيل الاستنتاج:

— من قبل، سمعنا صجة الألعاب النارية فقط، لأن الوقت كان نهراً، أما الآن، فنستطيع رؤية نورها. هذا هو التغيير الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يصبو إليه.

خرجت العروس من الكنيسة، وسط هتاف الحشد الذي رماها

بالأرز. وكانت العروس فتاة نحيلة في حوالي السابعة عشرة، تناحز
نراع قتي يرتدي لباس سهرة، اتجه الحشد إلى الساحة
هبت العتيات قريبا،

— هاكم الكولونيل م. انظروا إلى ثوب العروس. ما أجملها!

اقترب المدعوون من الطاولات وقدم الخدم النبيذ، وعرفهم
الأوركسترا تجتمع حشد من الصبيان الراقصين حول البائع، باسطين
قطعهم السفدية، ثم سارعوا إلى نشر أكياس الفشار على الأرض
قلت في نفسي، إن كل ما يجري في سائر أنحاء العالم لا يجري
لسكان «لوغروبو»، هنا النساء على الأقل، لا خطر بشوب حرب
يووية، ولا البطالة، ولا الجرائم. كل ذلك لم يعد موجوداً فمي هد
النساء عيد وطاولات بسطت في الساحة من أجل الشعب، وكل
تعاظم نفسه أمام ناظره.

اتجه الفريق التلفزيوني ناحيتنا، فأخفى بتروس وجهه فقدم
الفريق باهتمام بالغ باتجاه أحد المدعوين الذي كان واقفاً قريبا
وسرعان ما تعزفت إليه، إنه مابولو، مدير فريق إسبانيا خلال دورة
كأس العالم التي أجريت في المكسيك. بعد انتهاء المقابلة، ذهبت
للغائه قلت له إني براريلي فتظاهر بالاستياء، معترضاً على هدف
سرقه البرازيليون خلال أول مباراة في كأس العالم^(١) لكبه
صالحني بعد ذلك، مؤكداً أن البرازيل ستقدم من جديد لفصل
لاعب العالم.

سألته، وقد تذكرت شيئاً لفت انتباهي خلال البث المباشر
لمباريات كأس العالم،

— كيف يمكنك أن تتابع مجرى المباراة، فيما تركض دون
توقف على أرض الملعب لتنشط الفريق؟

(١) خلال مباراة الفريقين الإسباني والبرازيلي التي أجريت ضمن إطار دورة كأس العالم
في المكسيك عام ١٩٨٦، التي هدف إسبانيا، لأن الحكم لم ير أن الكرة لامست أحد
اللاعبين قبل أن تدخل المرمى. وخرجت فيرنيل مسعرة بهدف وحيد.

— يكفي أنني أجد متعتي هنا، في مساعدة الفريق على الإيمان
بالنصر.

وختم قائلاً، كما لو أنه كان هو أيضاً مرشداً على طرقات «مار
يعقوب».

— إن الفريق، الذي لا يملك الإيمان، يغتو على يديه فرصة
الانتصار.

بعد قليل، احتشد أناس آخرون حول مابولو. رحبت أفكر في
أقواله، إن مابولو يعرف كيف يخوض «الجهاد الحسن» حتى ولم
يذهب للحج على طريق «مار يعقوب».

عثرت على بتروس مختبئاً في أحد أركان الساحة، وقد بدا
عليه الانزعاج من وجود الفرق التلفزيونية. عندما أطفئت
الكشافات، ظهر أخيراً من وراء الأشجار، مثلهذا بارتياح. طلبنا
كاسين آخرين من النبيذ، وفي حين أسي أعددت لي صحناً من
الحرفاقات، اهتدى بتروس إلى طاولة، فجلسنا إلى جانب المدعوين
الآخرين.

انقطع العروسان قالياً كبيراً من الحلوى، واطلقت الهناقات

قلت بصوت عالٍ،

— لا بد أنهما يحبّان أحدهما الآخر.

وعمد أحد الرجال الجالس إلى جانبنا، وكان يرتدي رداً قاتماً،
إلى القول، مزبداً،

— بالطبع، يحبّان أحدهما الآخر. هل رأيت أحداً ينزف لسبب
آخر؟

احتفظت بالجواب لنفسی، متذكراً كلمات بتروس بشأن بائع
الفشار. لكن مرشدي لم يدع الملاحظة تمر دون تعليق، فقال:

— عن أي نوع من الحب نتحدث؟ الحب الذي يستجيب للغيرة، أم
الحب المختص بالبشر، أم الحب الإلهي؟

نظر إليه الرجل مرتبكاً. بهض بتروس ملاً كوبه من جديد
واقترح علي أن يقوم بجولة، لتزيل عن أرجلها ما أصابها من حمول.

قال بتروس،

— في اللغة اليونانية، ثلاث كلمات للإشارة إلى الحب: **إيروس**،
و**فيلوس**، و**أغابي**^(١). اليوم تشاهد أمامك تجلياً لـ **إيروس**، ذلك
الشعور بالحب الشهواني المحتدم بين شخصين.

ابتسم العروسان للصور، وتقبلا التهنئات.

أضاف بتروس، وهو يشير إلى العروسين،

— «أجل، يبدو أنهما يحبان أحدهما الآخر. ويعتقدان أن غرسه
حبهما ستواصل نموها.

«قريباً، ويذهبان ليكافحا وحدهما في الحياة، ويبنيا عائلة
ويتشاركا في الفامرة نفسها. في ظل هذا الواقع، يتعاظم **حبهما**،
ويكونان جنيرين به. هو سيتابع مهنته في الجيش، وهي عليها أن
تنقذ الطبخ، وتكون ربة منزل ممتازة، لأنها نشأت منذ **العملولة**
على ذلك. ستكون رفيقته، وسيحبان أولاداً. وإذا خاضا **الجهاد**
الحسن، فلنكي يبنيا شيئاً معاً. عنئذ، ورغم كل **الأفخاخ**، لن
يكتفا أبداً عن أن يكونا سعيدين.

«إلا أن القصة، التي أخبرتك إياها للنو ربما اتخذت مجرى
مختلفاً فقد يتملكه شعور بأنه فقد حبيبته، أو أنه ليس حراً بما
يكفي لكي يظهر كل **الإيروس**، وكل الحب الذي يشعر به،
لنساء أخريات. وقد تعي، هي، أنها صغت بعملها وبحياة مشرقة

(١) يميز بتروس بين ثلاثة أنواع من الحب: **إيروس** Eros أو الحب الشهواني للتعليق
بالفريرة، و**فيلوس** أو الصلقة التي تجمع بين البشر، و**أغابي** Agape أو المحبة
بمعناها للمسيحي الواسع كإعطية إلهية (الترجمة).

لتصير تابعة لزوجها عنئذ، بدل فعل الخلق المشترك، يشعر كل
منهما أنه اغتصبب في طريقته للحب. لن يظهر **إيروس**، أي روح
الحب الذي جمعهما، إلا جانب السني، لهما. ويصبح الحب، الذي قدره
الله للإنسان على أنه لنيل شعور على الإطلاق، مصدراً للحقد والدمار.

نطرت من حولي: كان **إيروس** حاصراً في قلب العديد من
الأرواح. إن تمرير الماء ليقتط لغة قلبي، وبذت أرى الناس بطريفة
مختلفة. لعل السبب عائد إلى أيام الوحدة الطويلة في الريف، أو
لعلها ممارسات «رام». بك استطيع تمهيز **الإيروس** الجيد من
الإيروس السني، تماماً كما وصفه لي بتروس.

أضاف مرشدي، الذي أراد لفت انتباهي إلى الشيء نفسه،

— أنظر ما **أعجب** هذا سواء أكان **إيروس** جيداً أم سيئاً، فهو
يتغير مظهراً مختلفاً، تبعاً لكل إنسان، تماماً كالنجوم التي
حجبت عنها من نصف ساعة. لا أحد يمكنه أن يفلت من قبضة
إيروس، **ممن جميعاً** في حاجة إلى حضوره، حتى لو دفعنا، في
بعض الأحيان، للابتعاد عن العالم، والانكفاء داخل وحشتنا بالذات.

بدأت فرقة الأوركسترا بحزف موسيقى الغالس. اتجه الناس إلى
حلبة إسمنتية أمام النضرة، وأخذوا برقصون. كان الجميع ثملين،
وبدوا سعداء لاحظت وجود فتاة شابة ترتدي فستاناً أزرق، لا بد
أنها انتظرت هذا العرس من أجل رقصة الغالس بالذات، لأنها تريد أن
ترقص برفقة أحد تحلم بأن يعانقها، منذ بلوغها سن المراهقة.
كانت تلاحق بظرفاتها حركات فتى أنيق يرتدي لباساً فاتح اللون.
وكان هو بصحبة أصدقاء له مسترسلين في حديث طويل، وغير
منتبهين إلى أن أمتاراً قليلة تفصلهم عن فتاة ترتدي ثوباً أزرق،
وتنظر إلى أحدهم باهتمام بالغ.

فكرت بالمدن الصغيرة، بالريجات التي تحلم بها الفتيات منذ
نعومة أظفارهن والتي تجمعهن بالفتى المختار.

لاحظت الفتاة ذات الثوب الأزرق أنمي أراقبها، ففادرت الحلبة وبدوره جال الفتى بنظراته بحثاً عنها. وعندما رأى أنها برفقه فتيات أخريات، عاد إلى حديثه الحماسي.

لفت انتباه بتروس إلى الفتى والفتاة. لاحق، لبعض الوقت، لعبة المطرات بهما، ثم ركز انتباهه، من جديد، على السيد الذي يحسنه.

قال، معلقاً:

— ينصرفان وكانهما خجلان من إظهار حبهما.

فبالثبات، وقفت صبية تحلق إليها كانت في منتصف سناً رفع بتروس كأسه ليشرب نخبها، فصحككت، وقد بدا عليها بعض الإبرعاج. أومات بحركة منها أن والديها موجودان هنا، وكانها تعذر لعدم تمككها من الاقتراب أكثر.

قال بتروس:

— هنا هو الجانب الجميل من الحب. الحب الذي يتحذى الحب لشخص غريب أكبر سناً، جاء من البعيد، وغداً يرحلان. الحب لعالم تؤذ هي أيضاً اكتشافه.

لاحظت من صوته أن الخمر قد بدأت تؤثر فيه قليلاً.

وأعلن مرشدي، بنبرة أقوى،

— اليوم، سنتحدث عن الحب الحب الحقيقي الذي يسمو دون توقف، بهز العالم، ويجعل الرجل حكيماً.

كانت هناك امرأة على مقربة منها، متأقفة للغاية، ولا يبدو عليها أنها نولي الحفلة أنى اهتمام. كانت تمتقل من طاولة إلى طاولة، وتجمع الأقنح والصحون والشوك.

قال بتروس:

— أنظر إلى هذه المرأة التي لا تكف عن أعمال التنظيف. إن هناك عدة جوانب يتجلى بالإيروس من خلالها، وها هو أحدها تراه

الآن. إنه الحب الحروم الذي يتحقق من خلال شقاء الآخرين. ستذهب تلك المرأة لتقبيل العريس والعروس، لكنها تهمس، في داخلها، أنهما لم يخلقا أحدهما الآخر. وهي تحاول أن تصنع النظام في العالم، لأنها هي نفسها مشوشة

ثم أشار إلى رجل وزوجته التي بالغت في زينتها، وفي تصفيف شعرها،

— واسطر هناك، إنه الحب المسلم به، الحب الاجتماعي المجرد من أي نفع. رصبت المرأة بدورها، وقطعت كل الصلات بالعالم وبـ «الجهاد الحسن».

— أنت لاذع جداً يا بتروس، هل سينجو أحد هنا من لسائك السليط؟

— أجل، بالتأكيد. الفتاة التي نظرت إليها المراهقون الذين يرقصون ولا يعرفون إلا «الإيروس الجيد». هذا لم يثأر هؤلاء بالخبت الذي هيمس على علاقات الحب في الجيل السابق، فسوف يكون العالم مختلفاً تماماً.

ثم أشار إلى زوجين عجوزين يجلسان أمام إحدى الصاولات،

— هذان أيضاً. لم يستسلما للنخب كما فعل غيرهما. ويبدو من هيئتهما أنهما من الرارعين. أجبرهما الجوع والحاجة على العمل معاً وتعلماً تعاليم «رام» التي تعرفها، دون أن يكون قد سمعا بها، لأنهما عرفا قوة حبهما من عملهما بالذات. هما يكشف الحب عن أجمل وجوهه، لأنه متحد بـ «فيلوس».

— وما هو «فيلوس»؟

— إنه الحب الذي يتخذ شكل الصداقة. وهو ما أشعر به تجاهك وتجاه الآخرين، عندما تنطفيء شعلة «إيروس»، وهو الصداقة التي تبقى الناس متحدثين.

— ومنا عن «أغابي»؟

— ليس اليوم مناسباً للتحدث عن الحب الإلهي. إن أغابي موجود في أيروس وفي فيلوس. لكن هذا مجزء كلام. تعال ننسلى، ورفقه عن أنفسنا في هذا الاحتفال بعيداً عن الحب الملتهم.

وصب بتروس لنفسه الخمر من جديد.

حولاء، كانت الفرحة تنقل عنواها. كان بتروس سكران. وهذا صدمني قليلاً في البداية. لكنني تذكرت ما قاله لي، بعد ظهيرة أحد الأيام، من أن ممارسات «رام» تفقد معناها إذا لم يستطع الناس العاديون تنفيذها. بدأ لي بتروس، هذه الليلة، رجلاً كالآخرين. كان رقيقاً وصديقاً برئت على أكتاف الناس. ويتحدث إلى كل من يوليه اهتماماً. ثم ثمل تماماً، واضطرت إلى إسعافه، لإرجاعه إلى الفندق.

أثناء المسير، انتهت إلى الوضع الذي أنا فيه، كبت أنا لقود مرشدي.

وأدركت أن بتروس، طوال الرحلة التي قمنا بها معاً، لم يبدل أننى جهد ليهبط أكثر تعقلاً مني أو أظهر أو أفضل. اكتفى بقل تجربته التي خاضها مع تعاليم «رام» إلى. كما أصر على أن يظهر لي أنه إنسان ككل الناس، قادر على الشعور بـ «أيروس» و«فيلوس» و«أغابي».

وهذا ما عزز قواي إن طريق «مار» يعقوبه مفتوحة للناس العاديين.

الورع

«لو كنت أتلق بالسهة الناس والملائكة، ولو كانت لي النبوة وكان لي الإيمان كله حتى أنقل الجبال، ولم تكن في المحبة، فليشك بشي».

عاد بتروس يستشهد بمار بولس. ذلك أنه، كان يرى هذا الرسول الوسيط السري الأكبر لرسالة المسيح. كما في فترة بعد الظهور تصطاد السمك بعد أن مشينا كل الصبيحة. لم تعلق أي سمكة في الصنارة، ولكن مرشدي لم يول ذلك اهتماماً. فهو يرى الصيد رمزاً للعلاقة بين الإنسان والعالم. نعرف ماذا نريد، ونبلغه إذا أصررنا. ولكن الوقت الضروري، الذي يلزمنا لبلوغ الهدف، يتعلق بالمعونة التي يقدمها إلينا الله.

قال:

«من الجيد القيام بنشاط بطيء قبل اتخاذ قرار هام في الحياة. فالرهبان ينصتون إلى الصخور، وهي تكبر أما أنا، فأفضل الصيد».

في هذه الساعة وفي هذا الحر، تفقد حتى الأسماك الحمراء الحسلى، التي تسبح قرب سطح الماء، قدرتها على مصغ الطعام. وسواء أكانت الصنارة خارج الماء أم داخله، فالنتيجة واحدة، ففضلت أن أترك الصنارة، وأجول في الصواحي. مشيت حتى وصلت إلى مقبرة قديمة مهجورة، لها باب غير متناسق تماماً. ثم واقفت بتروس، وسألته عن المقبرة.

أجابني:

— إن ذلك الباب بقي من آثار مصافة حجاج قديمة. لكن الصلابة هجرت، فخطر لأحدهم، لاحقاً، أن يستفيد من الواجهة، ويبني المقبرة

— والمقبرة، أيضاً، هجرت.

— أجل. فالأشياء لا تدوم كثيراً في هذه الحياة.

قلت له إنه، البارحة، كان قاسياً جداً عندما أصدر أحكامه على الناس في الاحتفال. ذهش بتروس لكلامي. وقال إن ما تحدثنا به البارحة يتعلق بما عرفناه في حياتنا الشخصية، لا أكثر ولا أقل. كلنا نلاحق «إيروس». وعندما يريد «إيروس» أن يتحول إلى «فيلوس»، تجد أن الحب غير ضروري. لكننا نجهل أن الحب المتعلق بالبشر، أي «فيلوس»، هو الذي يقودنا إلى الشكل الأسمى للحب، أي الحب الإلهي («أغابي»).

قلت له،

— حدثني بالحب الإلهي.

أجابني بتروس إنه لا يستطيع التحدث به، ذلك أنه شعور نعيش. وإذا كان الطرف مناسباً، فسيتطهر لي، اليوم، أحد جوانب الحب الإلهي. ولكن، من أجل هذا، يجب على الكون أن يتصرف كما تصرفنا خلال الصيد، أن تتصافر كل الجهود لتجري الأمور بشكل جيد.

— إن «الرسول» يساعذك. لكن هناك شيئاً يتخطى ميدان «الرسول» والرغبات، ويتخطاك أنت.

— ما هو؟

— الشرارة الإلهية. وهذا ما يدعو الناس للحظ

في طريق «مار يعقوب» كروماً وحقولاً محروثة، مقمرة في هذا الوقت. مرزنا بالطريق الرئيسية التي كانت، هي أيضاً، مقمرة. ثم رجعنا إلى الأجمات. لحث، من بعيد، قمة «سان لورنزو» في مملكة «كاستيليا». إن أشياء كثيرة قد تغيرت في داخلي مد التفتت بتروس قرب «سان جان» بيه دو وبور، فقد غابت «كُنْيا»، عن ذهني، مشاعلي في البراري، أعمالي، ولم يبق سوى الهدف من رحلتي. وكنت أتحدث بشانه كل ليلة مع استرا الذي كان ظهوره يتصيح أكثر فأكثر. توصلت أن أراه، على الدوام، جالساً قربي، ولاحظت أن لديه رعدة في عينه اليمنى، وأنه يبتسم، باحتقار، في كل مرة أرند فيها على مسامعه بعض الأشياء، لأننا كنا له فهمها. قبل ذلك بأسابيع، وفي الأيام الأولى لتحليدنا، خشيت ألا أصل إلى نهاية المطاف. وحين مررنا بمدينة «رونسوفو»، شعرت بسام عميق حيال هذا كنه. رغبت في الوصول سريعاً إلى «سانتاغو»، لاستعيد سيفي، وأرجع، من ثقب، لأخوص ما كان يسقيه بتروس بالجهاد الحسن^(١). أما الآن، فإن الصلات التي تربطني بالحصار، والتي قطعناها مرغماً كانت شبه مسية. وبات كل ما يشغلني الآن هو الشمس الساطعة فوق رأسي والعماس، لتعرف إلى الحب الإلهي.

انحلرنا داخل أخدود، اجترياً جدولاً، وبذلنا جهناً مضيقاً لبلوغ الصفة المواجهة. لا بد أن هذا الجدول كان، في السابق، يحفر التربة بحثاً عن أعماق الأرض وأسرارها. أما الآن، فلم يعد إلا ساقية يمكن عبورها سيراً على الأقدام. لكن أثر النهر، أي الحضرة الهائلة التي شقها، بقيت. «كل شيء» في هذه الحياة يدوم قليلاً، كما قال بتروس منذ بضع ساعات.

— بتروس، هل أحببت كثيراً؟

(١) في الواقع، اكتشفت لاحقاً أن التعبير مأخوذ من مار بولس الذي يقول فيه: «وقد جاهدت الجهاد الحسن، وانتمت ثوبتي وحفظت الإيمان...»

عندما بدأت الشمس بالانحدار، أكملنا طريقنا. كما تصادف

جاءني السؤال عنو الخاطر حتى أنفي، أنا نفسي، فوجئت بجراتي.
قال الآن، لم أكن أعرف إلا القليل عن حياة مرشدي الخاصة.

— عرفت الكثير من النسوة، إذا كان هذا ما ترمي إليه.
أحبتهن جميعاً، لكني لم أشعر بالحب الإلهي إلا مع اثنتين منهن.
أحبرته أني، أنا أيضاً، أحببت كثيراً في حياتي، وأنني بنت
أفلق لعدم قدرتي على الاستقرار مع امرأة واحدة. وإنني، إذا تابعت
على هذا النحو، فسأنتهي عجوزاً وحيداً، وهذا يخيطني.

قال بتروس ضاحكاً،

— استعمل ممزضة، لكني، في النهاية، لا أعتقد أنك تبحث في
الحب عن اعتكاف مريح.

كانت الساعة التاسعة مساءً عندما هبط الليل. تجاوزنا حقول
الكرومة، ووجدنا أنفسنا أمام مشهد شبه صحراوي. نظرت من
حولي، ونحت في البعيد كنيسة منحوتة في الصخر، شبيهة
بكنائس عديدة صانفهاها في طريقنا. تفنمنا قليلاً، مبتعدين عن
النقاط الصفراء، ومتجهين مباشرة إلى البهاء الصغير.

وعندما اقتربنا من الكنيسة، هتف بتروس باسم لم أفهمه،
وتوقف ليسمع الجواب. لكننا لم نسمع شيئاً. نادى بتروس من
جديد، ولم يجب أحد.

قال،

— لنذهب.

لم يكن هناك إلا أربعة جنران مطلية بالكلس. كان الباب
مفتوحاً أو، بالأحرى، لم يكن هناك باب، بل بوابة صغيرة يبلغ
ارتفاعها خمسين سنتيمتراً، وتستند إلى مفصلة واحدة. في الداخل،

كان هناك قرن حجري، وبضع قصعات مضادة بحماية فوق
الأرض. احتوت اثنتان منها على قمح وبطاطا.

جلسنا بصمت. أشعل بتروس سيجارة، واقترح أن ينتظر قليلاً.
شعرت بالتعب يندب في ساقي. لكن شيئاً ما في هذه الكنيسة
كان يثير أعصابي، بدل أن يهتئ روعي. ولولا وجود بتروس،
لأخافني.

سألت لأقطع حبل الصمت الذي شق علي احتمالاً،

— أتأمكن الشخص الذي يعيش هنا، هل لي أن أعرف أين يدم؟

أجاب بتروس وهو يشير إلى الأرض العارية،

— هنا حيث تجلس.

أردت أن أعبر مكاني لكبه طلب مني البقاء حيث أنا. لا بد أن
الحرارة قد انخفضت قليلاً، لأنني شعرت بالبرد.

انتظرتا قرابة الساعة. بعد ذلك، نادى بتروس مرتين أيضاً ذلك
الاسم الغريب، ثم سكنت. وفي اللحظة التي اعتقنت فيها أننا سنهم
بالرحيل، بدأ يثكنهم، وهو يطفئ سيجارته الثالثة.

— «هنا يوجد أحد تجليات الحب الإلهي. وهو ليس التجلي الأوحد،
بل الأنقى. فالحب الإلهي هو الحب الكلّي، الحب الذي يلتهم ذلك
الذي يشعر به. إن من غمره الحب الإلهي يرى أن لا شيء إلا الحب
يرتدي أهمية في هذه الحياة. إنه الحب الذي شعر به يسوع تجاه
البشر، وكان حباً عظيماً جداً، رلزل النجوم، وغر مجرى التاريخ
البشري. وقد استطاعت حياته المتوخدة أن تفعل ما عجز الملوك
والجيوش والإمبراطوريات عن فعله.

«خلال آلاف السنين من تاريخ الحضارة، شغل أناس كثيرون بهد
الحب الذي يلتهم كل شيء. كان لديهم الكثير ليعطوه، فيما
الناس لا يطلبون إلا القليل. فرأوا أنفسهم مجبرين على الالتجاء إلى
الصحاري والأماكن السعرة، لأن الحب كان كبيراً إلى درجة أنه
يقتلهم، وأصبحوا البشاك القديسين الذين نعرفهم اليوم.

«أما أنا وأنت، اللذان يشعران بشكل آخر من الحب الإلهي، فإننا قد نرى الحياة على هذه البسيطة تبدو قاسية مرعبة. ومع ذلك، فإن الحب الذي يلتهم، ينقع بملتمسيه إلى التهاون بكل شيء، كل شيء على الإطلاق. وهؤلاء لا يعيشون إلا ليعنوا في الحب».

أخبرني بتروس أن رجلاً كان يعيش هنا، يدعى ألفونسو، التقاه خلال زيارته الأولى إلى كومبوستيلا، فيما كان يقطف الثمار وكان مرشد، وهو رجل أكثر رؤوية منه، صديقاً لألفونسو وقد مارس الثلاثة طقس الحب الإلهي، المتمثل بتمرير الكرة للرقاء. قال لي بتروس إن هذه التجربة كانت إحدى أهم التجارب في حياته، وأنه حين يمارس هذا التمرين الآن، يفكر في الكنيسة وفي ألفونسو. كان الانفعال واضحاً في صوته، ولأول مرة، لاحظت ذلك.

رند قائلاً،

— الحب الإلهي هو الحب الذي يلتهم. نلفظ بهذه العبارة، وكأنها أفضل تعريف لهذا النوع الغريب من الحب. وأضاف،

«قال مارتن لوثر كينغ، ذات مرة، أن السيد المسيح لمُخ إلى الحب الإلهي، عندما كان يتحدث بمحبة الإنسان لأعدائه. من المستحيل أن نحب أعداءنا، وأولئك الذين يستببون لنا الآن، ويحاولون أن يضاعفوا عنايبنا كل يوم. لكن الحب الإلهي هو أقوى من الحب بكثير، إنه شعور يغمر كل شيء، ويدخل من جميع الموانئ، ويحوّل كل محاولة اعتداء غيباراً

«تعلمت أن تولد من جديد، وأنا تكون قاسياً مع نفسك، وأن نتحدث إلى «رسولك» لكن كل ما فعلته إلى الآن، وكل الفائدة التي استخلصتها من سلوك طريق «مار يعقوب»، لم يكون لهما معنى، إلا إذا لامسك الحب للثمة».

ذكّرت بتروس أنه تحدث عن نوعين من الحب الإلهي. لا يبدو أنه عرف النوع الأول من هذا الحب، لأنه لم يصبح ناسكاً

— كنت على حق. أنا وأنت ومعظم الحجاج، الذين سلكوا طريق «مار يعقوب» مستلهمين كلمات «رام»، اختبروا الحب الإلهي بشكل آخر: الحماس.

«كانت كلمة حماس تعني، لدى الأقدمين، رغبة وانخراط وعلاقة بالله. الحماس هو الحب الإلهي متجهاً إلى فكرة أو موضوع. كنّا اختبرناه، فعندما نحب وبؤمن من أعماق نفوسنا بشيء ما، نشعر أننا أقوى من العالم، وبتملّكنا يقين صادق بأن لا شيء يمكنه أن يهرم إيماننا. إن هذه القوة الغريبة تجعلنا دائماً نتخذ القرارات الجيدة في الوقت المناسب. وعندما يبلغ هذنا، نفاجأ بمقدرتنا، نحن بالذات، لأننا خلال «الجهد الحسن» لا شيء بهتّنا، وبحملنا الحماس على تحقيق هذنا».

«في العادة يتجلى الحماس، بكل قدرته، خلال السنوات الأولى من حياتنا. لكن، آنذاك، لا نزال متصلين بالإلهي اتصالاً قوياً، نرانا بسنداً إلى العابدات فتبعث الحياة في دمانا، ونتمكن الجيود العذبة من السهر عندما قال يسوع إن للأطفال ملكوت السموات، فقد كان يلوح إلى الحب الإلهي متخذاً شكل الحماس. أتى الأطفال إليه. ولم بهتوا بمعجزاته ولا بحكمته، ولا بالفريسيين ولا بالرسول. جاؤوا إليه فرحين يحدوهم الورع».

أخبرت بتروس أنني اليوم، بالضبط، قد أدركت أنني ملتزم طريق «مار يعقوب». فقد كانت هذه الأيام والليالي، التي قصبتها على أراضي إسبانيا تنسهي سبهي، وتحوّلت إلى تجربة فريدة وفقدت كل ما عناه أهمية في نظري.

قال بتروس،

— هذا اليوم، ذهبنا لنصطاد، لكن السمك لم يعلق في الصنارة. ونحن، عادةً، نتقبل أن يغوتنا الحماس في ظروف نافهة، لا تجزّ تبعات لها، قياساً على عظمة الوجود. وبفقد الحماس بسبب هزائمنا الصغيرة والضرورية خلال «الجهد الحسن». وبما أننا نجهل أن الحماس

قوة عليا متجهة إلى الظفر البهائي، فإسما ندعه يعلت من بين أصابعنا، دون أن نلاحظ أن المعنى الحقيقي لحياتنا يتملص منا، هو أيضاً، فنعمد إلى اتهام العالم بسامنا وهزيمتنا، ونسبى أننا نحن الذين أضعنا هذه القوة الأسرة التي تبرز كل شيء، تجلي الحب الإلهي منحناً شكل الحب.

تذكرت الفبرة التي رأيتها قرب الجدول. إن هذه البوابة الغربية، الكبيرة كبراً غير عادي، كانت تجسيدا كاملاً لفنان المعنى. فورا هذا الباب، لا شيء إلا الموتى.

أضاف بتروس، وقد قرأ أفكاره،

«أنا على يقين أنك، منذ بضعة أيام، فوجئت بي، عندما رأيتني لقد أعصابي في وجه الخادم السكين الذي صب قليلاً من القهوة على بيطالي النسخ أصلاً من غبار الطريق. في الواقع، كان مرء غصبي إلى أنني رأيت الحماس يندح من عيني هذا الغلام، كما يجري الدم من معصم قطعت شرايينه. رأيت هذا الغلام للضم بالنشاط والحيوية يموت شيئاً فشيئاً، لأن القلب من الحب الداخلي ينطفئ في داخله، ينطفئ مع مرور كل لحظة لقد تعلمت أن أعيش هذه الأشياء. لكن هذا الغلام، بهيئته، وبكل الخير الذي شعرت أنه قادر على تقديمه للبشرية، صدمني وأحزني. كنت واثقاً أن عنائتي جرحت عبقوانه، وكبحت، لوقت قليل، موت الحب الإلهي داخله.

«كذلك عندما حوّل الروح في كتاب تلك المرأة، أحسنت الحب الإلهي في شكله الأنقى. كانت يادرك نبيلة وشعزت بالسعادة لكوني هنا معك، ولأنني مرشك. وبالنظر إلى هذا الأمر، سشارك معك للمرة الأولى، في هذا التمرين.

وعلمني بتروس طقس الحب الإلهي، تمرين الكرة الزرقاء.

طقس الكرة الزرقاء

اجلس بارتياح، واسترخ، وحاول ألا تفكر بشيء.

واستشعر جمال في حبك للحياة. دع قلبك حرّاً، صديقاً، فوق كل شيء، وانهد من الأمور الخمسة. أفسد بصوت منخفض أغنية تعلمتها في الطفولة. تخيل قلبك يكسر ويملا غرفتك ثم يهتك بنور لوزج حاد يرق.

عندما تصل إلى هذه النقطة، استدع الحضور الوذي للقدسيين الذين آمنك بهم وانت طفل. نأ بلانهم هنا، ولهم يهتدون من كل جانب، ميتسمين، يحملون لك الإيمان وفنقة بالحياء تمثل القدسيين وهم يقتربون، واضمين لبيهم فوق رأسك، متمنين لك الحب والسلام والائتاد بالعالم اتحاد القدسيين.

عندما يقوى قلبك هذا الانطباع، تخيل الدور الزرق تباراً يدخلك ويخرج منك مثل ساقية لامعة نازقة. ثم ينتشر في مبرك وهي حبك ومدينتك وبلانك وبهمر فعالم أجمع، داخل كرة زرقاء هائلة. هذا هو تجلي الحب الأعظم الذي يتخطى المعارك اليومية، لكنه يقوى عرهمك ويمنحك النشاط والطاقة والسلام.

استغفك لطول وقت ممكن، بهذا الدور الذي يفر العالم. قلبك مفتوح ينشر الحب إن هذه الرحلة من التمرين يجب أن تدوم خمس دقائق على الأقل.

وشيناً فشيئاً، أخرج من الرعدة، وزجج إلى الواقع. سيهني القدسيون إلى جانبك وسيكون الدور الزرق حاضراً على الدوام. وينبغي أن تقوم بهذا الطقس مع عدة أشخاص. وفي هذه الحالة ينبغي للمشاركين أن تتشاك لبيهم.

قال بتروس،

— سأساعدك على إيقاف الورع وحلق القوة التي تنمذ مثل كرة زرقاء حول الكوكب، اعترافاً مني بأنني أحترم سعيك واحترم ما أنت عليه.

حتى الآن، لم يبد بتروس قط أي رأي، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، بطريقة في تعيد التمارين. صحيح أنه ساعدني في تفسير أول اتصال لي «بالرسول»، وجعلني أخرج من الرعدة في تمرين البكرة، لكنه لم يبد أي اهتمام بالنتائج التي توضحلت إليها. سألته، أكثر من مرة، لما لا يريد معرفة انطباعاتي ومشاعري. وكان في كل مرة، يجيبني أن واجبه الوحيد، كمرشد، هو أن يُلني على الطريق، ويلفني ممارسات «رام» أما جني الفائدة من هذه التمارين، أو عدم الاكتراث لها، فيعود إلي وحدي.

عندما أعلن بتروس أنه سيشاركني في التمرين، شعرت فجأة أنني غير جدير بمنجحه، فهو يعرف مواطن ضعفي، وقد خامره الشك مرات عدة في قدرته على مرافقتي في التدريب. أردت أن أقول له ذلك، لكنه قاطعني، قبل أن أنبس بكلمة، وقال

— لا تحزن فاسياً مع نفسك، وإلا فانت لم تتعلم الدرس الذي لقيتك إياه، عليك أن تقبل منجهاً تستحقه.

انحروفت عينا بالدموع. أخذ بتروس بيدي وخرجنا. كان الليل قائماً بشكل غير مألوف. جلست قربه، وبدلاً مني، كانت الموسيقى تدبعت مني، وكان بتروس يرافقني دون جهد. ثم رحلت أطرق الأرض بيدي طرقة خفيفة، فيما جسدي يتمايل من الأمام إلى الوراء. تصاعفت حدة الطرقات، وبهمرت الموسيقى بطلاقة مني، لتشكّل شيئاً بمجد السماء العاتمة، والسهل الصحراوي، والصحور التي لا حياة فيها. بعد قليل، رأيث القديسين الذين أميت بهم عندما

كنت طفلاً، والذين أبعثتهم الحياة عني، أنني أنا نفسي، قننت جزءاً كبيراً من الحب الإلهي في. لكن، الآن، رجع الحب الملتهم دفافاً، وابتسمت وجوه القديسين كما كنت أراهم في صغري.

فتحت ذراعي حتى يسيل الحب الإلهي. واحترقني شعاع غامض من النور اللامع الأزرق، وخرج مني مطهراً روحي من آثامها، ثم بدأ العالم بأسره وبكيت، بكيت أنني كنت أعيش الحماس من جديد. كنت طفلاً أمام الحياة، ولا شيء في هذه اللحظة يمكنه أن يسبب لي أقل ألم. شعرت بحضور يفترب مني ويجلس إلى يميني. حلت له «رسولي»، وأنه وحده يستطيع تمهيد هذا النور للنهر الذي يخرقني ويخرج مني، لينتشر عبر العالم.

تضاعفت حدة النور، وشعرت أنه يلهم العالم أجمع، مخترباً جميع الأبواب وكل الألفة، ويغم الكائنات الحية بأكملها في ومضة عين.

شعرت أن أحداً يمسك بيدي الفتوحتين البسوطتين نحو السماء. في هذه اللحظة، أصبح شعاع النور الأزرق أقوى، حتى خلثه سيختفي، لكنني نجحت في الاحتفاظ به بصع دقائق أيضاً، حتى نهاية أغيبني.

عندئذ استرخيت مرهفاً، لكن حراً وسعيداً بالحياة التي عشتها. ابتعدت البلدان اللتان كانتا تمسكان بيدي. وعرفت أن إحداها كانت يد بتروس، وأبركت بحلبي صاحب اليد الأخرى.

فتحت عيني من جديد فإذا بي أرى إلى جانبي الراهب الفونسو الذي لم يتسم وقال: مساء الخير. ابتسمت أيضاً، وأمسكت من جديد بيده، وضممتها بشدة إلى صدري. لم يتركني أفعل، وسحبها برفقة.

لم يتفوه أي منّا، نحن الثلاثة، بكلمة. ثم نهض الفونسو، وبطلق إلى السهل الأعز. شيعته بطراني إلى أن اخفى في الظلمة

بعد قليل، قطع بتروس حبل الصمت، لكنه لم يتحدث بشيء
عن ألفونسو،

— قم بهذا التمرين، كلُّما فكرت على ذلك، فيسكن الحب
الإلهي قلبك من جديد. مارشه قبل المباشرة بعمل، أو في أول أيام
السفر، أو حين تشعر أن شيئاً ما قد أثار انفعالك كثيراً. مارشه إن
أمكن، مع شخص تحبه، لأن هذا التمرين يجب تقاسمه مع
الآخرين.

عاد بتروس مجدداً إلى صورته القديمة، التقني والعلم والمرشد
الذي أعرف عنه أشياء قليلة. اختفى الانفعال الذي أظهره داخل
الكوخ ومع ذلك، فإنني شعرت بحُكم نفسه، حين ضغط على
بدي خلال التمرين.

رجعنا إلى الكنيسة البيضاء، حيث تركنا أمتعتنا.

قال بتروس، وهو يتمدد أرضاً،

— إن ساكن هذه الكنيسة لن يرجع اليوم. أعنفد لنا سنطبع
النوم هنا.

بسطت كيس النوم. شربت جرعة من الخمر، واضطجعت أرضاً.
كنت مرهقاً من الحب اللتهم لإرهاقاً لذيذاً. وقبل أن أغمص عيني،
تذكرت الراهب الفحيل اللثحي الذي تمسّ لي مساءً سعيداً. في
مكان ما في الخارج، يفتى هذا الرجل في شعلة الحب الإلهي. لعل
هذا المساء كان قائماً، لأن نور العالم كله تجمّع في ألفونسو.

الموت

سألت الراهبة العجوز التي قنمت إلينا طعام الإفطار،

— هل أنتما من الحجاج؟

كنا في «نوفرا»، وهي قرية بيوتها صغيرة، نزيّن واجهاتها
تروس من القرون الوسطى. كانت هذه البيوت متعلّقة حول سبيل
ماء، ملأنا منه قربنا قبل قليل.

أجبت العجوز بأننا كذلك، وقرانا في عيني الراهبة الاحترام
والوقار.

قالت الراهبة،

— عندما كنت صغيرة، كنت أحيّ إلى «كومبوستيان» مرة
في السنة على الأقل. بعد الحرب وبعد فرانكو، لا أعرف ما جرى.
ولكن يبدو أن الحج قد توقف. يجب القيام برحلة إلى هناك، سيراً
على الأقدام. هالناس، في هذه الأيام، لا يحبّون التنقل إلا في
السيارة.

بقي بتروس صامتاً. كان قد استيقظ بمزاج سيئ. كنت
متفهماً مع الراهبة، وتخيلت طريقاً جديدة إسفلتية تخترق الجبال
والأودية، وسيارات زسمت فوق أعطينها أصداق، ودكاكين،
وتدكاكات عند أبواب الأنهر.

تناولت للتو قهوتي المزوجة بالحليب، والخبر للفطس بريث
الزيتون. استشرت دليل إيميري بيكو بعد الطهيرة وتوقّعت بلوغنا
سانتو دومينغو دولا كالناد، وخطّطت لننام في الفندق

السياحي^(١) كنت قد أنصقت من المال أقل بكثير مما توقعت، بالرغم من الوجبات الثلاث التي كنا نساوئها يومياً. كان الوقت ملائماً للتبكير، وفزرت أن أولي جسدي العناية نفسها التي أوليتها لعيني.

استيقظت يحدوني شعور غريب بالوصول سريعاً إلى «سانتو دومينغو». وهذا شعور لم يخامرني حين كنا نسير قبل يومين باتجاه الكنيسة المعلقة في الصخر. كان بتروس أكثر كابة وأكثر صمتاً من العادة. فسألته عما إذا كان السبب عائداً إلى لغائه الفونسو. وشعرت برغبة قوية في استدعاء أستران. لكن لم يسبق لي أن استدعيتها في الصباح، وخفت ألا تتحقق تلك الرغبة، فتخلّيت عن الفكرة.

انتهينا من إقطارنا، وأكملنا مسيرتنا، تجاوزنا بيتاً مزداناً بشعار سب، وخرائب ليرل حجاج قديم، وحديقة تقع في ضواحي القرية. وفيما كنت أتوغل من جديد في الحقول، شعرت بحضور قوي إلى يساري. استوقفني بتروس، وقال:

— الركض لا يجدي نفعاً، فف وواجه.

فكرت بالانحصال عن مرشدي، واستئناف السير وحدي. أحسست بالهم وتشنج في المعدة، للوهلة الأولى، ظننت أن الأمر ناجم عن الخبر الغفص بالريم، لكن هذا الألم عرفته من قبل، ولا أستطيع خداع نفسي، إنه توتر، توتر وخوف.

قال بتروس، ببرة ملحة:

— انظر خلفك، انظر قبل أن يغوت الألوان!

استندت بعطف. كان إلى يساري بيت صغير مهجور تكسوه النباتات التي أبيضتها الشمس، وبستان رينون يسطح نحو السماء.

(١) في الإسبانية، «برادور ناسيونال». والفنادق السياحية قصور قديمة، أو قصبات تاريخية حولتها الحكومة الإسبانية فنادق من الدرجة الأولى.

أغصانه اللتوية وبين بستان الريفون والبيت، كلب يحنق إلي، الكلب نفسه الذي طرفته من منزل المرأة قبل أيام معدودة.

سيت حضور بتروس، وبظرت بلا وازع إلى عيني الكلب. شيء ما في داخلي، ربما كان صوت أستران أو ملاكي الحارس، كان يقول لي إنه سيهاجمني إن أشحت نظري قليلاً. بقيت على هذه الحال دقائق لامتناهية فانا، بعد أن عرفت عظمة الحب اللتهم، أراي من جديد أواجه الأخطار اليومية والنائمة للوجود. تساءلت: لم ينبغي الحيوان ككل هذه المسافة؟ وماذا يريد، في النهاية، من حاج يبحث عن سيفه، ولا يملك الرغبة ولا الصبر لمواجهة المشاكل التي تعترض سبيله، سواء أكان الأمر متعلقاً بالنفس أم بالحيوانات؟ حاولت أن أفهم ذلك عبر نظراتي، متذكراً الرهبان الذين يتواصلون من خلال النظر، لكن الكلب لم يتحرك. ظل يحنق إلي دون أن يبدي مفعلاً، وهو يتأهب لهاجمتي، متى استدرت، أو أظهرت شيئاً من الخوف.

أدركت فجأة أن الخوف قد اختفى. كانت معيني متشنجة، وشعرت برغبة في التقيؤ، بسبب التوتر، لكنني لم أخف، فقط، كان عليّ ألا أشيح بماطري، حتى عندما لحت طبعاً بقرب عبر الطريق الصغيرة إلى يميني.

توقف الطيف بصع لحظات، ثم توجه مباشرة نحونا واجه تماماً مجال نظراتنا، وتغوّه بكلمات لم أفهمها. كان الصوت سائها، وكان الحضور الذي ينبعث منه قوياً وذاً إيجابياً.

في اللحظة التي منصب فيها طيف المرأة بين عيني وعيني الكلب، استرخت معيني، لديّ الآن صديقة تساعني في هذا الصراع العيني العقيم. عندما احتفى الطيف، أحفص الكلب عيني وبوئية، ففر وراء البيت المهجور، وغاب عن ناظري.

عند هذه اللحظة فقط، أحد الخوف يضرب قلبي بشدة، لدرجة أنني شعرت بالدوار، وأحسستني على شعير الإغماء. وفيما كان

كل شيء يدور من حولي، تحزيت الطريق، حيث مررتنا لنا
وبتروس قبل دقائق قليلة، بحثاً عن الطيف الذي أعطاني القوة
لأهزم الكلب.

كانت راهبة، تدبر لنا ظهرها، وتمشي باتجاه متوفر، لم أستطع
تمييز وجهها، لكنني تذكرت صوتها، وفكرت عمرها بالعشرين
على الأكثر. نظرت إلى الطريق التي وصلت منها، وكانت درجاً
صغيرة لا تؤدي إلى أي مكان، فتمتمت وشعوري بالنوار يتزايد،
«إنها هي... هي التي ساعدتني».

قال بتروس، ممسكاً بذراعي،

— لا ترد بزوت جليدة على عالم حافل بكل الغريب، فالراهبة
لنت من دير في «كانياس» الذي يبعد خمسة كيلومترات من هنا،
ومن البديهي أنك لا تستطيع رؤيته.

استمز قلبي في خفقانه كمحبون، كنت مقتنعاً أن وضعي
سيكون شيئاً. سيطر عليّ الذعر فمضيت أن أتكلم وأطلب
شرحاً. جلست أرضاً، وبأل بتروس رأسي ورقتي بالأاء، تذكرت أنه
فعل هذا عند خروجنا من منزل الراهبة. لكنني في ذلك النهار
بهكت وشعرت بأنني في حالة جيدة. أما الآن فشعوري معاكس
تماماً.

تركتني بتروس أرتاح لوقت طويل، أنعشتني الماء، واختفى الغثبان
شيئاً فشيئاً. ثم اقترح بتروس أن نعاود السير، فوافق. مشينا
حوالي ربع ساعة، لكن الإرهاق عاونني. جلسنا عند أسفل عمود
يلدعي «روليوي»، وهو عمود قروسطي يعاود صليب، ويشير إلى بعض
الحطات في طريق مار يعقوب.

قال بتروس، فيما كنت أرتاح:

— خوفك أساء إليك أكثر من الكلب.

لذت أن أعرف سبب هذه المواجهة العنيفة.
قال بتروس،

— إن بعض الأحداث في الحياة وعلى الطريق إلى مار يعقوب،
تقع بمعزل عن لراقتنا، فخلال لقائنا الأول، قلت لك إنني قرأت في
نظرات الفجري اسم الشيطان الذي عليك مواجهته. وفوجئت، لدى
معرفة أن هذا الشيطان كلب، لكنني لم أقل شيئاً حينذاك.
وعندما دخلنا إلى بيت الراهبة، وأحسست للمرة الأولى بالحب الملتهم،
عندئذ فقط، رأيت عنوك.

ولما لمعت الكلب عن هذه السيدة، لم تجد له مكاناً. وإن تعلم
أن لا شيء بضيع، إن كل شيء يتحول اليك كذلك؟ لم تفعل
كما فعل المسيح، حين أدخل الشياطين في قطع من الخنازير، فإذا
بالقطيع يتشرد من الجراف إلى البحيرة ويختلق. وكل ما فعلته أنت
هو أنك لمعت الكلب، والآن تهيم هذه القوة خلفك دون هدف.
والبل المتيور على سيفك عليك أن تفكر إذا كنت ترغب في أن
تكون سيد هذه القوة، أو عبداً.

تصاعل شعوري بالتعب. نفضت يدي عمق، متحسناً حجر العمود
البارد الذي لمست إليه ظهري. قدّم إليّ بتروس القليل من الماء
وأضاف،

— إن الهواجس تبدأ بالظهور، حين يفقد الناس تحكمهم بقوى
الأرض. قلعة الفجري نقلت الخوف إلى هذه الراهبة، ففتح ثغرة، دخل
منها رسول اللئيم، ليست هذه حالة عادية، لكنها ليست بادرة أيضاً
هذا يتعلق، إلى حد بعيد، بالطريقة التي تتصرف بها حيال تهديدات
الآخرين.

هذه المرة، كنت لنا من تذكر مقطعاً من الكتاب المقدس، وهو
موجود في سفر أيوب: «ما كنت أخشاه قد غشيتي وما فرغت منه
قد رهقني».

قال بتروس،

— إن التهديد لا يمكن أن يفعل بنا شيئاً، إذا لم تكن قد قبلناه. حين نخوض «الجهاد الحسن»، لا تمس هذا أبداً كما نفترض بك ألا تمس أن الهجوم أو الهروب يشكّلان جزءاً من الصراع، بخلاف الخوف الذي يشلّ العزيمة.

لم أخف في الحال. فقد فوجئت، أنا نفسي، بذلك. وتباحثت بالموضوع مع بتروس.

أجاب،

— أعرف ذلك، وإلا لهاجمك الكلب، وربح العركة بالتأكيد، لأنه لم يكن خائفاً. أما الأمر الأطراف، فهو وصول الراهبة. عندما نرى لك حضور إيجابي، أنباءك خيالك الخصب أن أحداً ما جاء لنجبتك. وهذه الثقة بقلبك، حتى وإن كانت غير مستعدة إلى واقع مقبول.

لأنه «الشيء» أعلن بتروس قائلاً،

— إن ثمة أمراً عليك معرفته، هو أن الباررة مع الكلب لا يمكن أن تنتهي إلا بانتصار أحدهما. هي المزة القبلية، حين يظهر من جديد، حاول أن تصنع حدثاً للصراع، وألا تستمر شبحه بقض مضجعتك، حتى آخر أيامك.

بعد لقاء الفجري، أوحى إلي بتروس أنه يعرف اسم هذا الشيطان. سألته من يكون.

أجابني،

— هم جوفة، لأنهم شياطين أكثر

كنا نمشي على أقدامنا بملابسنا الزاهية نلثم البذر هنا وهناك فلاحون ينفلون خرايات ماء بلثية، ليواصلوا حريقهم الأبليّة صد

قحط الأرض. وعلى جوانب طريق مار يعقوب، حجارة مكشّسة تؤلف جدراناً لا تنتهي، تتصالب وتتماهى مع مناظر الريف. فعلى الرغم من أن هذه الأراضي قد خرّشت لقرون خلت، فإن ثمة حجارة تنبثق على الدوام، ويبغي، انتزاعها، حجارة تكسر تصل المحراث، وتشوّه الحصان، وتقزح يد الفلاح. إنه صراع يعاود كل سنة، ولا ينتهي أبداً.

كان بتروس أكثر هدوءاً من العادة. وتذكّرت أنه، منذ الصباح، لم يقل شيئاً. بعد الحوار قرب العمود القروسطي، أثر الصمت، ولم نجب إلا لثاماً عن أسئلتي. أردت أن أعرف أكثر عن قصة «جوفة الشياطين» هذه، لكنه لم يظهر استعداداً لمقابلة الموضوع. وقررت انتظار مناسبة أكثر ملائمة

تسلّقنا ربوة صغيرة. ومن على لمحت قبّة الجرس الرئيسية لكنيسة «سانتو دومينغو دولا كالتانا» شجعتني تلك الرؤية، ورحلت أحلم بالراحة والسحر في الفندق السياحي (بارادور ناسيونال). وتفيد قرائتي أن هذا المبنى قد شيّده القديس دومينيك شخصياً لاستقبال الحجاج. كما أن مار فرسيسيس الأسير قصي فيه ليلته عندما كان يحجّ إلى «كومبوستيلا»، وكل هذا أثار اهتمامي.

كانت الساعة السابعة مساءً، عندما فزّر بتروس أن يتوقف. تنحّرت «روبسوفو»، والشيء البطيء الذي أمرني به بتروس، تماماً في اللحظة التي كنت أشعر فيها ببرد فارس، وبحاجة ملحة إلى كأس من البيرة. حفت ألا يقوم، الآن، باقتراح مماثل. لكنه قال،

— لن يساعدك أبداً «رسول» في هزم «رسول» آخر. فـ «الزسل» ليسوا خيّرين ولا أشراراً. سبق لي أن قلّنت كل ذلك. وأصيب أنهم مرتبطون بعضهم ببعض، تربطهم مشاعر أمانة. لا تعتمد على أسرارنا إذا أردت أن نهرم الكلب.

هذه المرة، أنا الذي لم يكن مستعداً للتحذير عن الشياطين.
كنت أريد الوصول بسرعة إلى «سانتو دومينغو».

إن «رسل الموتى» يمكنهم أن يسكنوا جسداً يهيمن عليه الخوف.
لذا هم أكثر في حالة الكلب، اجتذبتهم خوف المرأة ليس وحده
«رسول الفجري القتل»، بل «الرسل» المختلفون الذين يهيمنون مفتشين
عن وسيلة للاتصال بقوة «الأرض».

الآن، فقط، اجاب عن سؤال. لكن شيئاً ما، في الطريقة التي
تكلّم بها، بدا لي مفتعلاً، كما لو أنه يتحدث عن الموضوع الحقيقي
الذي يؤذ مفاصله معي. وأعلمتني غريزتي، بذلك فوراً.

سألتها، وفي لهجتي شيء من الغضب:

— ماذا تريد يا بتروس بالضبط؟

لم يجبني مرشدي. خرج عن الطريق، واتجه إلى شجرة قديمة
شبه عارية في أحد الحقول، تبعد عشرات الأمتار، وهي الشجرة
الوحيدة المنتصبة عند الأفق. وبما أن بتروس لم يدعني إلى اللحاق
به، فقد بقيت مسدداً في مكاني، ورأيت مشهداً غريباً. كان
بتروس يدور حول الشجرة ويتكلم بصوت عالٍ وعينه مطرفتان.
ثم أشار إليّ أخيراً بالاقتراب:

— اجلس هنا.

حمل صوته نبرة جديدة. ولم أستطع أن أعرف إذ كانت هذه
النبرة تعبر عن الحنان، أم عن الحسرة.

— ستبقى هنا. ألقاك غداً في «سانتو دومينغو» دولا كالنار.

وقبل أن أتمكن من التفوه بكلمة، تابع بتروس:

— سيأتي يوم، وضمن لك أنك لن، تواجه، يوماً، عدوك اللئيم أي
الكلب على طريق مار يعقوب. وعندما يأتي هذا اليوم، كن
مطمئناً، لأنني سأكون قريبك، وأمنك بالقوة اللارمة للصراع. لكن

اليوم ستواجه نوعاً آخر من الأعداء، عدواً وهمياً يمكنه أن يدفرك،
كما يمكنه أن يكون صديقك الفضل، وهو الموت.

إن «الإنسان» هو الكائن الوحيد في الطبيعة الذي يعي موته
للقبل. ولهذا السبب، لهذا السبب فقط، أكن احتراماً للجنس
البشري، وأتصور أن مستقبله سيكون أفضل من حاضره. حتى
عندما يعرف الإنسان أن أيامه معدودة، وأن كل شيء سينتهي في
الوقت الذي يتوقع فيه النهاية، فهو يجعل من الحياة صراعاً جديراً
بمكانه البشري. وما يدعوه الناس باطلاً، كترك الآثار بعد الموت، أو
إنجاب الأولاد، أو العمل على تخليد الذكرى، أرى فيه التعبير الأسمى
عن الكرامة الإنسانية.

إن الإنسان، وهو مخلوق هش، يحاول دوماً أن يتسنى على اليقين
الأسمي لونه. ذلك أنه لا يعرف أن الموت هو الذي يدفعه لتحقيق
أفضل الأشياء في حياته. تراه يخاف العبور في الظلمة، ويرعبه
الجهول إلى أقصى حد. وتتمثل الوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا
الخوف بأن ينسى أن أيامه معدودة. هو لا يعرف أنه لو وعي الموت،
لصار أكثر على مواجهته بجرأة أكبر، فبمضي قدماً في استنصاراته
اليومية، لأن ليس لديه ما يخسره منذ اللحظة التي يصبح فيها الموت
أمراً محتوماً.

بليت لي فكرة قصاء الليل في «سانتو دومينغو» ذكرى بعيدة.
تابعت باهتمام متردد أقوال بتروس. وعلى الأفق المقابل لنا، بليت
الشمس بالغروب. لعلها سمعت أيضاً هذه الكلمات.

«الموت هو رفيقنا الأكبر، لأنه هو الذي يجعل لحياتنا معنى.
ولكن، لكي نتأمل الوجه الحقيقي لموتنا، علينا أن نتذكر، أولاً،
كل الرغبات والأهوال التي يستطيع اسمها إيقاظها فينا، وفي أي
كائن حي».

جلس بتروس تحت الشجرة، ودعاني لأفعل مثله. قال لي إنه نار

حول جذع الشجرة منذ قليل، لأنه تذكر ما حدث عندما كان
حاجباً في طريقه إلى «مار يعقوب». ثم أخرج من حقيبته شطيرتين
كان قد اشتراهما وقت الغداء.

قال، وهو يقدمهما إليّ:

— إن المكان الذي تجلس فيه لا يشكل أي خطر. ليس هناك
أفاعٍ سامة، ولن يرجع الكلب لهاجمتك، إلا عندما يسي فشله هنا
الصباح. وليس في الجوار صعاليك ولا مجرمون. أنت، إذن، في
مكان آمن بشكل مطلق، إلا من خطر واحد، خوفك.

قال لي أنني خبرت، منذ يومين، شعوراً حاداً وعنيفاً، وهو الحب
الملتهم، ولم أتردد في أي لحظة، ولم أخف، لأنني لم أكن أملك
أحكاماً مسبقة عن الحب الكوي. أما الموت، فلدينا جميعاً، بشأنه،
أحكام مسبقة، ولا نعرف أنه تجلٍ آخر للحب الإلهي، ليس إلا.
أجبت بتروس أنني، بعد كل هذه السنوات من الاكتساب والتعلم
قد انتصرت على الخوف من الموت عملياً. في الواقع، كنت أخاف
الطريقة التي سأموت بها، أكثر من خوفي الموت نفسه.

— فم، إذن، هذا المساء بالتجربة الأكثر رعباً للموت.

وعلمني بتروس تمرين «الدهون حياً».

ثم قال لي بتروس، فيما كنت أتذكر تمريناً مسرحياً مشابهاً،

— يجب ألا تمارسه إلا مرة واحدة. يجب أن توفظ كل الحقيقة
داخلك، كل الخوف الضروري لكي يتيح لك التمرين الانبثاق من
أعماق نفسك، فيمزق قناع الرعب الذي يغطي الوجه المحب للموت.

نهض بتروس، ورأيت طيفه منتصباً وسط السماء التي اصططبت
بالوان الشمس الغاربة. وبما أنني بقيت جالساً، فقد بدت قامة
عملاقة تبعث على الرهبة.

تمرين «المدفون حياً»

اجلس على الأرض واسترخ. اشبك يديك فوق صدرك، واستلق في وضعية
للتهت.

تحلل كل تفاصيل ذلك وكأنه سيحدث غداً. بيد أن الفرق الوحيد هو
أنك مدفون حياً. وبمقدور ما تتولى الأحداث الكنيسة، السيرة حتى القبر،
إبرال النعش في العمرة، ينبغي لك أن تشد كل عضلاتك في جهد أخير
بأنس، لتتحرك، ولكن لا تتحرك. لا تتحرك حتى اللحظة التي تغدق فيها
قدرتك على الاحتمال وبحركة واحدة، تطف بـكل جسمك ألواح النعش.
تنفّس بعمق، وكن حراً. ويتصاعف تأثير هذه الحركة، إذا رافقتها صرخة،
صرخة نابذة من أعماق جسدك.

— بتروس، لدي سؤال آخر.

— ما هو؟

— هذا الصباح، كنت صامتاً وغريباً، وكأنك حدثت قبلي
مجيء الكلب. كيف كان ذلك ممكناً؟

— عندما اخترنا معاً الحب اللئيم، تشاركنا في المطلق، فالطلق
يظهر كل الناس على حقيقتهم، بوصفهم شبكة هائلة من
الأسباب والمتائج. ويدنو لكل حركة، يقوم بها أحدها، انعكاسها
في حياة الآخر. هذا الصباح، كان ذلك الجزء من المطلق حياً متوقفاً
في داخلي، فلمكنت من فهمك ليس بمفردك، بل فهمت كل ما
هو موجود في العالم. دون أن يحده زمان أو مكان. لقد تصائل
التأثير. ولن يرجع إلا في المرة المقبلة، حين أقوم بتمرير الحب
اللئيم.

تذكرت المراح السنيء لبتروس هذا الصباح. فإذا كان يقول
الحقيقة، فالعالم، إذن، في صدد اجتياز مرحلة صعبة جداً.

قال، وهو يبتعد،

— سالتك في الضيق. سأسجل اسمك في مكتب الاستقبال.

نبعته ببطراني إلى أن اختفى. إلى يساري في الحقول، كان
العمال قد أنهوا أعمالهم، ورجعوا إلى بيوتهم. فزرت القيام بالتمرير،
عند هبوط الليل.

كنت هائلاً. كانت هذه هي المرة الأولى التي أبقي فيها وحدي،
منذ أن شرعت في الرحلة الغريبة لطريق مار بمقوب. نهضت
وقمت ببعض الحطوات في الجوار، لكن الليل هبط سريعاً، فرجعت
إلى حيث الشجرة، مخافة أن أضيع. وقيل أن يصبح الليل دامساً،
دُونْتُ في دهلي السافة التي تفصل الشجرة عن الطريق. وبالمطر

إلى عدم وجود ضوء يزعمجي، فقد شعرتني قادراً تماماً على رؤية
الدرب والوصول إلى «سانتو دومينغو»، بفصل البريق الوحيد للهلال
الصغير الذي ظهر في السماء.

حتى الآن، لم أشعر بالخوف. قلت في نفسي إنني في حاجة إلى
الكثير من الخيال لأوفظ في داخلي كل المخاوف التي تحملها ميتة
قطيعة. لكن قلماً بهم عند السوات التي بلغناها. عندما يهبط
الليل، يرجع مع كل المخاوف المختبئة في حنايا أنفسنا منذ
الطفولة. وكلما اسودَّ الليل، أشعر بالاستياء.

كنت هنا وحيداً وسط الريف. حتى وإن صرخت، فلن يسمعني
أحد. تذكرت الهجوم الذي تهدي هذا الصباح، فشعرت بخوف
عظيم، لم أشهد له مثلاً في حياتي.

ماذا لو مثلاً عني؟ ينتهي كل شيء. إلا أنني، لئاء مسيرتي
تبعاً لنهج الميراث، تحدثت إلى أرواح عديدة، وكان لدي البقية
الكامل بأن هناك حياة بعد الموت. لكنني لم أتساءل كيف سيتم
هذا الانتقال لا بد أن الانتقال من بعد إلى آخر مخيف، مهما يكن
مستعجلاً. لو مثلاً هذا الصباح، مثلاً، لفقدت طريق مار بمقوب،
وسوات دراستي، وحسرات عائلتي، والآن لاحقاً في حرامي، كل
معنى. تذكرت ميتة وضعتها على مكتبي في البرازيل. الميتة لا
تزال موجودة، وكذلك الباص، وبائع الحصر القابع على المناصية
والذي يبيع بضاعته بسعر أغلى من الجميع، وعاملة الهاتف التي
تعطيني سراً الأرقام على لائحة حمراء. كل هذه الأشياء الصغيرة
التي بإمكانها الاختفاء، فيما لو حدث لي مثلاً مفاجيء، هي التي
تؤكد لي أنني لا أزال على قيد الحياة، لا لنجوم ولا الحكمة ..

كان الليل مظلماً تماماً. وعند الأفق، استطعت أن أميز الأصوات
الخافتة للمدينة. تمتعت أيضاً، وبطرت إلى أغصان الشجرة المخيمة
فوق رأسي. بعد قليل، سمعت أصواتاً غريبة من كل نوع. كانت
تصدر عن حيوانات الليل التي خرجت لمصطاد. وبما أن بتروس لا

يمكنه معرفة كل شيء لأنه بشر مثلي، فمن يصعب لي أن ليست هناك أفق سامية؟ ثم ماذا عن النجاب الأبدية لأوروبا؟ لعلها قررت، وقد اشتمت رائحتي، أن تمر هذه الليلة من هنا. ثم سمعت صوتاً قوياً يشبه غصناً يكسر، فاستعصت، وبدأ قلبي يخفق في صدري خفقات جنونية.

كبت منشجاً للفاية، وكان من الأفضل أن أقوم بالتمارين، وادهب إلى الفندق. هدأت قليلاً، وشبككت يدي فوق صدري في وضعية الميت. شيء ما قريب مني تحرك. نهضت متوثباً

لم يمكن من خطيب. كان الليل قد غمر كل شيء، وأيقظ بضامه كل المخاوف البشرية. تذكرت من جديد، مصفماً هذه المرة على جعل كل خوف حافزاً للتمارين. ولاحظت أنني كنت أنصت عرفاً، بالرغم من برودة الطقس.

تخيلت النعش مسفراً، والباس واقفين حولي. كنت جامداً، لكنني ما زلت حياً. وودت لو أستطيع أن أبلغ عائلتي، التي ترى كل شيء، أنني أحبها، لكن الصوت احتبس في حنجرتي. كان أمي وأبي يهكيان، واصدقائي يلففون حولي، وكنت وحيداً كل تلك الكائنات العزيزة كانت هباء، وليس بمقدور أحد الخس بآسني حين يروق، أو بآسني لم أحقق ما كنت راغباً في تحقيقه أثناء وجودي في هذا العالم. حاولت بالنساء أن أفتح عيني، أن أقوم بإشارة، أن أفرع غطاء التابوت، لكن لا شيء في جسدي يتحرك.

كنت أشعر أن النعش يتمايل. كانوا ينقلونني إلى القبرة. استطعت سماع صوت الحلقات التي تحتك بحفالات الحديد، وخطوات الباس في الموكب، وأصواتنا تتسامر. قال أحدهم إنه مدعو إلى العشاء لاحقاً وعقب آخر أبي مث شيئاً كانت رائحة الزهارة حول رأسي تشعرني بالاختناق.

تذكرت أنني لم أغازل امرأتين، أو ثلاثاً، مخالفة أن ينبغي. وتذكرت بعض لباسات التي نخلت فيها عن رغباتي، معقناً

أنني أستطيع تأجيل تنفيذها إلى وقت لاحق. وشعرت بحزن عميق، ليس فقط أنني كنت ميتاً حياً، بل لأنني خفت من الحياة فيما مضى. ماذا يعني الخوف من أن ينبذني الآخرون، أو أن أؤجل عملاً إلى وقت لاحق، إذا كان الأهم هو أن يستمتع بالحياة وبحيائها بكل قوتنا؟ كنت أسير نفسي وكان الأوان قد فات للرجوع إلى الوراء، وامتلاك الشجاعة التي كان علي التحلي بها.

كنت بهوذا نفسي، خائن نفسي. كنت هباء، ولا أستطيع تخريبك عصاة واحدة لأنادي من بهت لجنيتي، فيما الناس في الخارج غارقون في الحياة، مشغولون بما سيفعلونه هذا المساء، ناظرون إلى تماثيل ومبانٍ لم أراها أبداً واجتاحني شعور جارف بالظلم، ظلم أن أذفن، فيما الآخرون يتابعون حياتهم. كان من الأفضل أن تحدث كارثة هائلة، وأن يكونوا جميعاً في المركب نغلق الأبواب إلى النقطة السوداء، التي يقلونني إليها. النجدة أنا حياً لم أكن أعني لا يزال يعمل.

أصبحت أشعر على حافة القبر. سينقلونني روحتي ستساني، وتخرج من جديد، وستنطق بالمال الذي جهلنا لأذخاره طوال هذه السنوات... لكن أي أهمية لذلك أريد أن أكون معها الآن، لأنني حياً

سمعت بكاء. أحسست أن الدموع تنهمر أيضاً من عيني. لو أنهم يمتحون النعش في هذه اللحظة، فسيدركون حقيقة الأمر، ويتم إنقاذي. لكن النعش كان ينحدر داخل الأرض دون رحمة، وفجأة، صار كل شيء طلاماً. حتى الآن، كان هناك بصيص نور يتسرب من جوانب النعش. أما الآن، فظلام شطب. رفوش حفاري القبور تسد مداخل القبر. وأنا حياً ملقون حياً أصبح الهواء ثقيلًا، ورائحة الأزهار خانقة. وسمعت خطوات الناس، وهم يبتعدون. حل رعب مطلق. لم أستطع التحرك، لقد غادروا الآن. قليلاً، ويهبط الليل، ولا أحد يسمعي نقر غطاء النعش.

لم يسمع أحد الصرخات التي أصدرها فكري. أنا وحيد
والظلمة والهواء الخافق وعطر الأبرار . كل ذلك جعلني مجنوناً.
وهجاء، سمعت صوتاً صاخباً إنها النيران، النيران التي تقترب
لتلتهمني حياً أحاول بكل قواي أن أحرك عصوا في لكني لا
أفلح النيران تتسلق جسدي. إنها مكثرة وباردة. تمزق فوق وجهي
وتدخل في بطني. احترقت إحداها إسني، واندشت أخرى في
فجوة لسفي. المجدد أنا مثلهم حياً، ولا أحد يسمعي، ولا أحد يقول
شيئاً إن الدودة، التي دخلت عبر منخري، نزلت إلى حجرتي، في
حين أن دودة أخرى احترقت أدني. يجب أن أخرج من هنا! ليس الله
الذي لا يستجيب لي؟ بلأت النيران تلتهم حجرتي، ولم أعد
أستطيع الصراخ! إنها تنفذ من كل ناحية، من الأذن، من زاوية
العم، من ثقب الإحليل... أشعر بهذه الأشياء السامة التي يسيل لعابها
في ناخلي. يجب أن أخرج، أن أتحزراً أنا محشور في هذا النابوت
الظلم والبارد، وحيد، مثلهم حي. الهواء ينفذ، والنيران تاكلني
يجب أن أغادر هذا العش وأحطمه يا إلهي! استجمع كل قواي، لأن
علي أن أتحرك وأخرج من هنا. سأتحرك. سأتحرك.

لقد نجحت!

سبيلني موتني أكثر من يد بتروس، وصدائحه لن يسمح لي بأن
أرجى، إلى وقت لاحق ما أستطيع إيجاره الآن. لن يجعلني أهرب من
صراعات الوجود، وسيمؤارري أثناء «الجهاد الحسن». ولن أخاف من
تأدية الأعمال، متذرعاً بأنني لا أريد أن أثير سخرية الآخرين. كان
الموت هنا بوصفي بأنه لا يجدر بي، حين يأخمني بيدي لمساقر إلى
عوالم أخرى، أن أصطحب أكبر الخطايا جمعاء: الدم. استأنشت
بحصوره، ونظرت إلى وجهه العطوف. تبغيت أنمي سأشرب من
ينبوع الحياة الحن، الذي هو هذا الوجود.

لم يعد لليل أسرار ولا رعب. كان الليل بهيجاً، ساكناً عندما
اختفت الرحمة من جسدي، نهضت وتوجهت إلى مخارن العمال في
الحقول. نظفت بطني القصير واستبدلت به بطلاً حملته في
حقيبة ظهري. ثم رجعت إلى الشجرة، وأكلت الشطيرتين اللتين
تركهما بتروس. كان أذ طعام تناولته في حياتي، لأنني كنت
حنياً، والموت لم يعد يخيفني.

قررت أن أباد في هذا المكان، ولم تكن الظلمة بهذه الوعاءة.

نطائرت ألواح العش شظايا، واختفى القبر ملأت صدري بهواء
طريق مار يعقوب العش. كان جسدي يرتجف من الرأس حتى
أخمص القدمين، وقد ابتل بالعرق. تحزكت قليلاً، ولاحظت أنني
تقيأت، لكن لا شيء من هذا كان مهماً. اللهم أنني حي.

سرت الرعدة في، ولم أقم بأي جهد لأضبطها. اجتاحني شعور
هائل بالهدوء الداخلي، وبحصور إلى جانبي مظرت، قرأيت وجه
موتي لم يكن الموت، الذي أخبرته منذ قليل، بل موتي الحقيقي،
رفيقي ومرشدي الذي، بفصله لن أعود جباناً أبداً في حياتي. الآن

العيوب الشخصية

وجئنا أنفسنا في حقل هائل مترامي الأطراف، غرس بالقمح الأملس، يمتد برتابة على طول الأفق. قطع رتابة للنظر عموداً قروسطي يعلوه صليب يشير إلى طريق الحجاج. رمى بتروس حقيبته أرضاً أمام العمود، وجثا على ركبتيه ودعاني لأفعل ما فعل.

«سنصلي، سنصلي من أجل الشيء الوحيد، الذي يجعل حاجاً يفتل عنلما يجد سيفه، وهو عيوبه الشخصية. يلقنه المعلمون الكبار أن يوجه البصلة، لكن يده ستكون يوماً ألد عذوبة. سنصلي حتى إذا وجدت سيفك، أمسكته، دائماً، باليد التي لن تؤذيك».

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكل شيء ساكن حولنا، لبناً بتروس صلاته،

«رحمتك يا رب، أننا حجاج في الطريق إلى كومبوستيلا. وهذا يمكنه أن يكون عيباً. رحمتك اللامتناهية يا رب، ساعدنا حتى لا نجعل المعرفة ترتد علينا.

«الرحمة لهؤلاء الذين يشفقون على أنفسهم، ويعتبرون أنفسهم صالحين، ويظنون أن الحياة مجحفة بحقهم، ولا يستحقون ما يحصلون عليه، إن هؤلاء لن ينجحوا أبداً في حوص «الجهد الحسن» الرحمة لهؤلاء القساة على أنفسهم، ولا يرون الشر إلا في أعمالهم، ويعتبرون أنفسهم مسؤولين عن مصائب العالم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «شعور رؤوسكم كلها مخصصة».

«الرحمة لهؤلاء الذين ياتَمرون، ويقضون ساعات طويلة في العمل، ويضخون بليام الأحاد، حيث كل شيء مقفل، وحيث لا مكان يذهبون إليه لكن الرحمة لهؤلاء الذين يقنسون عملك، ويذهبون أبعد من جنونك بالذات، ويمتهون منيعين أو مسفرين على الصليب بأيدي إخوانهم بالذات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «كونوا حكماء كالحيات، وودعاء كالحمائم».

«الرحمة لأن الإنسان يمكنه أن يهرم العالم، دون أن يحوصل «الجهد الحسن» مع نفسه لكن الرحمة لهؤلاء الذين ربخوا «الجهد الحسن»، وهم الآن على مفترق طرقات الحياة وفي حياتها، لأنهم لم ينجحوا في إلحاق الهزيمة بالعالم، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يسمع كلامي ويعمل به يشبه رجلاً بنى بيته على الصخر».

«الرحمة لهؤلاء الذين يخافون إمساك القلم والريشة والأداة والآلة، معتبرين أن الذين جاؤوا قبلهم صنعوا الأفضل، وهم غير جنيرين بدخول عالم الفن المذهل. لكن رد رحمتك يا رب على هؤلاء الذين أمسكوا بالقلم والريشة والأداة والآلة وحوّلوا الإلهام شعوراً حقيراً، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين. فهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لا خفي إلا سبطهم، ولا مكنوم إلا سبطهم».

«الرحمة لهؤلاء الذين يأكلون ويشربون ويتخمرون، لكنهم تعساء ووحيدون، وسط الوفرة التي يعيشونها، والرحمة أيضاً للذين يصومون ويمنعون ويحظرون، ويظنون أنفسهم قديسين، ويذهبون ليكرزوا باسمك في الساحات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لو كنت أشهد للقي لا كانت شهادتي حقاً».

«الرحمة لهؤلاء الذين يهابون الموت، ويجهلون المالك الجديدة التي اجتازوها، والبيئات الجديدة التي ماثوها، والذين هم التعساء، لأنهم يعتبرون أن كل شيء مصيره إلى زوال. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين عرفوا ميقاتهم الجديدة، واعتبروا أنفسهم خالدين، لأنهم

يجهلون شريعتك التي تقول: «إن من لا يولد ثانية، لا يرى ملكوت الله».

الرحمة لهؤلاء الذين يستبعلهم القيد الحريزي للحب، ويعتبرون أنفسهم سادة على الآخرين، ويشعرون بالحسد، ويسقمون أنفسهم، ويتعذبون، لأنهم لا يعرفون أن الحب يتغنى كالريح وككل الأشياء. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين يموتون خوفاً من الحب، ويرقصون الحب باسم الحب العظيم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يشرب من هذا الماء فلن يعطش أبداً».

الرحمة لهؤلاء الذين يختزلون الكون إلى تفسير، والله إلى وصفة سحرية، والإنسان إلى كائن ذي حاجات أساسية عليه إشباعها، لأن هؤلاء لن يسمعوا أبداً موسيقى الأجواء السماوية. لكن ترأف أيضاً هؤلاء الذين يملكون إيماناً أعمى، ويحولون الرنابق في المختبرات ذهباً، ويحيطون أنفسهم بالكذب التي تكشف لهم أسرار التاروت وقسرة الأهرامات. لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «الأطفال وحدهم يرثون ملكوت السموات».

الرحمة لهؤلاء الذين لا يرون أحداً أعظم من أنفسهم، ولا يابهون للآخرين، ويعتبرونهم منظرًا غامضاً وبعيداً هؤلاء الذين يعبرون الطريق بسياراتهم الليموزين، ويعملون في مكاتبهم الحكيمة في الطابق الأخير، وهم يتعذبون بصمت، بسبب وحدة قوتهم. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين تطل أنانيهم مبسوطة للإحسان والخير، ويريدون الانتصار على الشر بالحب وحده، لأنهم يجهلون شريعتك التي تقول: «من ليس له سيفه فليبع رداءه ويشتري سيفاً».

الرحمة يا رب، راحة بنا، نحن الذين نفتشون ويجرؤون على الإمساك بالسيف الذي وعدت به، نحن الشعب الفئيس والحاطيء المنتشر على وجه الأرض، لأننا لا نعرف دواتنا حقاً. نخال أنفسنا مكتسبين، فيما نحن عراة، نعتقد أننا نرتكب جريمة، فيما نحن في الواقع، سعد نفساً من الهلاك. لا نسسا من رقتك، نحن جميعاً،

الذين يستلون السيف من يد اللالك ومن يد الشيطان هي أن، لأننا من العالم وفي العالم، وبحاج إلك، بحاج دوماً إلى شريعتك التي تقول: «واتنا أرسلكم، فلا تاحدوا معكم لا كيساً ولا مروناً ولا حذاء، ولا ينقصكم شيء».

كف بتروس عن الكلام، وحيم الصمت طويلاً. مكان يحدق إلى حقول القمح الممتدة حولنا.



الانتصار

وصلنا بعد الطهيرة، إلى خرائب قصر قديم يعود إلى جمعية
فرسان الهيكل. جلسنا نرتاح. دُخِنَ بتروس سيجارته التقليدية،
وشربت قليلاً من الحمر التي احتفظت بها من الغداء. نظرت إلى
الشهد الذي يحيطني، البيوت القليلة التي يسكنها الرارعون، برج
أحد القصور، تموجات الريف، الأرض الحروثة (لجنة للبنار. وفوجئت،
وأنا أنظر إلى يميني، براح قرب الأسوار المنهزمة، يعود من الحقول مع
خرافه. كانت السماء حمراء والغبار، الذي تنشره حوافر الحيوانات،
أضفى على المشهد منطراً غامضاً، أشبه بحلم أو برؤيا سحرية. رفع
الراعي يده، وحيانا، فرغنا التحية.

مزت الخراف قربنا وتابعت طريقها نهض بتروس، وقد أثر فيه
 المشهد، قائلاً،

— هيا، لنذهب بسرعة

— لماذا؟

— ألا ترى أننا قضينا وقتاً طويلاً على طريق ما يعقوب؟

لكن شيئاً ما كان يقول لي إن دعوته إلى الإسراع، مرتبطة
 بمشهد الراعي وخرافه.

بعد يومين، وبعد أن اجتزنا حقول القمح الهائلة ذات المنظر
 الرتيب، وصلنا إلى أسفل الجبال المرتفعة في الجنوب وعلى الرغم

من بعض الربوات الطبيعية، فإن المكان كان موسوماً بالعلامات
 الصفراء التي تحدث بها الأب جوردي. ومع ذلك، فإن بتروس، ودون
 أن يدلي بأي تفسير، قد ابتعد شيئاً فشيئاً عن هذه العلامات، متجهاً
 إلى الشمال. سألته عن الأمر، فأجابني، بلهجة جافة، أنه مرشدي،
 ويعرف تماماً كيف يقويني.

بعد حوالي نصف ساعة من السير، سمعت ضجة أشبه بشلال.
 ولم يكن حولنا إلا الحقول التي أبيستها الشمس. ورحلت أفنش عن
 مصدر الصوت. كنّا كلّما تقنمنا، زناد الصخب قوة، إلى أن عرفنا
 مصدر الصوت، الذي لا يرقى إليه شك، إنه مسقط ماء. وكانت هذه
 ظاهرة خارجة عن المألوف، نظرت من حولي، فلم أرَ لا جبلاً، ولا
 مساقط مياه.

عند منعطف إحدى الأكمات، رفيتني، فجأة، أمام مشهد طبيعي
 غريب، ثفة طبقة مائية تنحدر إلى محور الأرض، تقع في منخفض
 أرضي يتسع لبنى من خمسة طوابق، وتعلو ضفاف المنخفض الهائل،
 خضرة قياصة، مختلفة تماماً عن البقعة التي تحيط بمسقط الماء.

قال بتروس،

— سنجتاز المنحدر.

بدأنا بالانحدار وفكرت بـ «جول فرن» كنّا كنا ننتجه إلى
 محور الأرض. كان الانحدار وعراً، وتوجب عليّ التثبيت بالجنبات
 المشوكية والحجارة المسنونة، كي لا أهوي. وصلت إلى أسفل المنحدر
 ونراعي وسافاي تكسوها الكلوم.

علق بتروس، قائلاً،

— يا للمنظر الطبيعي الجميل.

شاركته شعوره، إنها واحة وسط الصحراء، تجلّى فيها اختصار
 كثيف في حين أن رداد الماء يرسم شكل فوس قرح. كان هذا
 المنظر برفته جميلاً، سواء شوهد من الأسفل أم من الأعلى.

وأصغرُ بتروس،

— هيا الطبيعة تظهر عظمتها قوتها

وأردفت قائلاً،

— هذا صحيح

— كذلك هي تسمح لنا بأن نثبت نحن أيضاً، قوتنا. سنتسلق
هذا السقف، وسط المياه.

مطرزت من جديد إلى المشهد. فما عدت أرى الواحة الجميلة وهي
أحدى السروات المتكئة للطبيعة وجنني أمام جدار يبلغ ارتفاعه
خمسة عشر متراً ومن علوه، يتساقط الماء بصخب كبير. لم
يكن عمق البركة، التي يشكلها تساقط الماء، يتجاوز قامه رجل،
فيما كان النهر يجري بصخب عبر فتحة تنساب إلى أحشاء الأرض.
لم يكن على الجدار أي نقطة يمكن التثبيت بها، كما أن
البركة ليست بالعمق الكافي لتتحمل سقوطاً قادت لي المهمة
مستحيلة.

تذكرت مشهداً حصل منذ خمس سنوات، خلال ممارسة أحد
الطفوس الخطيرة التي جرى فيها تسلق أحد الأماكن الشاهقة.
تركنتي العلم أقز ما إذا كنت أريد المتابعة، أم لا. كنت أكثر
فتوة، وكنت مسحوراً بقدراته، وبمعجزات البركة، فخررت الصني
قدماً، لأثبت شجاعتي وجراتي.

بعد قرابة الساعة من التسلق، وأمام العقبة الأكثر صعوبة من
الصعود، عصفت ريح قوتها غير معهودة، وكان علي أن أنشيت
بكل قواي، بالحرف الصغير الذي كنت مستعناً إليه، كي لا
أهوي. انهمست عيني منتظراً الأسوأ، وأطافري مغرورة في الصخر
وكم كانت دهشتي بالغة، عندما استمتجت لاحقاً أن أحدهم قد
ساعدي على تثبيت موضع مريح وأكيد. فتحت عيني، كان

معلمي إلى جانبي يرسم في الهواء بعض الوجوه، وفجأة، توقفت
الريح. وبرشافة غريبة تشبه التمارين الخالصة التي تجعل الجسم
ينطلق صعباً بقوة الإرادة وحدها، هبط من جديد، ودعاني لأفعل
مثله.

وصلت إلى الأسفل، وسأفاني ترتجفان. سألته مستذكراً لما جعل
الريح تتوقف قبل أن يبلغني.

— لأنني أنا الذي جعل الريح تهب.

— لقلني؟

— بل لإيقاظك. فأنت غير قادر على تسلق هذا الجبل. وعندما
سألتك، هل تريد الصعود؟ كنت أريد أن أمتحن حكمتك، لا
قوتك.

ثم أضاف المعلم،

— لقد اختلفت أمراً لم أوح لك به. فلو أنك كنت تنفن التسلق،
لما كانت هناك مشكلة. لكبك أريد أن تكون شجاعاً، في الوقت
الذي كان الأمر فيه يتطلب ذكاء لا شجاعة.

وحثني في ذلك اليوم عن مجوس أصهبوا بالجنون، خلال مسار
الإشراق، ولم يعودوا قادرين على تمهيد قواهم من قوى تلامذتهم.
وأناء، خلال مسيرة حياتي، تعزلت إلى رجال كبار في جمعية
البركة. وفابلت ثلاثة معلمين، بمن فيهم معلمي، قادرين على
إيصال التحكم الجسدي إلى مستويات تفوق تصور الإنسان. رأيت
معجزات ونبوءات تحققت وإعادة تجسد. حثني معلمي عن حرب
للالوبي قبل أن يغزو الأرجنتينون الجزر بشهرين. وضعها لي
بالتفصيل، وشرح لي الشبكات الكوكبية لهذا الصراع.

ومنذ ذلك اليوم، اكتشفت أن بعض المجوس الذين، كما قال
للمعلم، أصبحوا مجانين خلال مسار الإشراق، كانوا شبيهين بالمعلمين،
حتى في قدراتهم. وقد رأيت أحدهم، بفصل تركيزه القوي، يجعل

بذرة تبرعم في خمس عشرة دقيقة. لكن هذا الرجل، وأمثاله، قادوا تلاميذ كثيرين إلى حافة الجنون واليأس. إذ انتهى بعضهم في مستشفى الأمراض النفسية، كما تم إثبات قضية فتحار. هؤلاء الرجال موجودون على اللائحة السود لجمعية «الميراث»، لكن كان يستحيل وضع رقابة عليهم. وما يزال عند منهم يتابع نشاطاته إلى الآن.

كل هذه القصة عبرت فكري في أقل من ثانية، أمام منحدر الماء الذي يستحيل عبوره. فكُرت بكل هذا الوقت الذي مشيتنا وبتروس معاً. تذكرت الكلب الذي هاجمني ولم اتسبب له بأذى. كما تذكرت اختفار بتروس إلى الانصباط مع الخادم في الطعام، وثملته أثناء حفلة الزواج.

— بتروس، لا يمكنك أن تسلق هذا الجدار لسبب واحد، هو الاستحالة.

لم نجبنني. جلس فوق العشب، وفعلت مثله. بقينا صامتين لربع ساعة. شعرت بأنني أعزل بسبب صمته، واخذت المبادرة في الكلام من جديد.

— بتروس، لا أريد تسلق هذا الشلال، لأنني ساهوي معه. أعرف أنني لن أموت، لأنني حين رأيت وجه موتي، رأيت أيضاً اليوم الذي سيحدث فيه إذا كنت وفياً لطريقي. لكن سقوطي ممكن، وسيفضي إلى بقائي مشلولاً طوال حياتي.

— باولو، باولو...

نظر إليّ وابتسم. تغيرت ملامحه كلياً، وكان الحب اللئيم في صوته واللمعان في عيبيه.

— هل ستقول إنني أحل بقسم الطاعة الذي أولمكتك إياه قبل سلوك الطريق؟

— أنت لا تحل بأي قسم. لا تشعر بخوف أو بكسل، وبالطبع لا تفكر أنني أسألك أمراً غير مجد. أنت لا تريد تسلق الشلال، لأنك تفكر بالجوس السود^(١)

إن التحكم بالقدرة على اتخاذ القرار لا يعني الإحلال بالقسم، فهذه القدرة ليست عصية على الحجاج.

تأملت مسقط الماء، ثم استندت ناحية بتروس. فُتت إمكانات النفس وكأنت معلومة.

ثم أضاف:

— انتبه، ساصعد قبلك دون أن استعين بأي موهبة، وسأنجح. إذا نجحت، فهذا فقط لأنني أعرف أين أضع قدمي، وعليك أن تفعل مثلي. وهكذا، ألقي قدرتك على اتخاذ القرار أما إذا رأيتني أتسلق جدار السقوط ورفضت، فهذا يعني أنك أخللت بالقسم.

خلع بتروس حذاه. كان يكبرني بعشر سنوات على الأقل، فإذا نجح في التسلق، فسوف يبطل كل حجة لدي. نظرت إلى مسقط الماء، وشعرت بالبرد في معدتي.

لكنه لم يتحرك. خلع حذاه، وبقي في مكانه. نظر إلى السماء ثم قال:

— على بعد كيلومتر من هنا، ظهرت العنزة على أحد الرعيا عام ١٥٠٢ اليوم يصانف عيدها، عيد عنزة الطريق، وأريد أن أكرس انتصاري لها وأنصحك بأن تفعل مثلي، أي أن أكرس انتصارك لها. لا تقم إليها ألم قدميك ولا جراح يديك اللتين

(١) اسم يطلق في جمعية ميراث على العلماء الذين فقدوا الاتصال السحري بتلاميذهم. كما يستعمل هذا التعبير للإشارة إلى العلماء الذين توقفوا مسار معارفهم، بعد أن هيموا على قوى الأرض فقط.

فزحنتهما الحجارة. فالعالم أجمع لا يهديها إلا ألم توبته لا شيء يصير في ذلك، لكبي اعتقد أنها ستكون سعيدة لو أن البشر يسلمونها، بالإضافة إلى عدياتهم، أفراحهم أيضاً.

لم أكن مستعداً إطلاقاً للكلام. كنت أشك في قدرة بتروس على تسلق هذا الجدار وقلت في نفسي إن كل هذا مجرّد ملهاة، وإنه، في الواقع، يخدعني بكلمات جميلة ليجبرني لاحقاً على فعل ما لا أريد. ومع ذلك، أغمضت عيني، ورفعت صلاتي لعزاء الطريق، متعهداً أنني، إذا تمكنت من تسلق الجدار، فسأرجع يوماً إلى هذا المكان.

— «كل ما تعلمته حتى الآن لا معنى له، إلا إذا وجدت له تفسيراً. تذكر أن طريق مار يعقوب هي طريق الناس العائدين. قلت لك ذلك آلاف المرات. على الطريق، كما في الحياة، نغلو الحكمة بلا قيمة، إلا إذا ساعدت الإنسان على تخطي الحواجز.

«فلا غاية من وجود الطريقة ما لم يكن هناك مسامير لطرقها لكن وجود المسامير ليس كافياً. ينبغي أن تكون الطريقة موجودة في يد العلم وأن يستخدمها تبعاً لوظيفتها.

تذكرت، عندي، قول المعلم في «إيتاسايا»، «من يملك سيماً فليضعه يوماً قيد الاختبار، لنألا يصنأ في غمده.

ثم قال مرشدي، موضحاً،

— السقط هو المكان الذي يجب أن تطبق من خلاله كل ما تعلمته إلى الآن. هناك أمر لصالحك. أنت تعرف تاريخ موتك والخوف من الموت لن يشك، عندما تحين اللحظة لتتخذ قراراً سريعاً بشأن الموضع الذي ستستند إليه للوصول بسلام. لكن تذكر أن عليك الاستعانة بالياء، لأنه هو الذي يمنحك ما تحتاج إليه. لا تنس أن تغرز طرفك في إبهامك، إذا تملكك فكرة سيئة.

— وينبغي لك، بشكل خاص، الأثكال، في كل لحظة من

الصعود، على الحب اللتهم. فهو الذي يقودك، ويبزر كل خطوة من خطواتك.

صمت بتروس. تعزى تماماً، وغطس في المياه الباردة للبركة الصغيرة، ثم رفع يديه إلى السماء. شعرت أنه كان سعيداً، مستمتعاً برشاش الماء المعش، وأفواس القزح التي ترسمها نقاط الماء حولنا.

قال، قبل ولوجه ستار الشلال،

— «إن مسقط الماء هذا سيعلمك كيف تكون معلماً. ساصعد، لكن سيبقي حجاب الماء بيني وبينك، فلن تتمكن من رؤية موضع قدمي أو يدي.

«كذلك فإن التلميذ لا يستطيع أبداً تقليد خطوات مرشده. لكل طريقته في رؤية الحياة، وفي مواجهة الصاعب وتحفيق الانتصارات. التعلم هو أن تظهر للآخر ما هو قادر عليه، والتعلم هو جعل هذا ممكناً.

لم أعلق بكلمة واحدة. عبر تحت الشلال، وبدأ بالتسلق. تتبعت طيفه، كمن يرى أحداً عبر زجاج غير مصقول. تقدّم نحو الأعلى ببطء، ودوماً تراجع. وكلما اقترب من القمة، أحسست بالخوف لافتترب اللحظة التي ينبغي لي فيها أن أحلو حذوه. وأخيراً، دبت اللحظة الأكثر رعباً، الصمود في وجه الماء الذي يتدحرج، والصعود دوماً. كانت قوة الشلال قادرة على رميه إلى الأسفل. لكن رأس بتروس طفا، وأبسته المياه المتساقطة معطفاً فضياً وفجأة، رفع جسده إلى الأعلى متشبثاً بكل قواه بالسجد لكن دائماً داخل الماء، واحتجب عن ناظري ليضع لحظات.

ثم ظهر على الضفة، وجسده مبلل ومغمور بمور الشمس. كان يبتسم.

هتف وهو يشير إلي يديه:

— هيا، حان الآن دورك.

حان دوري، وإلا وجب التخلي إلى الأبد عن سيمي.

خلعت ملاهسي، وصلبت من جديد لعذراء الطريق. ثم غطت رأسي في المياه. كانت مجلدة، فتشجج جسدي. لكن راودني، بعد قليل، إحساس للهدوء. ودون تفكير، مشيت قدماً إلى مسقط الماء.

أكسبني تأثير الماء على رأسي الحسن العيشي بالواقع هذا الحسن الذي يُصعب الإنسان، حين يكون في أشد الحاجة إلى إيمانه وعزيمته. كان الشلال أكثر عنفاً مما تصوره، فإذا تلقينته بصدري فقد بخلت بي إلى الهاوية، حتى وإن كانت قدماي تستندان بعزم إلى قاع البركة. عبرت النياز، وبقيت بين الصخرة والماء. ركز الجسد إلى مسافة صيقة ملتحفاً بالصخرة. بدت لي المهمة أسهل مما تصوّرت. أما الجدار الذي بدا مصقولاً من الخارج، فقد كانت تتخلله، في الواقع، نتوءات عندة. خجست لفكرة أنني سأتحلى عن سيمي خوفاً من صخرة ملساء، فيما الأمر يتعلق بموع من الصخور تسلفته عشرات المرات. بدا لي أنني أسمع صوت بتروس، هل رأيت، ما إن تحل المشكلة، حتى تصبح بسيطة بسيطة مرعبة.

تسلفت، ووجهي ملتصق بالصخرة الرطبة. اجتزت خلال عشر دقائق، أكثر من نصف الطريق. ولم ينبق لي إلا اجتياز قمة الشلال. وبدا لي أن الانتصار، الذي سأحققه خلال هذا التسلق، لن يفيدني شيئاً إذا لم أتخط الجرف الصغير الذي يفصلني عن الهواء الطلق. هنا يكمن الخطر. وفضلاً عن ذلك، فإني لم أستطع أن أتبين جيداً كيف تجاوزت بتروس. أخذت أصلي لعذراء الطريق التي لم أسمع بها من قبل، والتي بين يديها أضع الآن إيماني كله، وأملّي كله بالطهر. وضعت شعري بحذر تحت الشلال الهادر

عمرني الماء وشوش رؤيتي. شعرت بجبروته، وتشتبنت بهوة، بالصخرة، وأنا خافض الرأس بشكل أستطيع معه تكوير جيب هواء يمكنني من خلاله التنفس. وثقت تماماً بقدمي ويدي، يديّ اللتين أمسكتنا بالسيف القديم، وقدمي اللتين اجتارتنا طريق مار يعقوب. كانت أطرافني حليمة الوفيه، ولكن صوت الماء أصم أنني، وكنت أتنفس بصعوبة. عندئذ، غمست رأسي في النهر، ولبضع لحظات، أضحي كل شيء سواناً من حولي. صارعت لأبقى متشبثاً بالنتوءات، لكن بدا لي الصخب وكأنه يجزني إلى مكان غامض وبعيد، حيث لم يمكن لأدنى شيء أني أهمية، وحيث أستطيع بلوغي، فقط لو استسلمت لهذه القوة. عندئذ، لن يعود الجهد الغارق الذي سألله لأبقى ملتحفاً بالصخر، ضرورياً ذلك أن كل شيء سيكون سلاماً وراحة.

ومع ذلك، قاومت بدائي وقدماي إغواء الموت. بدا رأسي يطفو ببطء على حجاب الماء، كما دخل. شعرت بحب عميق لجسدي الذي ساعدني في هذه المغامرة الجسدية، مغامرة رجل يجتاز مسقط ماء، بحثاً عن سيمي.

عندئذ، رأيت الشمس تلمع فوقني وشهقت بعمق. أعطاني هذا الفوز دفعاً جليداً. نظرت من حولي، فرأيت على بعد سنتيمترات المجد الذي اجتارناه، والذي يشير إلى نهاية السطر أغرائي كثيراً أن أهرع لأتشبث به، لكنني لم ألتجأ لأي دعامة تسمح لي بذلك، جزاء الماء المتساقط. كانت الوثبة الأخيرة عسيرة، لكن لم يحس بعد وقت الانتصار. وكان عليّ أن أتحكم بخطواتي. كانت تلك اللحظة الحاسمة في مسيرة الصعود، لياها تضربني على صدري، وصفطها يهتد بقفطي نحو الأرض التي تجزأت على الخروج منها مدفوعاً بإحلامي.

لم يكن الوقت مناسباً للأفكر بمعلمي وأصلحائي. ولم أكن

أستطيع المظر جانباً، لرؤية ما إذا كان بتروس قادراً على إبقاذي في حال اسرلاقي. فكرت في أنه قام، حتماً، بهذا التسلق ملايين المرات، ولا بد من أنه يعرف أنني أحتاج إلى المعونة بشكل ملح، لكنه تخلى عني، أو لعله لم يتخل عني، بل كان خلفي في وقت لا أستطيع فيه أن أنبر رأسي، لأن ذلك يحل بتوارسي وعلي، إذن، أن أحقق انتصاري بنفسي.

ثبت قدمي واحدي يدي بالصخرة، فهما تحزرت يدي الأخرى باحثة عن الاسحام مع الماء لم يكن عليها أن تقاوم، أنني استخدمت أقصى قوتي. وأصبحت يدي سمكة طليقة تعرف أين عليها التوجه. تذكرت أفلام طفولتي، حيث تقتر أسماك السلمون في مساقط الماء، لأن عليها، هي أيضاً، بلوغ هدفها.

ارتفعت ذراعي بهبط، مستعينة بقوة الماء. تحررت، وكما السلمون في أفلام طفولتي، غطست في الماء، بحثاً عن مكان تستند إليه من أجل القمرة الهائلة. كانت الصخرة مصفولة بفعل قرون من التاكل. لكن لا بد أن هناك دعامة وإذا كان بتروس قد مجح، فأنا أيضاً بإمكانني ذلك. واجتاحني ألم فظيع، أنا الآن على خطوة من النهاية. وفي اللحظة التي نتعاضم فيها قوة الإنسان، فإنه لا يعود وثقاً بنفسه. سبق لي أن خسرت في اللحظة الأخيرة اجنزت المحيط سباحة، وكنت أغرق لدى تلحق الأمواج على الشاطئ. لكنني الآن على طريق مار يعقوب، وليس بوسع هذه القصة أن تتكرر إلى ما لا نهاية يجب الانتصار هذه المرة.

كانت يدي الحرة تمرلق على الصخرة اللساء، وصفت الماء برداد قوة لم يعد بإمكان أعضائي الأخرى التحمل أكثر. وكان من المحكر أن تصيبي التشنجات في أي وقت. صفع الماء بعننف أعضائي الساسلية، وشعرت بالأم حاد. وفجأة، وجلت يدي الحرة مثكاً في مكان خارج مسار التسلق. حفظت ذهبياً موقعه، لأسد

إليه يدي الأخرى التي فاديتي نحو الخلاص. وجئت على بعد
سنتمترات قليلة من المثك الأول بقطة أخرى هي انتطاري.

هذا الموقع الذي وجد فيه حجاج مار يعقوب مثكاً لهم منذ
قرون. تشبّنت بكل قواي، محزراً يدي الأخرى. هي البديّة، قدّفتها
قوّة النهر إلى الورا، قبلت أول دعامة. وللحال، تبع جسدي الطريق
التي افتتحتها ذراعاي، ووقفت على السجد.

آخر خطوة أنجرت. عبرت التيار. وفوجئت بأن السقوط لم
يكن بالوحشية التي تخيلتها، بل مجزّد خبط ماء ساكر. رفعت
جسدي، واستلقيت على الضفة مستسلماً لتعبي. انقذت الشمس
جسدي. لقد نجحت لا رلت حناً كما كنت عند الأسفل في
البركة وبالرغم من صخب الماء، فإني سمعت خطى بتروس، وهي
تقترب.

أريت أن أنهض، لئ أعبر له عن فرحتي، لكن جسدي، الذي
لهلكه التعب، لم يطاوعني.

— إبق هانئاً. استرخ، وحاول أن تتنفس ببطء.

هذا ما فعلته. وغرقت في نوم عميق بلا أحلام. عندما
استيقظت، كانت الشمس قد تحدرت فوق الأفق. ارتدى بتروس
ثيابه، وأعطاني ثيابي، قائلاً إنه عليا مواصلة السير.
أجبت:

— أنا تعب جداً.

— لا نهتف، سأعلمك كيف تغترف الطاقة، مما يحيط بك.
وعلمني بتروس «نفس رام».

مارضت التمرين لمدة خمس دقائق، وشعرت بالتحسن. نهضت،
ارتديت ثيابي، وحملت حقيبة ظهري.

قال لي بتروس،

— تعال من هنا.

مشيت حتى حافة السجد. كان الينبوع الصاخب يتدفق بفزارة
تحت قدمي.

قلت،

— من هنا، يبدو الأمر أسهل مما يبدو من الأسفل.

— صحيح. لو أنني أظهرت لك هذا الشهد من قبل، لكنت نفسك،
وفتحت إمكانياتك بشكل سيء.

كمت لا أزال ضعيفاً. كزرت التمرين، وبعد قليل، شعرت
بالانسجام تام بيني وبين الكون المحيط بي، وكأنه «خترق قلبي».
سألت بتروس لما لم يعلمني «نفس رام» من قبل، لني غالباً ما
شعرت بالنعب والمكسل، أثناء السير على طريق مار يعقوب.

أجابني، وهو يصعك،

— لأنك لم تقل لي شيئاً عن تعبك أو كسلك.

ثم سألني إن بقي معي بسكويت بالزبدة، كمت قد اشتريته
الي «استورغا».

«نفس رام»

أرهز الهواء من رثتيك قدر ما تستطيع. ثم اشهق ببعد، وأنت ترفع
ذراعيك. خلال الشهيق، ركز لحيي بخترق قلبك الحب والسلام والانسجام مع
الوجود.

احتفظ بنفسك متوقفاً، وأنت ترفع ذراعيك أطول وقت ممكن، مستمتعاً
بالانسجام الداخلي والخارجي، ثم ارفق بسرعة، وأنت تلفظ كلمة رام.
ركز هذا التمرين لمدة خمس دقائق.

الجنون

هنا حوالي ثلاثة أيام ونحن نقوم بسير حثيث. كان بتروس يوقظني قبل شروق الشمس لنبدأ السير. ولم نكن نتوقف إلا عند التاسعة مساءً. واقتصرنا على وجبات الطعام. وقد ألقى مرشدي القبلولة خلال الساعات الأولى بعد الظهيرة. شعرت وكأنه يتبع برنامجاً غامضاً، تعلمت على معرفته.

ثم إن طريقته في التصرف قد تغيرت تماماً. في البداية، عزوت السبب إلى الشكوك التي أظهرتها إنيار فصل مسقط الماء، ثم أدركت أن الأمر ليس كذلك. فقد كان يظهر استياءه أمام الجميع، وينظر إلى ساعته مراراً في اليوم. ذكرته بكلماته، نحن نخلق بأنفسنا مفهوم الزمن.

فأجابني:

— أنت تزاد ذكاء كل يوم. سدرى إذا كنت سنستخدم هذا الذكاء فعلاً، عندما يتطلب الموقف ذلك.

بعد ظهيرة أحد الأيام، تعبنا من الإيقاع المتسارع في الشوارع للبرجة أنسي فقلت القنطرة على القيام بخطوة إضافية واحدة. أمرني بتروس بخلع قميصي، وإسماء عمودي الفقري إلى شجرة قريبة. بقيت بضع دقائق على هذا الوضع وبعد قليل، أحسست أنني أفصل حالاً بها بتروس بشرح لي منافع النباتات، ولا سيما الأشجار القديمة التي تنمو على نفل الأسسجام الذي تحمله في طياتها إلى كل من يسد مركزه العصبي إلى جذعها واسترسل، لساعات، في خطبة عن الخصائص المادية، والقدرة الهائلة والنشطة، للنباتات.

لم نهتم بتدوين الملاحظات لأنني فرنت ذلك في مكان ما. لكن خطبة بتروس كانت تهدف إلى تبييد شعوري بأنه كان غاضباً مني. أجللته عندئذ، صمته باحترام أكبر. وربما جلس هو بقلبي، فحاول أن يظهر من الود حيالي، بقدر ما يسمح مزاجه السيئ في الأيام الأخيرة.

ذات صباح، وصلنا إلى جسر هائل غير متناسق مع خط الماء الرقيق الذي ينساب تحته. كان ذلك صباح الأحد، وكانت الحبات والبارت في البلدة المجاورة لا تزال مغلقة. جلسنا لتناول الإفطار. قلت: مفتتحاً الكلام،

— للإنسان والطبيعة نزوات مشتركة. فنحن نبنو جسوراً جميلة، وتتكفل الطبيعة بتحويل مجرى النهر
قال بتروس:

— إنه الجفاف. أسرع في تناول شطيرتك. علينا معاودة السير. فزرت أخيراً، أن أسأله عن سبب هذه العجلة.

— قلت لك إن وقتاً طويلاً مضى، ونحن لا نزال على الطريق إلى مار يعقوب. لدي أشياء كثيرة عليّ إنجازها في إيطاليا، ويسبغ لي العودة بأمكراً.

لم يقمعي هذا الجواب. لعنه كان صحيحاً، لكنه، بالتأكيد، لم يكن الحافر الوحيد. أحييت في السؤال، لكنه غير مجرى الحديث قاتلاً

— ماذا تعرف عن هذا الجسر؟

— لا شيء، حتى ولو أحسنا بالاعتبار مسألة الجفاف، فإن أبعاده تبقى غير متناسقة. أعتقد أن النهر قد غير مجراه فعلاً.
قال:

— لا أملك أدنى فكرة، لكنه يُعرف باسم «ممر الشرق». وهذه الحقول المنتشرة حولاً كانت مبدأً لمعارك دامية بين الفيزيغوط^(١) والشغابيين^(٢). وشهدت، لاحقاً، معارك بين جيود الفوس الثالث ولعازبة. وإذا كان الجسر طويلاً بهذا الشكل، فلكني يستوعب الدماء التي تجري من تحته، دون أن تغرق المدينة

كانت هذه دعابة سوداء. لم أصحك. أضاف بتروس، وقد اعتراه القليل من الاضطراب:

— ليست جيوش الفيزيغوط ولا صرخات نصر الفونس الثالث هما اللذان أطلقنا الاسم على الجسر، بل قصة حب وموت.

خلال عهود الحج الأولى على طريق مار يعقوب، كان يفد من كافة أنحاء أوروبا حجاج ومكهبة وبلاء، وحتى ملوك، أرادوا تكريم القديس. كما كان يأتي مهاجمون ولصوص وقطاع طرق. والتاريخ يتحدث عن حالات لا تحصى من سرقات قوافل باكملها، وجرائم فظيعة ارتكبت بحق الحجاج الذين يسافرون منفردين.

قلت في نفسي: «التاريخ يعيد نفسه».

وهكذا قرّر الفرسان النبلاء أن يحموا الحجاج وتكفل كل منهم بحراسة جزء من الطريق. لكن، كما أن النهار تغير مجراها، فإن مثال الناس أيضاً يتغير. بدأ الفرسان، الذين ألقوا الدعر في نفوس اللصوص، يتخاصمون فيما بينهم، لعرقه من هو الأقوى والأشجع على طريق مار يعقوب. أخذوا يتواجهون وينبارزون، فيما اللصوص يقومون بأعمالهم على الطرقات دون عقاب.

«نام هذا طويلاً، إلى أن شغف أحد نبلاء مدينة ليون بامرأة عام

(١) الفيزيغوط، أو القوط الغربيون الذين غزوا إسبانيا عام ٤٧٦، حيث أسسوا مملكة دامت حتى الفتح العربي عام ٧١١ هتدوا إلى الذهب الكاثوليكي نحو عام ٦٠٠

(٢) الشغابيون، إثنية حول مدينة شونغاوت، تقاتلت مع الفيزيغوط.

١٤٢٤. كان يدعى دون سوبرو دو كينيوس، وهو ثري نافذ. حاول بكافة الوسائل أن يترؤج السيدة، لكن الرأفة التي لم يحتفظ التاريخ باسمها، لم تلبه إطلاقاً لشغفه الكبير، ورفضت طلبه.

تشوّقت لأعرف الصلة بين حب غير متبادل، والخصام بين الفرسان الجوالين. لاحظ بتروس اهتمامي، ووعدني أن يخبرني بقية القصة، شرط أن أنهي شطيرتي دون لباء، وأن نعاود السير فوراً قلت:

— لكأنك أمي، عندما كنت صغيراً.

لكني انتهت بقية الخبر. ثم حملت حقيبة طهري، وبدلاً باحتياز المدينة الصغيرة النائمة.

أكمل بتروس قصته:

«خرج فارسنا في عنفوانه الشخصي، وفزر أن يفعل ما يفعله جميع الناس، عندما يشعرون أنهم منبوذون، الشروع في حرب خاصة. أقسم أنه سيقوم بمأثرة هامة جداً، بحيث لا تنسى الأنسة اسمه أبداً. أخذ يفتش، لمدة شهر، عن مثال يكزس من أجله هذا الحب للطعون. وثلث مساء، سمعهم يتحدثون بالجرائم والصراعات الجارية على طريق مار يعقوب، فخطرت له الفكرة.

«جمع عشرة من أصدقائه، وأقاموا في هذه البلدة التي يجتارها. أشاع بين الحجاج، الذين يمرون من هنا، أنه مستعد للبقاء ثلاثين يوماً، وتحطيم ثلاثمائة سيف، ليثبت أنه الأقوى والأشد بسالة بين كل فرسان الطريق. أقام مع أصدقائه مختماً، وحشدوا الأعلام والرايات والخدم، وانتظروا أن يأتي الفرسان لتحديهم.

بدلت أتحيل الاحتفالات التي تقام، خباير مشوية، نبيذ بحسب الطلب، موسيقى، قصص وألعاب تراءى أمامي مشهد كامل.

وأصاف بتروس،

— «بلغت مبارزات الفروسية في ١٠ يوليو، عند وصول الفرسان الأوائل، كان كينيونس وأصدقائه يحاربون بهارة، ويفيمون الاحتفالات الكبرى ليلاً. وكانت المبارزات تجري دوماً فوق الجسر، حتى لا يستطيع أحد الهرب. في فترة ما، ارتد عند القتليين كثيراً، بحيث أن النيران كانت تبقى مشتعلة حتى الصباح. وأجبر الفرسان المهزومون على التعهد لهم لن يتقاتلوا فيما بينهم، وأن تقتصر مهمتهم، من الآن فصاعداً، على تأمين الحماية للحجاج حتى يبلغوا كومبوستيلا.

«ما هي إلا أسابيع قليلة، حتى عمت شهرة كينيونس في أرجاء أوروبا. وجاء لتحديه، بالإضافة إلى فرسان الطريق، جنرالات وجنود ولصوص، كانوا يعرفون تماماً أن من يستطيع إلحاق الهزيمة بفرسان ليون الشجاع، يصبح مشهوراً بين ليلة وصباحها وفيما كان الآخرون يسمعون خلف الشهرة، وضع كينيونس، نصب عينيه، هدفاً أنبل، حب امراء. وهذا المثال جعله يخرج منتصراً من كل المعارك.

«في التاسع من شهر أغسطس، انتهت المبارزات، وتم تكريس دون سويرو واحداً من أشجع الفرسان، وأقواهم على الإطلاق. ومنذ ذلك اليوم، لم يجرؤ أحد على الشك في شجاعته الكبيرة. وعاد المساء إلى مواجهة علوهم الوحيد المشترك اللصوص الذين يهاجمون الحجاج على الطريق الكبيرة. وقد أنت هذه اللحمة، لاحقاً، إلى تشكيل الفرقة العسكرية لار يعقوب، حامل السيف.

اجتازنا البلدة. أردت أن أقوم بنصف استنارة لألقي نظرة على «ممر الشرف»، أي الجسر الذي جرت عليه هذه القصة، لكن بتروس فزّر أن نتابع المسير.

سألت:

— وماذا حصل لدون كينيونس؟

— ذهب إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، ووصع في اللختر عقداً ذهبياً، يزين الآن عنق مار يعقوب الأكبر.
— أسأل إن كان تزوج السيدة أخيراً...

قال بتروس:

— «هذا أمر أجهله. في تلك الفترة، لم يكتب التاريخ إلا الرجال. ثم إنه، حيال مشاهد المعارك التي لا تحصى، من ذا الذي سبهم بقصة حب؟»

قال مرشدي هذه الكلمات، ثم رجع إلى صمته المهدود. ومشياً ليومين وأكثر بصمت، دون أن نتوقف تقريباً، أو لرتاح.

في اليوم الثالث اعتمد بتروس، في مشيه، إيقاعاً بطيئاً، بشكل غير عادي. قال لي كان تعباً، جزاء الجهد الذي بذله طوال أسبوع، وإن سئله ولياقته البلخية لم تعودا تسمحان له بأثباع الإيقاع السابق. مرة أخرى، كنت متيقناً أنه لا يقول الحقيقة وكان وجهه، بالإضافة إلى الإرهاق، يعكس قلقاً عميقاً، وكان أمراً خطيراً على وشك أن يحدث.

بعد الظهر، وصلنا إلى «فوسبادور»، وهي بلدة كبيرة، لكن خربة تماماً. كانت البيوت حجرية، أما سفوفها، فمن الأردواز الذي دفره الرمس، في حين أن خشب الموارص قد نقر. كانت البلدة تشرف، من إحدى الجهات، على هاوية سحيقة وكان وراء التلة الثالثة أمامنا أحد أفلس الأعاصير على طريق مار يعقوب، صليب الحديد.

هذه المرة، لما من كان متلهفاً لبلوغ هذا النصب الخريب، المؤلف من جذع يبلغ ارتفاعه مترين، ويعلوه صليب حديدي. أقيم الصليب أيام اجتياح فيسبر، تكريماً للإله عطار، بحسب التقليد الوثني. وجرت العادة أن يصنع الحجاج هناك حجرة مفولة من مكان بعيد. فاستغللت كثرة الصخور في هذه النية المهجورة، وللمت عن الأرض قطعة أردواز.

وإذ صُفِّمَتْ على حث الخطي، لاحظت أن بتروس كان يتباطأ أكثر فأكثر في مشيته، متمخضاً البهوت الخربة، ممثشاً بين جذوع الأشجار الميتة ودخائر الكتب، إلى أن جلس وسط الساحة، حيث يرتفع صليب خشبي.

اقترح،

— فلنسترخ قليلاً.

كان الوقت لا يزال نهارة، وحتى إن بقينا هنا ساعة، فسيكون لدينا الوقت للوصول إلى صليب الحديد قبل هبوط الليل. جلست قربه، وتأملت النظر المففر، الناس الذين يغثرون أمكنتهم، البهوت المتبدة التي كانت مأهولة لوقت طويل قبل أن تنهزم.

كان المكان رائعاً تُضفي عليه الجبال في الخلف، والوادي في المقدمة، جمالاً ملحوظاً. ونسألت عن السبب الذي ترك من أجله كل هؤلاء الناس مكاناً كهذا.

سألي بتروس،

— هل تعتقد أن دون سويرو كان مجنوناً؟

ومكنت قد نسيت من هو دون سويرو، وكان يعلو بتروس أن يذكرني بممر الشرف.

أجبت،

— أجل، اعتقد أنه كذلك.

مع أنني كنت أشك في صحة جوابي.

— وهو كذلك، وأيضاً راهب أفونسو الذي التقينته، وأنا أيضاً، ذلك أنني أظهر هنا الجمون في الرسوم التي أنفذهها. وحتى أنت، الذي يفتش عن سيده، إنما جميعاً بملك في داخلنا شعلة الجنون المقدسة الحارقة، التي يغذيها الحب الإلهي.

ولا يحتاج ذلك إلى غرو أميركا، أو التحدث مع العصافير، كما

كان يفعل مار فرنسيس الأسيري. إن بائع الخضر القايح على الناصية، بإمكانه أن يحترق بالشعلة المقدسة للجنون، إذا كان يحب عمله. فالحب الإلهي موجود بشكل يتخطى معه المفاهيم البشرية، وهو مُعَبِّد، لأن الجميع متعطشون إليه.

ذكرني بتروس بأنني أستطيع إيقاف الحب الإلهي، بفصل تمرين بالحركة الزرقاء، لكن، لكي يتمتع الحب الإلهي، لا ينبغي أن أخاف تغيير مجرى حياتي. إذا كنت أحب ما أفعله، فهذا ممتاز، وإلا فالوقت ملائم دوماً للتغيير. وإذا تركت التغيير يحدث، اتحول إلى أرض خصبة، تاركاً للخيال المبدع أن ينشر في بذوره.

— إن كل ما علمتك إياه، بما فيه الحب الإلهي، لا معنى له، ما لم تكن راضياً عن نفسك. وإذا لم تكن راضياً، فإن التمارين، التي لفنتك إياها، تقودك إلى الرغبة في التغيير حتماً. ولكي لا ترتد التمارين عليك، ينبغي أن تُعسج في المجال لحدوث التغيير في حياتك. إنها اللحظة الأصعب في حياة الإنسان، أن يعي أهمية «الجهاد الجسدي». لكنه يشعر أنه عاجز عن حوصه، لأنه عاجز عن تغيير حياته. عندئذ، ترتد العرفة على مالكها.

نظرت إلى منسوبة «فونسيانون». لعل هؤلاء الناس أحشوا بالرغبة الجماعية في التغيير. سألت بتروس هل اختار هذا المكان عمداً، ليقول لي ذلك.

أجاب،

— لا أعرف ما حصل هنا بالضبط. قال الناس يضطرون، دوماً، إلى تقبل التغيير الذي يفرضه القدر، لكي لا أتحدث بهذا، بل أتحدث بعمل إرادتي، ورغبة حقيقية لمحاربة كل ما لا يرضيك في حياتك اليومية.

«خلال وجوننا، تواجها، دوماً، مشاكل صعبة، اجتبار شلّال، مثلاً، دون أن تهوي... عندئذ، عليك أن تترك العنان لخيالك المبدع.

«في مثل حالتك، كانت هناك مسألة حياة أو موت. ولم يكن الوقت ملائماً للتردد؛ لقد أشار الحب الإلهي إلى الطريق الوحيدة.

«إلا أن ثقة مسائل تجبرنا على اختيار طريق من طريقين، وهي تتعلق بمشاكل تعترضنا كل يوم، كأنخاذ قرار مهم، أو قطعية عاطفية، أو لقاء اجتماعي. إن كلاً من هذه القرارات الصغيرة يمكنه أن يعني خياراً، فيه مسألة موت أو حياة. عندما تخرج من بيتك صباحاً لتذهب إلى عملك، عليك أن تختار بين وسيلة نقل توصلك سليماً معافى إلى باب مكتبك، ووسيلة أخرى تعرض ركابها لحادث ينسب بموتهم. أنظر كيف أن قراراً بسيطاً يمكن أن يتوقف عليه مصير إنسان.

جعلني كلام بتروس أفكر بقراري، لقد اخترت طريق مار يعقوب، بحثاً عن سبطي. إن سبطي هو هلفي الأهم، وعليّ العثور عليه، كيظما وفق. كان عليّ، إذن، اختيار القرار الصحيح.

أفصيت إلى بتروس بالسز الذي كان يشغلني فقال:

— إن الوسيلة الوحيدة لاتخاذ القرار الصحيح، هو الاعتراف بالقرار الخاطئ، تفحص ملياً الطريق الأخرى، دون خشية ولا اعتلال، ثم اختر.

عندئذ، علمني بتروس تمرين الظلال.

قال بتروس، بعد أن شرح لي التمرين:

— إن مشكلتك هي سيفك.

وافقته الرأي.

— فم، إذن، بهذا التمرين الآن. سألهم للقيام بجولة. وعند رجوعي، سارك قد عثرت على الحل الصحيح. أعرف ذلك.

تذكرت عجلة بتروس في الأيام الأخيرة، وحوار اللينة المهجورة، لكأنه يعثش عن كسب الوقت، ليتخذ، هو أيضاً، القرار الصحيح.

تمرين الظلال

استرخ لمدة خمس دقائق، وراقب من حولك، ظلال الأشياء والكائنات. ثم حاول معرفة الجرد الذي انعكس من الأشياء أو الأشخاص.

تابع على هذا النحو، خلال الدقائق الخمس الأولى. لكن، في الوقت نفسه، احصر انتباهك بمشكلتك التي ترغب في حلها، وادرس كل الحلول غير الثلاثة المتعلقة بها. وأخيراً، مظهر خمس دقائق، إلى الظلال، وادرس الحلول الثلاثة التي بقيت. قممها واحداً واحداً، حتى يبقى الحل الصحيح الوحيد لمشكلتك.

استعدت شجاعتي، ومارست التمرين.

مُهنت بالتمرين المتعلق بـ «نفس راح» لحكي أضع نفسي في حالة استجمام مع ما يحيطني. ثم نظرت، ربع ساعة، إلى الطلال الترامية حولي؛ ظلال البيوت الحربية، الحجارة، الأخشاب، الصليب القديم المتصب خلفي. عندما رافقت الظلال خلال الدقائق العشر الأولى، فهمت أن من الصعب معرفة أي جزء فيها كان معكوساً. فلما لم أفكر بذلك من قبل، فقد تحولت بعض العوارض المنقبة أشكالاً مفزعة، واتخذت صخرة غير متناسقة شكلاً مستديراً لدى انعكاسها. لم يصعب عليّ التركيز، لأن التمرين سحري. عندئذ، درست الحلول غير المناسبة لإيجاد سببي. عبرت خاطري أفكار لا نحصى، منذ فكرة استقلال الحافلة للذهاب إلى «كومبوستيل» حتى فكرة الاتصال بروجتي وممارسة ابتزاز عاطفي عليها لتدني على المكان الذي وصفته فيه.

عندما رجع بتروس، ابتسمت.

— ماذا إذن؟

قلت، مازحاً،

— اكتشفت طريقة أغاتا كريستي في كتابة القصص البوليسية. كانت تحول الفرضية الأسوأ إلى فرضية صحيحة. كانته حتماً تعرف تمرين الطلال.

سألني بتروس، عن مكان سببي.

— أريد، أولاً، أن أصف لك الفرضية غير الصحيحة التي كوئتها وأنا أنظر إلى الطلال، السبب غير موجود على طريق مار يعقوب.

— انت عبثي؟ اكتشفت أننا نمشي طوال هذا الوقت بحثاً عن سيفك! اعتقلت أنهم قالوا لك ذلك في البرازيل.

وتابعت:

— إنه محفوظ في مكان لا تستطيع زوجتي بلوغه، فاستمتعت

من ذلك أنه موجود في مكان علني، ولكن بطريقة لا يمكن معها رؤيته مباشرة.

لم يضحك بتروس هذه المرة. وأصغته.

— وبما أن من المحال أن يكون في مكان مزدحم بالناس، فهو، إذن، في مكان شبه مقفر. وننأى يلاحظ الأشخاص القليلون، الذين يرونه، لفرق بين سببي وسيف إسباني نموذجي، فهو موجود، إذن، في مكان لا يعرف الناس فيه التمييز بين مختلف ألباط السيوف. — هل تعتقد أنه هنا؟

— لا، ليس هنا. إنه لخطأ فادح القيام بهذا التمرين في المكان الذي يوجد فيه السيف. هذه الفرضية تخلت عنها في الحال. لكن لا بد أنه موجود في مدينة كهذه، لكن غير مهجورة، لأن سيفاً في مدينة مهجورة يجلب انتباه الحجاج والمتبرعين.

قال بتروس،

— جند جنأ.

ولاحظت أنه كان قخوراً بي، وبالتمرين الذي علمني إياه.

قلت مصرّاً،

— شيء واحد بعد...

— ما هو؟

— المكان الأسوأ لوجود سيف أحد الإخوان، هو المكان الديوي. يجب أن يكون، إذن، في مكان مقنن، في إحدى الكنائس مثلاً، حيث لا أحد يجازف بسرقته.

أقول باختصار، إن سببي موجود في كنيسة صغيرة قرب سانتياغو، على مرمى من الجميع، ولكن بطريقة لا يلتفت فيها القطار. من الآن فصاعداً، سأرور كل كنائس الطريق.

اعترض بتروس،

— لن يكون هنا ضرورياً. عندما يحين الوقت، سنتعزف إليه.

لقد نجحت.

— اسمع بتروس، لم مشينا بهذه السرعة من قبل؟ ولم يتمهل الآن في ملجأ مهجورة؟

— ما هو القرار الأسوأ برأيك؟

بطلت إلى الطلال بلمحة بصر. لقد كان على حق. فنحن لم نأت إلى هذا المكان مصادفة.

احتضت الشمس خلف الجبال، لكن ضياء حيويًا استمر حتى هبوط الليل. كانت أشعته تنعكس أيضاً على صليب الحديد، الصليب الذي أردت رؤيته، والذي يبعد من هنا بضع مئات من الأمتار. كنت أريد أن أعرف أسباب هذا الانتظار. مشينا بسرعة كبيرة طوال الأسبوع ووجدت أن الدافع الوحيد لذلك هو الوصول إلى هنا، في هذا اليوم، وفي هذه الساعة تحليفاً.

حاولت أن أفتح الحوار لفضاء الوقت ليس إلا. ولكن بتروس كان متوتراً ومركباً رأته عذبة مرفت سنيء الراج، لكن لم يسبق لي أن رأته متوتراً. وهجاء، تذكرت أنه كان متوتراً ذات مرة حين كما تناول إقطاراً في قرية سميت اسمها، قبل وقت قليل من اللقاء بـ .

رفعت نظري. كان هنا... الكلب.

الكلب، العفيف الذي طرحني أرضاً. الكلب الجبان الذي انطلق مهرولاً في المرة الثانية وعد بتروس بمساعدتي خلال لفائي المحتمل بالكلب. استندت نحوه. لم يكن قربي أحد.

طلت عيناي مسفرتين في عيني الحيوان، فيما فتشت سريعاً عن وسيلة لمواجهة الوضع. لا أحد منا قام بأى حركة. وفكرت للحظة بمبارزات الوسترن في المدن الوحشة. لم يفكر أحد في تصوير مشهد مبارزة بين رجل وكلب، فهذا غير معقول! ومع

ذلك، بت، الآن، أعيش، في الواقع، ما بدا في الخيال عبر معقول.

أمامي هنا جوقة الشياطين، إنهم كثير، وقرني بيت مهجور قتلو بدلت بالركض، فسوف أتمكن من تسلق السقف دون أن أتمكن جوقة الشياطين اللحاق بي، فهي سحابة جسد كلب، وإمكانياته.

تخلت عن الفكرة بسرعة، فيما ظللت عينا مسفرتين في عيني الكلب. لرات عدة أثناء الطريق، أرعبتني هذه اللحظة، وها قد وافت. قبل العثور على سمي، على مقابلة عوي وفصاء عليه، أو التعرض للهزيمة. لم يتبق لي إلا مواجهته إذا هربت، في هذا الوقت، فساقع في الفخ ولن يعود الكلب، وسوف يساورني الخوف حتى «سامتياغو دو كومبوستيان» كما سألتم، لاحقاً، ليالي بأكملها بالكلب، خائفاً من ظهوره ثانية، لا بل لبقيت مرتعشاً من شدة الخوف طوال حياتي.

وفيما كنت أفكر، أقدم الكلب على حركة باتجاهي عندها، ركزت، ونهيات للصراع الذي سببها هرب بتروس، وبقيت وحدي. خفت، ما إن خفت، حتى بدأ الكلب بالتوجه بيوي، قابلاً بصوت خافت. كان قباعه المضبوط أكثر تهويلاً بكثير من السباح القوي، فازداد خوفاً. جلس الكلب ضعفي في عيني، فرتني فوق.

كان كانه صخرة لطمت صدري. فوقع أرضاً تذكرت، بشكل غامض، أنني كنت أعرف موتي، وأنه لن يواظبي بهذه الطريقة. لكن الخوف تعاضم لدي، ولم أجد في السيطرة عليه صارعت فقط، لأحمي وجهي وعيني. لغة ألم صبير في فحدي جعلني أنقبض، ولتركت أن لحمي قد نهش. رفعت يدي عن رأسي، ووضعتها على جرحي. استغل الكلب الظرفه مهيناً للهجوم على وجهي، فامسكت بيدي حجراً، وصرخت الحيوان بكل ما في اليأس من قوة.

ابتعد الكلب قليلاً، والذهول في عينيه يفوق الأم جرحه. نجحت في الهوض، وتراجع هو قليلاً، لكن الحجر اللطخ بالدم أمني بالشجاعة. كان احترامي الغالي فيه لعنوي فخاً. لم يكن الحيوان أكثر شجاعة مني، ربّما كان أكثر خفة ورشاقة، لكنه ليس أكثر قوة، فانا أثقل ورثاً، وأكبر حجماً منه. تصاعل حوفي، بهد أنني فقلت السيطرة على نفسي، وبللت أروعق، والحجر في يدي، تراجع الحيوان، ثم توقف فجأة.

كان مكانه يقرأ افكاري، ففي غمرة ياسي، أحسستني قوياً، ورأيت أن من المصحك التصارع مع كلب. اجتاحني إحساس مباحيء بالقوة. وبللت ربح ساحبة نعصف في هذه اللحظة المفرة. شعرت بسام عطيم من مواصلة هذا الصراع. ففي النهاية، يكفي تسند الحجر إلى رأس الكلب كي يهرم. أدت أن أضع حناً لهذه القصة، وأعنى بجرح سافي، وأنتهي من تجربة السيف العيشية هذه، وطريق مار يعقوب الغربية

كان هذا أيضاً فخاً آخر. قام الكلب بفجرة، وطرحني من جديد أرضاً. نجح هذه المرة في تجنب الحجر بمهارة، وعضّ يدي لكي أفلت الحجر. أخذت أوجه له الضربات بيدي الفارغة، لكن دون أن أسبب له أذى جسدياً. وراح يمزق بمخالبه المستونة ملابسي وذراعي، وفهمت أن المسألة مسألة وقت ليس إلا، قليلاً، ويهيمن عليّ كلياً.

وفجأة، سمعت صوتاً في داخلي يقول إن سماحي له بالهيمنة عليّ سيوقف الصراع، وسأخرج منه سليماً، مهروماً، لكن حياً. كانت سافي تؤلّني، بل جسدي كله الذي أصابته الخدوش المحرقة. أضرّ عليّ الصوت بأن أتخلي عن الصراع، فعرفته. إنه صوت أستران «رسولي». توقّف الكلب قليلاً، وكلبه، هو أيضاً، سمع الصوت. ومرة أخرى، رغبت في التحلي عن كلّ شيء، ذلك أن أستران قال لي إن أناساً كثيرين في هذه الحياة لا يجدون سيفهم.

ما الفرق إذن؟ ما أردته هو الرجوع إلى بيتي، ولقاء زوجتي، وإحباب الأولاد، والقيام بالعمل الذي أحب. فلاكف عن هذه السخافات كلها، وعن هذه التواجهات مع الكلاب، وتسلق مساقط المياه هذه هي المرة الثانية التي أستشعر فيها ذلك. لكن الرغبة الآن، أقوى، ولديّ يقين بأنني سأستسلم في الحقيقة للقبلة.

لغنت ضجة على الطريق فتباه الحيوان. كان أحد الرعيان يسوق قطيعه إلى الحقول. وتذكرت أنني رأيت هذا الشهد من قبل، قرب خرائب قصر قديم. عندما لاحظ الكلب الخراف، انفصل عليّ، وتحضّر للهجوم عليها. كان هذا خلاصي.

بنا الراعي بالصراخ، ونفّرق القطيع مهرولاً. وقبل أن يبتعد الكلب، قاومت أكثر، لكي أترك للبهائم الوقت لتهرب، وامسكت بإحدى قدمي الكلب. كان يحدوني أمل جنوبي بأن يأتي الراعي إلى نجحتي واستعنت، للحظة، النفّة بسيفي، وبقدرة «رام».

حاول الكلب أن يتحرّر من قبصتي. لم أعد ذلك العدو، بل غدت الرعج الذي يمنع من بلوغ ما يريد، وهو الخراف. نشبت بقدم الحيوان، منتظراً راعياً لا يأتي، وخرافاً لا تهرب.

لقد أفلحتني هذه اللحظة، إذ استنقت قوة هائلة فيّ، ولم يكن وهم القوة هو الذي يسبب السأم أو الرغبة في الاستسلام. تمتع أستران من جديد، عليّ يوماً مواجهة العالم بالأسلحة ذاتها التي تتحلّني، ولا يمكنني أن أواجه كلياً، إلا إذا صرت كلياً مثله.

كان هذا هو الجنون الذي حلّني عنه بتروس في ذلك اليوم. أظهرت أنيابي، وقبعت بصوت خافت، وحفظني ينفجر من خلال الأصوات التي أطلقها ويلمحة بصر، رأيت وجه الراعي الذعور، والخراف التي تخشاني قدر خشيتها الكلب.

فهمت جوفة الشياطين هنا وخافت. عسلّني، أجهرت على

خصمي. كانت هذه المرة الأولى منذ بدء المعركة لقد هاجمت
بأسلحي وأظفري، محاولاً أن أنهش الكلب في رقبتة، تماماً كما
خشيت أن يفعل بي من قبل، حللني رغبة عظيمة في داخلي
للظفر، ولم يعد لكل ما عنده أهمية ارتفعت على الحيوان، ورميته
أرضاً. تخبط ليهتجر مني، وانغمرت أظفاره في لحمي، لكنني
غررت، أنا أيضاً، أظفري في لحمه، وعصصته

نظر إليّ الكلب برعب. فالآن، صرّث لنا الكلب، وتحول هو
إنساناً وعمل في داخله خوف يشبه خوفاً القليل، للرجة أنني
بعد أن تحزرت مني، استطعت اللحاق به، وسجته في بيت مهجور،
خلف جدار صغير من الأردوار، حيث الهاوية، وحيث لا وسيلة
للهرب. كان الكلب إنساناً ذاهباً ليلتقي وجه موته.

وهجأة، أدركت أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام. كنت فوياً إلى
حد بعيد صار معه تفكيري غائماً، رأيت وجه عجري، وصوراً
غامضة تحيط بهذا الوجه. صرّث لنا نفسي جوفة من الشياطين.
وهما تكلم قنبرتي تركت الجوفة هذا الكلب المسكين المدعور
الذي سيرثني، بين لحظة وأخرى، في الهاوية، ودخلت في شعرت
برغبة جامحة في تقطيع الحيوان الأعزل لرباً.

تمتم استرنا، أنت الأمير، وهم جوفة الشياطين. لكنني لم أتنا
أن أكون أميراً. كذلك سمعت، من بعيد، صوت معلمي يقول لي
بالحاح إن لديّ سيفاً، ويجب العثور عليه. يجدر بي أن أقاوم أكثر،
وآلاً أقبل هذا الكلب.

أكنت نظرة الراعي ما كنت أفكر فيه. كان خائفاً مني
أكثر من الكلب شعرت بالنوار، وبالشهد بترنج أمامي. لا يجدر
بي أن يغمي علي، وإلا استصرت جوفة الشياطين. عليّ إيجاد حل.
فأنا لم أعد أتصارع مع الحيوان، لكن القوة تملكني. شعرت
بساقني تصطكان، استندت إلى حائط، فابهار تحت ثقلتي، وسقطت
وسط الحجارة وقطع الأخشاب وقد التصق وجهي بالأرض.

أجل، الأرض. صارت جوفة الشياطين هي الأرض وثمار الأرض،
الصالحة منها والفاسدة، لا فرق. كانت الأرض منزل الجوفة التي
تحكم العالم، أو تخضع له، لا فرق. تفجّر الحب الإلهي في داخلي،
وغررت أظفري في القرب بكل ما أوتيت من قوة. أطلقت صرخة
تشبه تلك التي سمعتها، حين التقيت الكلب لأول مرة. شعرت أن
جوفة الشياطين تخترق جسدي وتخرج منه منحدره إلى التراب،
لأن الحب الإلهي كان في داخلي، ولأن الشياطين لم تُخلق لتغني في
الحب للثمن. كانت هذه لرائتي، الإرادة التي جعلتني أصارع الإغماء،
لإرادة الحب الإلهي المثبت في نفسي المقاوم. وارتجف كل جسدي.

أخذت لتقيها، لكنني أحسست أن الحب الإلهي كان يكبر في،
ويخرج من كل مسامي. واصل جسدي ارتجافه حتى اللحظة التي
عرفت فيها أن جوفة الشياطين عادت إلى مملكتها.

جلست أرضاً، جريحاً منسحقاً رأيت أمامي مشهداً غريباً، كلباً
مدني يهزّ ذنبه، وراعياً مدعوراً ينظر إليّ.

قال الراعي، وقد رفض تصديق ما يراه،

— لا بد أنك أكلت شيئاً. الآن وقد ثقّيت، فسوف ترتاح.

أومات براسي موافقاً. شكرني، لاني سيطرت على «كلبي»، وتابع
طريقه برفقة خرافه.

أقرب مني بتروس صامتاً. انقطع خرقه من قميصه، لفتها حول
ساقني التي تمرق بقوة. طلب مني أن أحرك أعضائي وجسدي،
واستنتج أن جراحي لم تمكن بهذه الجسامة.

قال مبتسماً،

— منظرٌ مخيف.

رجع إليه مزاحه الجيد الفادر، وقال،

— إن الذهب لزيارة صليب الحديد مستحيل اليوم، في مثل هذه
الظروف. قد يكون هناك سباح، وسوف تخيفهم بمنظرك.

لم أقم برزة فعل. بهضت. بصفت الغبار عن ملابسي، ملاحظاً أن
 في مستطاعي المشي. اقترح علي بتروس أن أقوم قليلاً بالتمرين
 المتعلق بـ «بفس رام» وحمل حقيبتني. استعنت الانسجام مع العالم
 بفضل التمرين. بعد نصف ساعة، ساهل إلى صليب الحديد.
 وبت يوم، ستبعث «فوسبادون» من خربها، فجوة الشباطين
 تركت فيها الكثير من قدرتها.

الأمر والطاعة

وصلت إلى الصليب الحديدي، مستنداً إلى بتروس، لأن ساقني
 الجريحة لا تسمح لي بالمشي وحدي. عندما استمتج مرشدي بتروس
 اللحية الذي أحفه الكلب بي، فزر أن أحلد للراحة، حتى
 أسترده قواي، بشكل يؤهلني متابعة طريق مار يعقوب، قريباً من
 المكان، كانت هناك صيغة تشكّل ملجأ للحجاج الذين ناهمهم
 الليل. ووجد بتروس غرفتين، عند حذاء، فأفطنا فيهما.

كان لشقني شرفة، وباء الشرفة ثورة هندسية، أطلقت من
 هذه القرية وعُثت جميع أنحاء إسبانيا في القرن الثامن. لمحت
 سلسلة الجبال التي عليّ تسلفها عاجلاً أم آجلاً، قبل الوصول إلى مار
 يعقوب. تهاويت فوق سريري، ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم التالي،
 محمواً، لكن طنب المزاج.

ذهب بتروس لإحضار الماء من سبيل يدعو ساكنو القرية،
 البئر التي لا مفر لها، ويظف جراحي. بعد الظهر، رجع بصحبة
 امرأة عجوز تسكن في الجوار. فوضعا أعشاباً مختلفة فوق الخدوش،
 وأجبرتني العجوز أن أشرب مغلياً مرّاً.

كل يوم، وحتى تختم الجروح، أجبرتني بتروس على لعقها.
 كنت أشعر دائماً بطعم الدم المشيح بخلاوة يخالطها مذاق معيني
 كان يثير غثياني. لكن مرشدي أكد أن الريق هو أقوى مطهر،
 وأن هذا سيساعدني على محاربة أي التهاب محتمل.

في اليوم الثاني، عاونيني الحمى، وأجبرني بتروس والعجوز على

شرب المغلي من جنيد، وغطى الجراح بمرهم جنيد للأعشاب، لكن حرارة جسمي، مع أنها لم تكن مرتفعة، لم تنخفض. عندئذ توجه مرشدي إلى قاعدة عسكرية في الجوار، ليأتي بصمات، لأنه لم يجد في القرية كلها شاشاً، ولا لصقة مشعة، لتضميد الجرح.

بعد انقضاء بضع ساعات، رجع مع الصمات، بصحبه طبيب عسكري شاب، كان يريد أن يعرف مكان الحيوان الذي عطني.

قال الطبيب العسكري، بلهجة رصينة،

— إذا تخصصنا الجرح، فسوف يتبين لنا أن الكلب مسعور.

أجبته،

— لا، إطلاقاً. كان الأمر مجرد لعبة تخطت الحدود. فلما أعرف الحيوان منذ وقت طويل.

لم يكن الطبيب مقتنعاً. أراد أن يحفظني بلقاح مضاد لداء الكلب. ورايتني مجبراً على قبول ذلك، تحت طائلة مقلي إلى مستشفى القاعدة. ثم سألني، مرة أخرى، عن مكان الحيوان الذي نهشني.

أجبته،

— في «فونسبادون».

وقال بلهجة الإنسان العارف، الذي يكتشف الكلب سريعاً،

— «فونسبادون» مدينة منتهمة. ولا كلاب شاردة فيها.

بدأت أطلق بعض التأوهات للصطبة. وقاد بتروس الطبيب إلى خارج الغرفة، بعد أن ترك لما كل ما نحتاج إليه من صمات نظيفة ولصقات مشعة ومرهم لختم الجروح.

لم يستعمل بتروس ولا العجوز المرهم. صمنا الجروح بالشاش المصنوع بالأعشاب. كنْتُ سعيداً جداً، لأنني لم أعد ملزماً بلحق جروحي. في الليل، كنا يركعان حول سرير، ويبسطان أيديهما فوق جسدي، ويبدآن بالصلاة بصوت عالٍ. سألت بتروس عن الأمر،

فأشار، بطريقة غامضة، إلى أن الأمر يتعلق بالخطوات، وبطريق روما. أصررت على معرفة الموضوع، لكنه بقي صامتاً.

بعد يومين، وكنت قد شفيت تماماً، رأيت من نافلتي جنوداً يقومون بالتحريات في المدينة والتلال المجاورة، فسألت أحدهم عن السبب.

أجابني،

— هناك كلب مسعور يرتاد الجوار.

بعد الظهر، جاء الجنود، مالك الغرف، يطلب مني مغادرة المدينة حين يصبح في مقدوري السير. انتشرت القصة بين ساكني الصبغة، وخافوا أن ينتقل داء الكلب إليهم. حاول بتروس والعجوز التفاوض مع الرجل، لكنه لم يتراجع عن رأيه. ووصل به الأمر إلى التأكيد أمامنا أنه رأى خيطاً من الربد يسيل من شقوق شفتي أثناء النوم.

لم تقنع الحجة الفائلة أن جميع الناس قد نظروا عليهم تلك الظاهرة أثناء النوم. هذه الليلة، راحت العجوز ومرشدي يصليان بحرارة، ولوقت طويل، وأيديهما مبسوطة فوق جسدي.

في اليوم التالي، كنت أعرج قليلاً، لكنني تابعت السير على طريق مار يعقوب. سألت بتروس عما إذا كان قلقاً بشأن شفائي.

أجابني،

— على طريق مار يعقوب، قاعدة لم أحنكك بها، تقول، ما إن نباشر بالسفر، حتى يصبح العنبر الوحيد لقاطعة السفر هو المرص. فلذا لم تعد قادراً على مقاومة جراحك، ولذا استمرت الحفي، فهذا يعني أن رحلتنا يجب أن تتوقف هنا.

ثم أضاف، بمخمر،

— لكن صلواتنا مستجيبة.

وتيقنت أن هذه الشجاعة كانت ضرورية له، بمقلار ما هي

صروية لي. كانت الطريق مكنها تسحر، ويتهي بتروس إلى أن ذلك سوف يستمر يومين أيضاً، استعداداً لإيقاع سيرما للعهد الذي توقفه قبلولة بعد الطهيرة، حين يشتد حز الهاجرة. كان بتروس يحمل حقيبة ظهري، بسبب صمادات يدي. ولم يعد هناك ما يدعو إلى العجلة، فالواجهة الأشد خطورة قد مرت بسلام.

تحسنت حالتي خلال ساعات قليلة، وسكنت فخورة بنفسي، بما فيه الكفاية. تسلفت مسقط الماء، وضللت شيطان الطريق. والآن، بقيت لدي المهمة الأجل، العثور على سيمي، وقد قلت ذلك لبتروس. — كان النصر جميلاً، لكن فانتك الأهم.

سأرتني كلامه في مكاسي.

— ماذا يعني ذلك؟

— فانتك التعرف إلى اللحظة الفعلية لبدا القتال. فلما أسرعت الخطى ومشيت حثيثاً، فيما كان كل ما يشعلك هو البحث عن سيفك. بم يهيد السيف رجلاً يجهل أين سيلتقي عنده؟

أجبت:

— سيمي أداة قوتي.

— أبت شديد الاعتماد بقدرتك. فقد أساك مسقط الماء وتمازى رامي ومحاوراتك مع «رسولك» أن هناك عدواً يجب القضاء عليه، وأنت كنت على موعد معه قبل أن توخه اليد السيف، عليها أن نحدد موقع العدو، ونعرف كيف تواجهه. فالسيف يقوم بالصربة فقط، لكن اليد هي المستصرة أو الخاسرة، قبل المباشرة بهذه الصربة.

نبحث في زخر الشياطين من دون سيفك. وطل سز يكمن وراء سعيك، سز لم تكتشفه. لكنك من دونه لن تعرف عما تبحث عنه.

بقيت صامتاً، ففي كل مرة اعتقد فيها أنني اقترب حقاً من

هنا، يصنعي بتروس في شعوري هذا، ويرتد أنني مجرد حاج بسيط ينقصه يوماً شيء أساسي للوصول إلى هدفه. وهكذا احتفى شعوري بالسعادة، بعد لحظات من هذا الحوار.

مرة أخرى، وجلتني في بلدية طريق «سانتياغو»، فأشعري ذلك بالإحباط. لقد غير هذه الطريق، التي تدوسها قدمي، ملايين الحاج على مدى اثني عشر قرناً، ذاهبين إلى «سانتياغو» دو كومبوستيل، وعائدين منها. كانوا يرون في الوصول إلى المكان المحند مسألة وقت، ليس إلا. لكن، في مثل وصفي، كانت الأفخاخ، التي ينصبها «البرث»، تصنع يوماً حاجراً جليداً على طريقي يجب تجاوزه، وتفرض خياراً يجب تجنبه.

قلت لبتروس لي أشعر بالنعب وجلسا في ظل المحر، حيث كانت الصلبان الخشبية الكبيرة تحف بالطريق. وألقى بتروس الحقيبتين أرضاً.

وأضاف:

— يمثل العدو، دائماً، جانباً الأضعف، الذي قد يتجلى عبر الخوف من الألم الجسدي، أو الشعور المسبق بالنصر، أو الرغبة في ترك المعركة، قائلين إن الأمر لا يستحق العناء. إن عدوياً لا يقوم بالصراع، إلا أنه يعرف أنه قادر أن يمال مناً، وبالتحديد في اللحظة التي تصور لنا كبريائاً فيها أننا لا نفهم. ويسعى خلال الصراع إلى الدفاع عن جانبنا الأضعف، فيما العدو يصرب الجانب الأقل حماية، الجانب الذي يثق به تماماً، في النهاية، لأن ما حدث يجب ألا يحدث. تركنا العدو اختيار طريقة القتال.

كان كل ما تحدث عنه بتروس قد حصل لي خلال عمرك مع الكلب، أنني رفقت، أثناء ذلك، فكرة أنني أواجه عدواً، وأني مضطر إلى صراعه. عندما ألح بتروس إلى «الجهاد الحسن»، لم يكن اعتقادي إلا بأن الأمر يتعلق بالصراع من أجل الحياة.

قال، عندما شاطرته شكوكي،

— أبت على حق، لكن الجهاد الحسن لا يقتصر على ذلك، فشن الحرب ليس حطينة، بل إنه فعل خب. ذلك أن العدو يعطينا دوماً فرصة التقدم، وتحقيق ذواتنا، وهنا ما فعله الكلب معك.

— ومع ذلك، فإنك لا تبدو أبداً راضياً. هناك دائماً شيء ناقص. والآن حدثني عن سر سفي.

أجاب بتروس أن هذا السر كان علي معرفته، قبل الشروع في السفر. وتابع يتحدث عن العدو.

— يمثل العدو شرارة من الحب الإلهي. وما كان إلا ليجذب بنا وإرادتنا، والطريقة التي نستعمل بها سفيها. ثمة غاية من وجوده في حياتنا، ووجودنا في حياته. وهذه الغاية يجب أن نتفهم. وهكذا يكون الهروب من المعركة أسوأ ما يمكن أن يحصل لنا، أسوأ من أن نخسر الصراع، لأن الهزيمة تعلمنا دوماً شيئاً ما، لكن الهرب لا يخولنا إلا الاعتراف بنصر عدونا.

فوجدت لدى سماعي بتروس يتحدث بهذه اللهجة العنيفة، وهو الذي بدا شديد التعلق بيسوع المسيح، وقد قلت له ذلك.

قال،

— فركز بضرورة بهونا ليسوع، الذي كان عليه اختيار عدو، وإلا فإن مصاله على الأرض، لن يكتب له المجد.

كانت الصليبان الخشبية، المنتشرة على الطريق، تظهر أن هذا المجد قد شُيد بالدم والخيانة والسكران. نهضت، وأعلنت استعلائي لمتابعة السفر.

أثناء الطريق، سألت بتروس عن نقطة الارتكاز الأقوى التي يستطيع الإنسان الاعتماد عليها، أثناء الصراع لهزم العدو.

— إنها حاضره. فالإنسان يعتمد أكثر ما يعتمد على ما يفعله الآن، لأن فيه مكن الحب الإلهي، الذي يمنه بالحماس للانتصار.

أريد أن يكون هذا واضحاً لديك. نادراً ما يمثل العدو الشر. فالعدو هنا، لأن السيف الذي لا يُستخدم، يصدا في غممه.

عدت بالذاكرة إلى الفترة التي كنا نبني فيها بيتاً في الريف.

فيومها، قزرت زوجتي، فجأة، أن تغفر موقع إحدى الغرف. وكانت تلقني على كاهلي المهمة الصعبة، وهي أن أنقل إلى البناء رغبتها في هذا التغيير. كان البناء رجلاً ستيدياً وعندما عبرت له عن رغبتني، نظر من حوله، ثم فكر، واقترح حلاً لفصل بكثير، يسمح باستعمال الحائط الذي باشر برفعه. ووجدت زوجتي الفكرة رائعة.

لعل بتروس ينوي محادثتي عن ذلك بكلمات صعبة، استخدام القوة، التي نحن بصدد ممارستها، من أجل الانتصار على العدو. وأخبرته قضية البناء.

ختم قائلاً،

— تعلمنا الحياة على الدوام، أكثر منا تعلمنا طريق «سانتياغو»، لكن المشكلة أننا لا نملك إيماناً قوياً بتعاليم الحياة.

كانت تفصل، بين الصليب والآخر من الصليبان المنتشرة على طريق مار يعقوب، مسافة ثلاثين متراً لا بد أن حاجباً، يملك قوة تفوق قدرة البشر، قد صنعها. لأن وحده من أوتي هذه القوة، يستطيع رفع هذا الخشب التين الصليب.

سألت بتروس عن معناها، فقال،

— أداة تعذيب قديمة تجاوزها الزمن.

— لكن ماذا تفعل بها؟

— لعل أحدهم وفي ندرأ، كيف لي أن أعرف؟

توقفنا أمام أحد الصليبان المحطمة.

قلت،

— لعل خشبه تعفن، فهو.

— إنه مصنوع من الخشب نفسه الذي صنعت منه الصليبان الأخرى، لكن آياً منها لم يتعفن.

— إذا لم يُغرز بقوة كافية في الأرض.

نظر بتروس من حوله، رمى حقيبته أرضاً، وجلس.

لم أفهم تصرفه، فكنا قد استرحنا قبل ذلك بضع دقائق.
وبحركة غريزية، نظرت من حولي معشاً عن الكلب.

قل، وكأنه يجلس أفكاري.

— هزمت الكلب، فلا تخف من شبح الموتى.

— لماذا توقفتا إذن؟

أشار علي بتروس بالسكوت. وظل بصع دقائق صامتاً. شعرت
بالخوف القديم من الكلب يعاونني. وقررت السهوض، منتظراً أن
يقزر الكلام.

سال، بعد فترة من الوقت، غير وجيزة،

— ماذا تسمع؟

— لا شيء. الصمت فقط.

— «لبنّا كنّا على درجة عالية من الحكمة، بحيث نسمع
الصمت! لكننا بشر، ولا نعرف حتى أن نسمع نثرتها لم تسألني
قط كيف حدثت وصول جوفة الشياطين. أين صامول لك، عن
طريق السمع بدأ الصوت قبل أيام، عندما كنّا في «ستورغام»
وبتلاقاً من هناك، رحبت أمشي بخطى حثيثة أكثر، في كل
شيء كان يؤكد أن طرقاتنا ستلتقي في «فونسيادور» وسمعت
الصوت نفسه! لكنك لم تصب.

«كل شيء مكتوب في الأصوات، ماضي الإنسان، حاضره
ومستقبله، إن الإنسان، الذي لا يعرف أن يصغي، لا يمكنه سماع
الصائح التي تخلفها الحياة في كل لحظة. وحده ذلك الذي يسمع
صوت الحاضر يمكنه اتخاذ القرار الصحيح.

طلب مني بتروس أن أجلس، وأنسى أمر الكلب. ثم علمني
إحدى ممارسات «رام»، الأسهل والأهم على طريق مار يعقوب.

وهكذا شرح لي بتروس «تمرين الإصغاء».

تمرين الإصغاء

استرخ، وانغمض عينيك.

حاول، لبضع دقائق، أن تعصر نفسك بالصوت المحيطة بك، وكأن
الأمر يتعلق بأوركسترا يعرف فيها جميع الويوليين.

حاول أن تميز، تدريجاً، الأصوات. هذه الأصوات كلها، الواحد تلو الآخر،
وكنك تستمع إلى آلة تعزف بمفردها، وفمن الباقي.

في ملاحظة هذا التمرين بشكل يومي، فسوف تسمع أصواتاً تتصورها
للوهلة الأولى فترة خيالك، ثم تتكشف أنها أصوات أشخاص، أصوات ماضية، أو
حاضرة، أو مستقبلية، تشكل جزءاً من ذاكرة الزمن.

ولا يمكنك ممارسة هذا التمرين، إلا إذا كنت تعرف، ابعداً، صوت
«رسولك».

لما أخذ الناس لهذا ممارسته، فهي عشر دقائق.

قال بطروس:

— مارس التمرين في الحال.

وشرغث في التمرين. سمعت صوت الريح، وصوتاً نسانياً في البعيد، وصوت غصن يتكشر في وقت ما. لم يكن التمرين صعباً، وقد فتنني سهولته. ألصقت أذني بالأرض، واستمعت إلى الصوت الصاخب للأرض. وتدرجاً، أخذت أميز الأصوات: صوت الأوراق الجامدة، صوت في البعيد، خفقات أجنحة، قباع حيوان لم أتمكن من تحديده. ومزت الدقائق الخمس عشرة للتمرين سريعاً.

قال بطروس، دون أن يسألني عن الأصوات التي سمعتها:

— مع الوقت، ستري أن هذا التمرين سوف يساعدك على اتخاذ القرار الصحيح. إن الحب الإلهي يُعتبر عن نفسه من خلال الحركة الزرقاء، لكنه يُعتبر أيضاً من خلال النظر واللمس والشم والقلب والسمع. سنبدأ بسماع الأصوات خلال أسبوع، كحذ أقصى. بدايةً، سنكون الأصوات خجولة، لكنها، تدريجاً، ستكشف لك أسراراً هائلة. انتبه فقط، لرسولك، فقد يحاول خداعك، وما دمت تعرف صوته، فلن يشكّل لك تهديداً.

سألني بطروس ليعرف ما إذا كنت قد سمعت النداء الفرح لأحد الأعداء، أو دعوة امرأة، أو سِر سفي.

أجبته،

— سمعت، فقط، صوتاً نسانياً في البعيد، لكنه صوت فلاحه تنادي أبها.

— انظر، إذن، إلى هذا الصليب المائل أمامك واجعله ينتصب بقوة فكرك وحده.

سألته عن هذا التمرين.

— إنه الإيمان بالمكر.

جلست، أرضاً، في وضعية رجل يمارس اليوغا. عرفت أنني بعد

كل ما أنجزته: الكلب، مسقط الماء، ساجح في هذا أيضاً. حذقت إلى الصليب. تخيلت نفسي خارجاً من جسدي، ممسكاً بفروعه، ورافعاً يديه بفصل جسدي الكوكبي. أثناء سيرتي على نهج اليراث، أنجرت بعض هذه الحجرات الصغيرة، وتمكنت من تحطيم أقنح ونمائل من البورسلين، ونقل أشياء من موضعها على الطاولة. كانت هذه الطريقة سهلة، ولم تكن مرادفاً للقنطرة، لكنها تساعد كثيراً على إقناع الكفار. لم أمارسها من قبل، مع شيء بهذا الحجم وبهذا الوزن، كمثال الصليب. لكن، إذا كان بطروس قد أمر بذلك فهذا يعني أنني سأتمكن من النجاح.

حاولت كل ما في وسعي لئلا نصف ساعة استخدمت السحر الكوكبي والإيحاء. تذكرت كيف أن العلم كان بسيطاً على قوة الجاذبية، وحاولت أن أتذكر الكلمات التي كان دائماً يتلفظها في مثل هذه الظروف. لم يحدث شيء. بذلت كل جهد، وركرت على إنجاز المهمة، لكن الصليب ظل ساكناً. استدعيت أسرارتي الذي ظهر بين أعمدة البار لكن، عندما حدثته عن الصليب، قال إنه يكره هذا الشيء.

وأخيراً، هزني بطروس، وأخرجني من رجلي،

— هيا، الأمر بات مرعجاً إذا كنت لا تستطيع رفع الصليب بواسطة الفكر، فاجعله ينتصب لأن بمساعدة يديك.

— بمساعدة يدي؟

— أطلع!

انفصت. وجلتني فجأة أمام رجل قاسٍ يختلف تماماً عن ذلك الذي اعتنى بتصميم جروحي. لم أعرف ما علي أن أقول أو أفعل.

— أطلع! هذا أمر!

كنت مصفد الذراعين واليدين منذ صراعي مع الكلب، لم

أصنق ما سمعته أني. أريته ضماناتي دون أن أتيس بكلمة لكنه ظل يطر إلي ببرودة وبدون تأثير كان ينتظر أن أطيع إن هذا المرشد والصليق الذي رافقي طوال الوقت، وعلمي ممارسات «رام»، وروى لي القصص الجميلة عن طريق «سانتياغو»، قد اختفى ليظهر مكانه رجل يطر إلي وكاني عبث له، وبأمري أن أقوم بعمل آخر.

كثرة

— ماذا تنتظر؟

تذكرت مسقط الماء، وتذكرت أن الشكوك، ذلك المهار، قد خامرتني بصند بتروس، وأنه كان شهماً حيالي، وأنه أظهر لي حبه ومنعني من التخلي عن سيمي. لم أكن ألهم كيف أن رجلاً سخياً مثله يصبح، فجأة، بهذه القسوة، ويجسد كل ما يحاول الجسم البشري جاهداً التخلص منه، ألا وهو اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان.

— بتروس، أنا

— أطف، وألا انتهى أمر طريق «سانتياغو».

عاودني الخوف، كنت خائفاً من بتروس خوفاً يفوق ما شعرت به أمام مسقط الماء، ويفوق خوفاً من الكلب الذي قض علي مصمعي وقتاً طويلاً جداً. توصلت يائساً إلى الطبيعة، لكي تظهر لي أية تنبج من رؤية أو سماع ما يبزر هذا الأمر الأخرق الذي أملاه علي بتروس لكن كل شيء بقي، من حولي، ساكناً. كان علي إطاعة الأمر، أو نسيان سيمي. مرة أخرى رفعت، في وجه بتروس، دراعي المصفتين، لكنه بقي جالساً على الأرض، منتظراً تنفيذ الأمر.

فقررت، عسلج، الطاعة

مشيت حتى الصليب، وحاولت أن أدفعه بقدمي لأروز ثقله. ولم أتمكن من تحريكه. لو كانت يدي طليعتين، لشعرت بصعوبة كبرى في رفعه، ولكن، بيدي الصفتين، ستكون المهمة شبه مستحيلة. لكنني سأطيع ساموت هذا، لو لرم الأمر، وسأغرق دماً، كما غرق يسوع دماً، عندما حمل صليبه الثقيل. لكن بتروس سيكتشف كرامة نفسي. أو لعل هذا سيؤثر في عاطفته، ويعتني من هذا الاختبار.

كان الصليب محطماً عند قاعدته، لكنه ظل معلقاً ببعض ألياف الخشب. لم يكن لدي سكين لأقطعها. تخطيت الألم، وأمسكته، محاولاً إقتلعه من قاعدته المحطمة، دون أن أستعمل يدي. احتسكت جروح دراعي بالخشب، ورعقت ألماً. نظرت إلى بتروس الذي بقي بارداً وفقرت أن أبتلع صراخي، وأدنيه في قلبي.

استنحت أن الصعوبة المباشرة لا تقتصر على نقل الصليب من مكانه، بل على تحريره من قاعدته، ثم تشكيل حمرة في التراب ودفعه إليها. اخترت حجراً مسبوياً تخطيت الي، ورحت أصرب ألياف الخشب ولبردها.

كان الألم يترايد في كل لحظة، والألياف تستجيب ببطء علي الانتهاء بسرعة، قبل أن تفتح جروحي، فيصبح الأمر غير محتمل. لكنني قررت إجاز العمل ببطء أكبر، حتى أنتهي منه قبل أن يبال الألم مني. انتفعت قميصي ولغمتها حول يدي، وبدأت العمل بحماية أفضل. كانت هذه فكرة جيدة، قطع أول ألياف الخشب، ثم الثاني. جفعت حجارة مسبوة، واستعملتها الواحدة تلو الأخرى، حتى تحققت سخوة يدي من تأثير الألم. تحطمت كل ألياف الخشب تقريباً، فيما صمد الليف الرئيسي، وبدأت أعمل، بشكل محموم، لاني كنت أعرف أني سأصل قريباً إلى النقطة التي يصبح فيها الألم غير محتمل. المسألة مسألة وقت، وعلي أن أسيطر على نفسي. كنت أصغط وأصربه وأنا أشعر أن بين الجلد والصمادة مادة

لدرجة تحذ من سهولة حركاتي قلت في نفسي، لا بد أنه دم، لكي تجبت التفكير في ذلك. وفجأة بدا أن التيف المركزي قد انصاع أخيراً لصرباتي. كنت مفعلاً بعصبية، إذ نهضت متوتباً ومستجمعاً كل قواي، واهلت بصرية عيفة من قلبي على الجذع. سقط الصليب على جانبه سقطلة صاحبة، متحرراً من قاعدته.

لم تدم فرحتي إلا ثواني قليلة. بدأت يدي ترتجفان بقوة، وأنا لا زلت في بداية عملي. نظرت إلى بتروس، فرائته ناتماً فكّرت، لوهلة، بوسيلة لرفع الصليب دون أن يئته إلى الأمر. لكن هذا بالصبط ما أراده مني: أن أرفع الصليب. لم أكن أملك أي وسيلة لخدمه، لأن المهنة متعلقة بي وحدي.

نظرت إلى التراب، التراب الأصفر البابس. من جنيد، كانت الحجارة مغلّية الوحيد. لم أعد أستطيع استخدام يدي اليمنى التي استشرى فيها الألم، واستمرت نهر تلك المادة اللزجة التي تثير قلبي بشكل فظيع. انتزعت ببطء القميص التي لففتها حول ضمائتي، كان الدم يرفع الشاش، ولكن الجرح لا يزال شبه مخنوم. إن بتروس لنوحش.

ذهبت لأفثش عن حجر أكثر ثقلاً. لففت القميص حول يدي اليسرى، وبللت أصرب وأحضر الأرض عند أسفل الصليب. تقمّمت بسرعة في سعبي، لكي ما لبتت أن اصطلمت بالتراب الفاسي والجاف. تابعت الحفر، لكنّ صلابة التراب جعلت عملية الحفر شاقّة. وقررت ألا أوسع الحفرة كثيراً، حتى أتمكن من إدخال الصليب فيها دون أن يرتخي عند القاعدة. وقد ضاعف ذلك من صعوبة انتشار التراب في العمق. كفت يدي اليمنى عن إيلامي، لكن الدم المتجمد أشعري بالفثيان. ثم أن الحجارة كانت تملق من بين أصابعي كل لحظة، لأنني لم ألب العمل بيدي اليسرى.

حفرت وقتاً لا متهاياً وكنت، كلّما صربت الأرض بالحجارة، وأدخلت يدي في الحفرة لأنتشل التراب، أفكر ببتروس. نظرت إلى

نومه الساكن، وحكرهته من أعماق قلبي. لا الضخمة ولا حقدي يؤثران فيه، على ما يبدو. فكّرت أن بتروس لديه أسبابه، لكني لم أهتم سبباً لهذا الاستعداد، وللطريقة التي ينلني بها. عندئذ، أضحي التراب أمام وجهه، فصربته بالحجر، بعثنتي الغضب السعور الذي كان يحفري على الحفر أعمق فأعمق. عاجلاً أم آجلاً، سأجح.

كنت مسترسلاً في هذه الفكرة، عندما اصطلمت الحجارة بشيء صلب، وأفلنت مني مرة أخرى. حصل ما كنت أخشاه، لقد حفرت طوال هذا الوقت لأصطلم بصخرة عريضة، تمنعني من الذهاب بعيداً في سعبي.

نهضت، مسحت العرق عن وجهي، وفكّرت. لم تكن لدي القوة الكافية لنقل صليبي، ولا يمكنني أن أعاود كلّ شيء، لأن يدي اليسرى، وبعد أن توقفت، بدأت تسري فيها إشارات نوحى بالحذر الكامل. كان هذا أسوأ من الألم، وقد أثار قلقي. نظرت إلى أصابعي، حرّكتها، فاستجابت، لكن غريرتي أشارت عليّ بوجوب ألا أحفل يدي أكثر مما تحتمل.

تاملت الحفرة. لم تكن عميقة كفاية لتحمل قاعدة الصليب.

إن الحل الأسوأ يعلمك الأحسن. تذكرت تمرين الظلال، وجملة بتروس. كان يقول، دنماً وبالاح، إن تعاليم «رام» لا معنى لها، ما لم أطبقها لمواجهة تحديات الحياة اليومية. لا بد أن تعاليم «رام» مفيد في شيء، حتى في وضع مستحيل كهذا.

إن الحل الأسوأ يرشدك إلى الأحسن. والحل المستحيل يعتمد على نقل الصليب، في حين أنني لا أملك القوة على فعل ذلك. كما أن الحل المستحيل يتمثل، أيضاً، بالاسترسال في حفر التراب عميقاً إن

كانت الوسيلة السيئة تقوم على التوغل عميقاً في التراب، فإن
الوسيلة الملائمة، هي رفع مستوى الأرض. ولكن كيف؟
وفجأة، عاد إليّ كل حبي لبتروس. لقد كان على حق. فلما
استطيع رفع مستوى الأرض.

بدأت أجمع كل الحجارة المتوافرة أمامي، وأضعها حول الثغرة،
وامرجها بالتراب الذي انفضلت. وبعد جهد كبير، رفعت قليلاً أسفل
الصليب، وثبته بالحجارة، بحيث يبدو أعلى بعد مصي نصف ساعة،
كان التراب مرفوعاً، والحفرة عميقة بما يكفي.

لم يتبق لي، والحالة هذه، إلا أن أجنب الصليب وأدفعه إلى داخل
الحفرة. إنه جهد أخير. وكان لا بد من النجاح. كانت إحدى يدي
مخبرة وبالثابة أتم، وتعلو ظهري بعض الخدوش. ولم يكن أمامي
إلا أن أتمدّد تحت الصليب وأهض تدريجاً، لأتمكن من دفعه إلى
الداخل.

تمنّيت على التراب، وملاً الفجاءة فمي وعيني. كانت يدي
مخدّرة، لكن، باستفاضة أخيرة، رفعت الصليب قليلاً، وانزلت
نحته. تذبّرت أمري بحذر، ساعياً أن يحاذي الصليب عمودي الففري.
توقّعت مرات عدة أن يزلق الصليب، لكنني عملت بهبط شديد،
متحاشياً قدر الإمكان اختلال التوازن، ومصيحاً وصعياً جسدي
باستمرار. وأخيراً، اتخذت الوضعية الجسدية، جعلت ركبتي إلى
الأمام، وحملت متوازياً فوق ظهري للوهلة الأولى، تدحرج أسفل
الصليب فوق ثلة الحجارة، لكنه ما لبث أن عاد إلى مكانه.

فكرت، وأنا أكاد أنسحق تحت ثقل الصليب وكل ما يمثلته،
بأن كل ما كان يقصني هو إيفاء الكون. اجتاحتني شعور
بالورع العميق. تذكرت أن أحداً ما قبلي حمل الصليب فوق ظهره،
وأن يديه الجريحتين، كيدي، لم تكونا فائرتين على تجنب الألم

والخشب. كان شعوراً دينياً ممزوجاً بالعذاب، طردته فوراً من
روحي، لأن الصليب فوق ظهري قد عاود ترنحه.

عندئذ، نهضت بهبطاً، وفكرت بالولادة من جديد. فلما لا
استطيع النظر إلى الوراء ولم تكن من وسيلة لتوجيهي سوى
الأصوات. منذ قليل، تعلّمت أن أصغي إلى أصوات العالم، وكان
بتروس حتمس لنفي ساحتاج إلى هذا النوع من العرفة. شعرت أن
ثقل الصليب قد خفّ قليلاً، وأن الحجارة عادت إلى أمكنتها
سمرتفع الصليب بهبطاً، ويعتقني من هذا الاختبار، ويرجع، كما
كان، مجزّد زينة لطريق مار يعقوب.

لم يتبق، لأن، إلا الجهد الأخير، فعندما أجلس على كاحلي،
سينزلق الصليب في الحفرة. تحرك حجر أو اثنان، لكن الصليب
كان يساعطني آنذاك، لأنه لم يبتعد كثيراً عن المكان الذي رفعت
فيه التراب. وأخيراً، أنباني ارتجاج في ظهري أن القاعدة قد تحرّرت.
إنها اللحظة الحاسمة، وهي أشبه بتلك اللحظة التي عبرت فيها
الشلال، اللحظة الأصعب لأنها يخاف الحسارة، وبفضل التخلّي عنها
قبل حصولها. شعرت، مرة أخرى، بسخافة مهفتي التي تقوم على
رفع الصليب، في حين أن رغبتني كانت أن أعثر على سبقي، وأقلب
كل الصليب، حتى يبعث المسيح الفادي. لا شيء من ذلك كان
مهتماً. قمت بحركة عنيفة، ويزلق الصليب عن ظهري، وأنا على
يقين بأن القدر هو الذي قاد عملي.

كمت أنتظر أن بهوي الصليب من الناحية الأخرى، جازفاً معه
كل الحجارة التي جمعتها. خشيت أن تكون وثبتي غير كافية،
وأن يقع الصليب فوق من جديد. لكنني سمعت، فقط، الصوت
لصاحب الناجم عن ارتطام شيء ما بالأرض.

استدّرت يدي. كان الصليب منتصباً، ومترنحاً قليلاً تحت
وطاة الدفع. تدحرجت بعض الحجارة عن التلة، لكن الصليب لم
يسقط. قمت بسرعة، وأرجعت الحجارة إلى أمكنتها، وأحطته

بدراعي، لموقف تمايله. أحسسته حباً ودافئاً ووثقاً وصديقاً، طوال فترة عملي.

«الميراث»

كنت أفضل لو انني رفعت شجرة. عندما حملت هذا الصليب فوق ظهري، قلتُ في نفسي إن السعي وراء الحكمة يحمل للناس طعم التصحية.

في المكان الذي أمثل فيه الآن، بدت كلماتي وكأنها مجزأة من أي معنى. وبدأ لي فصل الصليب حزيناً بعيداً لم يحصل البارحة، بل قبل ذلك بوقت طويل. وهو لا يتلاءم إطلاقاً مع غرفة الاستحمام برخامها الأسود، أو مع الماء العاتر في مغطس التدليك اللائي، أو مع مكاس الكريستال وما تحويه من بيهد «ريوفا»، الذي احتسبته على مهل.

كان بتروس بعيداً عن دائرة نظري، في غرفة الفندق الفخم الذي حللنا به.

قلت بإصرار،

— لم الصليب؟

هتف مرشدي من غرفته،

— تعذبت كثيراً لأقنع البواب القابع عند المدخل أنك لست متسولاً

لقد غيّر بتروس الحديث. وبت أعرفه بالخبرة أن من غير المجدي الإصرار أو العائنة. نهضت. لبست ببطالاً وقميصاً بطيعة، وأعلنت تضميد جراحي. أبعدت الرباط بحذر، متوقفاً أن أجد

بطرت معجباً إلى ما قمت به، لكن عاويني ألم جراحي. كان بتروس لا يزال نائماً. اختربت منه، وركلته بقدمي. استعاق فجأة، ونظر إلى الصليب علق قائلاً:
— هذا ممتاز. في «بوفزاند»، نغير كل ضمانتك.

www.newity.com
By Dalyia

جروحاً، لكن قطعة متخثرة من الدم قشرت، تاركة قليلاً من الدم. ختم جرح جديد، وأحسستني متعافياً، أنمتع بصحة جيدة.

جلسنا لتناول العشاء في مطعم الفندق. وأمر بتروس بإحضار الطبق الخاص بالمنينة، وهو «السمكية»^(٥) على الطريقة الفالسية، تناولناه بصمت، ونحن نحتسي ببيذ «ريوخا» اللذيذ. عند نهاية العشاء، دعاني بتروس للقيام بجولة.

خرجنا من الفندق، واتجهنا إلى محطة سكة الحديد. استعاد بتروس سكوته العهود، وبقي صامناً طوال المرحلة. بلغنا مخزن الحافلات، الذي كان وسطاً، وتنبعث منه رائحة الريح. جلس بتروس على مرصاة إحدى الحافلات الكبيرة.

قال،

— لنسترخ.

لم أكن أريد أن يثسخ بنطالي ببقع الزيت، وفضلت البقاء واقفاً. سألته ما إذا كان من الأفضل أن نمشي حتى الساحة الرئيسية لـ «بوفزانا».

قال مرشدي،

— طريق مار يعقوب شارفت الانتهاء. وبما أن حقيقتنا أقرب إلى هذه الحافلات التي تنبعث منها رائحة الريح أكثر منها إلى الحلوات الرعوية التي صانفهاها في طريقنا، فمن الأفضل، إذن، أن ينتهي حديثنا اليوم، هنا، في هذا المكان.

طلب مني أن أنزع حذائي وقميصي، ثم أرخى ضمانات ذراعي، ليجعلها أكثر لينة. لكنه أبقي على ضمانات يدي.

وقال،

— لا تحرر. لن تكون في حاجة إلى يديك الآن، ولن تضطر إلى الإمساك بأي شيء.

(٥) السمكية، طعام إسباني مكون من لرز ولحم وخضار وأنواع مختلفة من الأسماك.

كان حديثاً أكثر من العادة، فأعصبتني ببرة صوته. فتمة حدث جلال على وشك الوقوع

عاود بتروس الجلوس، ونظر إليّ وقتاً طويلاً. ثم أضافه

— «لن أقول لك شيئاً عن فصل البارحة، ستكتشف بنفسك معناه، ولن تتوصل، إلا إذا قررت يوماً أن تعبر طريق روما، التي تمثل طريق الخطوات والعجائب. سأقول لك شيئاً فقط، إن الناس الذين يعتبرون أنفسهم حكماء، يقعون في الحيرة لحظة صدور الأمر، وفي العصيان لحظة الطاعة. يحتفلون أن من المخجل إعطاء الأوامر، ومن العيب تلقبها. لا تنصرف هكذا البتة.

«بعد قليل، عندما كنت في الغرفة، قلت إن طريق الحكمة نفوذ إلى التصحية، وهذا خطأ إن نلزيك لم يته البارحة يجب أن نعتبر على سبيلك، وعلى السز الذي يحتويه إن ممارسات «رام» نفوذ الإنسان إلى خوض «الجهاد الحسن»، وتوفير المزيد من الحطوط له كي يتصر في الحياة. وما التجربة التي قمت بها إلا اختبار طريق، تحضيراً لطريق روما إذا شئت، وبحرسي أن تعتقدتها كذلك»

كان صوته يسطوي على حرب حقيقي. وكنت قد لاحظت أن الشكوك في ما علمني إياه كانت تساورني طوال الفترة التي قضيناها معاً لم أكن، مثل كاستانيدا، وضيقاً وقوتاً حيال تعاليم دون خوان، ولكني كنت رجلاً متكبّراً وعاصياً حيال البساطة المدهشة لممارسات «رام». كنت أريد أن أقول له ذلك، لكن الوقت كان قد تأخر.

قال بتروس،

— أغمض عينيك، وقم بـ «مفس رام» وحاول أن تصع بنفسك بانسجام مع هذا الحديد، مع هذه الآلات ورائحة الريح هذه. ذلك هو عالماً. لا تفتح عينيك، إلا بعد أن أنهى حديثي، وألقنك تمريناً جديداً

حصرت تفكيري بالنفس. أغمضت جفني، واسترخى جسدي تدريجاً. سمعت صجة النخلة، والكلاب تبح في البعيد، وأصوات أناس يتبادلون الحديث قريباً من المكان. وفجأة، سمعت بتروس يردد أغنية إيطالية، لاقت رواجاً في فترة مراهقتي، أنشدتها ببيودي كابرّي. لم أكن ألهم كلمات الأغنية، لكن اللحن أعانني إلى ذكريات جميلة، ولتأخ لي أن أعيش حالة صفاء مذهلة.

قال بتروس، بعد أن كفّ عن الغناء:

— منذ بعض الوقت، وفيما كنت أحضر مشروعاً توخّبت علي تقديمه إلى بلدية ميلانو، تلقّيت رسالة من معلّمي، فحوّاه أن أحدهم تبع نهج «الهرث» إلى أقصى حدوده، ولم يزل سيفه، مع ذلك، وكان عليّ أن أرشده إلى طريق مار يعقوب.

لم يفاجئني الحدث. كنت أتوقع دعوة من هذا النوع في كل وقت، لأنني لم أنجز مهمتي بعد، إرشاد حاج على طريق المجرة، كما أرشدني هو يوماً. لكن ذلك جعلني عصبياً، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي تُسند إليّ هذه المهمة، ولم أكن أعرف كيف سانجرها.

فاجأني كلمات بتروس. كنت أعتقد أنه قام بمهمة الإرشاد عشرات المرات.

— جنّت فارشنتك. اعترف أن الأمر كان صعباً في البداية، لأنك كنت مهتماً بالجانب الفكري من التعاليم، أكثر من اهتمامك بالمعنى الحقيقي للطريق التي هي طريق الناس العائدين. بعد لقاء ألفويسو، صارت علاقتي بك أقوى وأشدّ، واعتقدت أنني سأجعلك تكتشف سر سيفك. لكن هذا لم يحدث. والآن، يميّني أن تعتمد على نفسك خلال الوقت القليل المتبقي لك.

جعلتني هذه الكلمات عصبياً وفقدت التركيز على نفس رامي. لا بد أن بتروس أدرك ذلك لأنه عاد يردد الأغنية القديمة، ولم يتوقّف إلا عندما استرخيت من جديد.

— إذا اكتشفت السر، وعثرت على سيفك، سوف تكتشف أيضاً وجه «رام»، وستكون سيّد القنطرة. لكن ليس هذا كلّ شيء. فلنكي نبغ الحكمة، عليك أيضاً اجتياز الطرقات الأخرى، بما فيها الطريق السرية التي لن تكشف حتى لن سلكها أقول لك ذلك، لأننا لن نلتقي إلا مرة واحدة بعد اليوم.

خفق قلبي في صدري بطريقة لا إرادية. وفتحت عيني من جديد. كان وجه بتروس يلمع بهذا النور الذي لم أعهد، إلا عند معلّمي.

— أغمض عينيك.

أغمضتهما في الحال، لكن قلبي كان منقبضاً، ولم أتمكن من التركيز. عاد مرشدني يشد الأغنية الإيطالية، ولم أسترخ من جديد إلا بعد وقت طويل.

— غداً ستتلقى رسالة ترشدك إلى مكاني. وسبكون ذلك طقساً إسرائيلياً جماعياً، طقساً على شرف جمعية «الهرث». لقد ساهم الرجال والنساء، على مرّ العصور، في تغذية شعلة الحكمة والجهاد الحسن، والحب الإلهي. ولن يكون بمقدورك التحنّث إليّ. فالمكان، الذي سنلتقي فيه، مقدس ومغسول بدم الفرسان الذين سلكوا نهج «الهرث»، والذين، بالرغم من سيوفهم للسنة، لم يقتلوا أن يمتصروا على الظلمات. لكن تصحيتهم لم تذهب سدى، والبرهان أنه، بعد قرون لاحقة، سلك أناس طرقاً مختلفة لتحكيمهم. هذا أمر هام، وعليك ألا تنسى هذا أبداً، حتى وإن أصبحت معلماً. أعلم أن طريقك ليست إلا إحدى الطرق العديدة التي تقودك إلى الله. قال يسوع نكت مرق، «إن في بيت أبي منازل كثيرة».

وأضاف بتروس أنني ابتداءً من بعد غد، لن أراه مجدداً.

— ذات يوم، ستتلقى رسالة مني، أطلب إليك فيها أن ترشد حاجاً.

على طريق مار يعقوب، كما أرشدتك. عندئذ، يمكنك أن تعيش السر الكبير لهذه الرحلة، وهو سر أستطيع أن أكشفه لك الآن، ولكن بالكلمات فقط، لأنه في حاجة أن نحاش لبعضهم.

وحين صمت طويل، اعتقدت أنه غيّر رأيه، ورحل. وشعرت برغبة جارفة أن أفتح عيني، وأرى ما يجري، وقمت بجهد لتركز على نفس رامي.

وقال بتروس، أخيراً،

— السر هو أنك لا تستطيع أن تتعلم إلا حين نعلم. لقد اجتربنا معاً الطريق العربية مار يعقوب. كن أنت تتعلم الممارسات، وأنا أكتشف معناها. حين علمتك، تعلمت فعلاً. وحين أتيت دور المرشد، استطعت إيجاد طريقي، أنا بالذات.

إذ عثرت على سيفك، أضيفي أن تعلم الطريق للآخرين. عندئذ، أي حين تقبل دور المعلم، ستكتشف كل الأجوبة في قلبك. نحن جميعاً نعرف كل الأشياء، قبل أن نكلمنا أحد بها. فالحياة تعلم في كل لحظة، وليس هناك إلا سر واحد، إدراك حقيقة أننا قادرون، ضمن عالما اليومي، أن نكون حكماء كسليمان، وأقوياء كالإسكندر الكبير. ولكننا لا نعي ذلك فعلاً، إلا حين نصطر إلى تعليم الآخر، والشاركة في مغامرات غريبة كهذه.

كنت أعيش، في هذه اللحظة، إحدى تجارب الفراق غير المتوقعة إصلاً في حياتي، فمن ربطتني به علاقة لا مثيل لقوتها، ونوقعت أن يقوطني حتى بلوغ ههنا، يتركني في منتصف الطريق، في محطة حديدية، تبعد عنها رائحة الزيت، ويأمرني بأن أحتفظ بعيمي مغمضتين.

أضاف بتروس،

— لا أحب أن أقول لك وداعاً. لنا إيطالي وفعالتي. وبمضي الشريعة بأن تجد سيفك بنفسك. هذه هي الطريق الوحيدة لكي تؤمن بقدرتك الخاصة. كل ما أريد أن أنقله إليك، ولم يتبق إلا تمرين الرقص، الذي ساعلمك إياه الآن، وعليك أن تمارسه غداً، خلال الاحتفال الطقسي.

بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم قال،

— هذا الذي يفتخر، فليكن فخره مستمناً من مجد الرب. تستطيع أن تفتح عينيك.

كان بتروس جالساً على مربيط العربية. لم تكن لدي رغبة في الكلام، لأنني براريلي، وبالتالي أفعالي أيضاً. أخذ مصباح الزئبق، الذي كان يهزنا، يومض، وأطلق قطار في البعيد، صغرة تعلن وصوله الوشيك.

وهكذا، علمني بتروس تمرين الرقص.

قال بتروس، وهو ينظر إلي من أعماق عينيه،

— هناك شيء آخر. عندما رجعت من الحج، رسمت لوحة كبيرة تكشف عن كل ما حصل لي. كانت تلك طريق الناس العاديين، وتستطيع أنت أن تفعل مثلي، إذا شئت. إذا لم تكن تحسن الرسم، فاكتب، أو اخترع رقصة. وهكذا يستطيع الناس حينما وجدوا، أن يعبروا طريق مار يعقوب، والمجرة، والرب الغريبة لـ سانتياغو،

دخل القطار، الذي كان يصغر، اللحظة. أشار بتروس بيده، وامتطى إحدى الحافلات. بقيت، وسط صجة الكويش التي تصطك عند احتكاكها بقضبان الفولاذ، محاولاً أن أقرأ الرموز الغريبة للمجرة المثالة فوق رأسي، وبجوها التي قادتني إلى هنا، وقادت، في صمتها، عرلة الناس ومصيرهم.

في اليوم التالي، لم أجد إلا ورقة في خزانة غرفتي، تحمل
الملاحظة التالية،

السابعة مساءً في قصر «فرسان الهيكل».

تمرين الرقص

استرخ، واضمض عينيك.

تذكر الأغنيات الأولى التي سمعتها، عندما كنت طفلاً نشطاً، بصمت،
في غرفة معسك. ثم، تدريجاً، أترك جرداً من جسدتك قدميك أو بطنك، أو
رأسك... جرداً فقط، برقص على ارتفاع اللحن الذي تلتزمه.

بعد خمس دقائق، توقف عن الغناء، واسمع الأصوات التي تحيط بك. ألق
معها لعباً، ورفق بـ بطنك، ولا تفكر بشيء خاص. حاول فقط أن
تتذكر الصور التي تظهر لك تلقائياً.

إن الرقص هو أحد أكثر الأشكال كمالاً للاتصال بالروح اللاعنانية، أي
بالله. أما مدة التمرين، فتبلغ خمس عشرة دقيقة.

قضيت فترة ما بعد الظهر، وأنا ألتسكع على أبواب المدينة.
اجتريت، أكثر من ثلاث مئة، مدينة «بونفراء» الصغيرة، باظراً في
البعيد إلى القصر الملكي على إحدى الربوات، والذي ينبغي لي أن
أقصده عند غياب النهار. كان الفرسان يلهبون خيالي دوماً ولم
يكن قصر بونفراء الأثر الوحيد المتبقي من «جمعية فرسان
الهيكل» على طريق مار يعقوب. فالجمعية أنشأها تسعة فرسان
فرزوا عدم الرجوع من الحروب الصليبية. وقد بسط هؤلاء الفرسان
بقليل من الوقت، نفوذهم في كل أوروبا، فحدثين ثورة كبرى
في العائلات، مع بداية هذه الألفية. وفيما كان القسم الأكبر من
السبلاء يفكرون بجني الثروات من عمل الرقيق في النظام
الإقطاعي، كان «فرسان الهيكل» يركزون حياتهم وثروتهم
وسبوقهم لقضية واحدة، حماية الحجاج على طريق أورشليم،
مكتشفين نمطاً للحياة الروحية، يساعدتهم في سعيهم إلى
الحكمة.

عام ١١١٨، اجتمع هوغو دوبان وثمانية فرسان في باحة أحد
القصور القديمة للهجرة، ورفعوا محبة البشر شعاراً لهم. وبعد
قرنين، بدأت لهم خمسة آلاف جمعية موزعة في العالم المعروف
آنذاك، هدفها مصالحة نشاطين بدوا، حتى ذلك التاريخ، متعارضين
فيما بينهما، الحياة العسكرية والحياة الدينية. ولدت هبات
الأعضاء المنتسبين إليها، وهبات آلاف الحجاج المنتمين إلى جمعية
«فرسان الهيكل»، أن تجمع، في وقت وجيز للغاية، ثروة لا تحصى،
استخدمت مئة مئة لخدمة تحرير شخصيات مسيحية من أسر

المسلمين. كانت استقامة العرسان وبراہنهم على مستوى رفيع جدًا، بحيث أن ملوكاً ونبلأء عهدوا بثرواتهم إلى «فرسان الهيكل» الذين لم يكوونوا يسافرون إلا وهم يحملون وثيقة تثبت وجود هذه الثروات. وكان يمكن تبادل الوثيقة في أي قصر تابع لجمعية «فرسان الهيكل»، لقاء مبلغ يعادلها وهذا ما يُعتبر عنه، بلغة اليوم، بالكمبيالات.

وأتاحت الغيرة الدينية لـ «فرسان الهيكل» إدراك الحقيقة التي دُكر بها بتروس في الليلة السابقة، والتي تقول: «إن في بيت أبي منازل عديدة، بدأ الفرسان يسعون، آنذاك، إلى وضع حدٍّ لحروب الجهاد الدينية، وإلى انصهار الديانات الوثنية الثلاث: المسيحية واليهودية والإسلام. وهكذا شيدوا كنائس فيها مستديرة، مثل هيكل سليمان، وجدرانها مغطاة الأضلاع كالجوامع العربية، واجنحتها تُسم بطابع الكنائس المسيحية.

ومع ذلك، وعلى غرار كل دعوة سابقة لعصرها، فإن الفرسان أخذوا يثيرون الريبة والحذر. كما أيقظ نفوذهم الكبير نظام الملوك. وأصبح افتتاحهم الديني يُعدّ تهديداً للكنيسة. وفي نهار الجمعة ١٢ أكتوبر عام ١٣٠٧، نظم الفانيكان والبول الأوربية الرئيسية إحدى أضخم العمليات البوليسية في القرون الوسطى أوقف «فرسان الهيكل» الرئيسيون في قصورهم، وفتحوا إلى السجن. اتهموا بممارسة احتفالات سزية تتضمن عبادة الشيطان وتحنّف على يسوع المسيح، كما اتهموا بإقامة طقوس عريضة وممارسة اللواط مع العرسان الجدد. وبعد التعذيب العنيف والارتدادات والخيانات، اقحى تنظيمهم عن حارطة التاريخ القروسطي، وصودرت ثرواته، وتشتت أعصاؤه في أنحاء العالم. وأحرق آخر معلم في الجمعية جاك دو مولي حياً وسط باريس، مع أحد مرافقيه. كان طلبه الأخير، قبل الموت، أن يموت مائطراً إلى أبراج كاتدرائية نوتردام.

إلا أن إسبانيا، المخرطة في إعادة فتح شبه الجزيرة الإيبيرية، ارتأت أن من المستحسن استقبال العرسان الهاربين من أوروبا، واستيعابهم، بغية مساعدة الملوك في الحرب المظرة مع المغاربة. وهكذا انصم الفرسان إلى الجمعيات الإسبانية، ومن بينها منظمة «مار يعقوب» حامل السيف، والسوول عن حماية الطريق.

كل ذلك عبر في ذهني، عندما كنت في تمام السابعة مساءً، اجتاز الباب الرئيسي للهيكل في «بونفزان»، حيث كنت على موعد مع جمعية الميراث.

لم يكن هناك أحد. انتظرت نصف ساعة، ادخس سيجارة ثلو سيجارة، متخيلاً الأسوأ، ماذا لو أقيم الطفس في السابعة صباحاً! وعندما صممت على الرحيل، دخلت فنانان يحملان علم البلدان المتحدة، وحيطت فوق شابهن الصلطة، رمز طريق مار يعقوب. جأنا إلى، وتبادلنا بعض الكلمات، وتوصلنا إلى الاستنتاج بأننا سننظر في شيء بنفسه. قلت في نفسي إن البطافة التي تلفبتها لم تكن مخطئة، وشعرت بالعراء.

كان الوافدون يصلون كل ربع ساعة، أوسترالي وخمسة إسبان وهولندي. عدا بعض الأسئلة المتعلقة بالمواعيد، والتي شككت فاسماً مشتركة لشكوكنا، لم يكذ تبادل الكلام. جلسنا معاً في إحدى غرف القصر التي كانت تستعمل قديماً مستودعاً للمؤن، وقزربا انتظار أن يحدث شيء ما، حتى لو اقتضى الأمر انتظار نهار وليلة إضافيين.

طال الانتظار، رحنا نتحدث أخيراً بالنوافع التي سافتنا إلى هنا. عرفت، عنقدي، أن طريق مار يعقوب كانت تسلكها جمعيات محتلعة تنصل، في غالبيتها، بجمعية «الميراث الكبرى» وأن الناس، الذين تحللت إليهم، قد مروا بتجارب ومسارات عتة، لكن هذه

التجارب عرفتها منذ وقت طويل في البرازيل. وحننا أنا والأوسترالي، كنا نسعى إلى بيل الرتبة الأعلى لـ «الطريق الأول». وأدرجت، دون أن ندخل في التفاصيل، أن مسعى الأوسترالي مختلف تماماً عن ممارسات «رام».

في حوالي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين، وفيما كنا على أهبة التحذرت بحياتنا الشخصية، دوى جرس كان الصوت صادراً عن الكنيسة القديمة للقصر، فتوجهنا إليها جميعاً.

كان المشهد مؤثراً، الكنيسة، أو ما بقي منها لأن القسم الأكبر كان منهدماً، أضيئت بالمشاعل. وهناك، حيث كان المذبح مقاماً ذات يوم، توالى سبع قمامات ترتدي الألبسة القديمة لـ «فرسان الهيكل»، القلنسوة والخوذة الطولانية والرد والسيف والترس. تقطعت أنفاسي، لكان الرمن قام بقطرة إلى وراء. كان الشيء الوحيد الذي يذكر بالواقع هو ملابس، سراويل الجيز والفمضان الرنية بالأصناف.

وعلى الرغم من ضوء المشاعل الخافت، فإني قد استطعت أن أميز أن أحد الفرسان، كان بتروس.

قال الأكبر سنّاً بينهم،

«اقربوا من معلمكم. حذفوا في أعينهم. ارفعوا ملابسكم، لتتلقوا الملابس الجديدة».

اتجهت إلى بتروس. كان في حالة تقارب الرعدة ولم يبد عليه أنه يعرفني. لكنني لاحظت، في عيني، حزناً ما، الحزن الذي تجلّى في صوته الليلة الماضية. نزع كل ملابس، وألبسني بتروس رداء أسود معطراً انهبل على جسدي. لاحظت أن أحد المعلمين كان لديه أكثر من تلميذ، ولكنني لم أستطع تمييزه، لأن عيني كانتا تحذقان إلى بتروس.

قادنا الكاهن الأعلى إلى وسط الكنيسة، وراح فارسان يرسمان دائرة حولنا، ويكرسانها قائلين:

«تريستاس، سوثر، ميساس، إيمانويل، ساباهو، أدوناى أئاناتوس، بيزو».^(١)

رسمت الدائرة، وهي تمثل الحماية الضرورية للموجودين داخلها. لاحظت أن أربعة من هؤلاء الأشخاص كانوا يلبسون رداء أبيض، وهذا يعني نذر العفة للطفلة.

تابع الكاهن الأعلى، قائلاً:

«مينس، ثيونوباس، أنيثورا باستحفاات الملائكة يا رب، أرلندي رداء الخلاص، عسى كل شيء أتمناه يصبح حقيقة بمعونتك. أنت يا أدوناى المقدس الذي سيدوم ملكوته إلى أبد الأبد، آمين».

ولبس الكاهن الأكبر سنّاً، فوق الزرد، الرداء الأبيض الذي طُرز في وسطه صليب الهيكل. وهكذا فعل الفرسان أيضاً.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، وهي ساعة «الرسول ماركور». وجددني من جديد وسط «ناثرة المراثي» وقد فاحت في الكنيسة رائحة بخور البغايا والعبق والعنبر.

ونلا الفرسان الصلاة العظمى:

«يا أيها الملك العظيم النفوذ، أنت الذي بقدرة الرب إيل السامية تهيم على كل الأرواح العليا والسفلى، ولا سيما على النظام الجهمي لقطاع الشرق، أبتهل إليك... لكي أستطيع تحقيق رغبتني لأن تكون، ما دامت متعلقة بعملك وبقدرة الرب إيل، الذي خلق

(١) بما أن الأمر يتعلق بطفص طويل جداً، لا يستطيع فهمه إلا أئاع جمعية «المراثي»، اخترت أن اختصر الكلمات المستعملة. وهذا لن يؤثر بشيء على الكتاب لأن تنفيذ ططق لا يستلزم إلا اتفاق القديس، وتقديم الاحترام للتوجب إليهم. أما الأمر الفلسفي في هذا الجزء من طريق مار يعقوب فيتعلق بتمرين فرقس، وقد شرح بشكل واف.

كل شيء، السماوات والهواء والأرض والجحيم، ويتصرف بها كما يشاء.

خيم صمت ثقيل عليها وشعرنا بحضور الاسم الذي يبتهل إليه دون أن نراه. كان هذا تكريس الطقس. سبق لي أن شاركت في مئات الطقوس المماثلة، وحدث أن توصلت إلى نتائج أكثر إثارة للدهشة، عندما تحين هذه اللحظة بالذات. لكن قصر فرسان الهيكل، حرك خيالي، رايت في الجرد الأسر من الكنيسة عصفوراً لامعاً، لم أر مثله من قبل، يخلق هناك.

رُشما الكاهن الأكبر بالماء من خارج البذرة. ثم كتب على الأرض، بالحبر المقدس، الأسماء السبعين التي تطلق على الله في «الميراث». بنانا جميعاً، حجاجاً وفرساناً، بتلاوة الأسماء المقدسة. تأخعت النار في المشاعل، وهذه علامة أن الروح المبتهل إليه قد استجاب.

حان وقت الرقص، أدركت لما علمني بتروس الرقص ليلة البارحة، وكان رقصاً مختلفاً عن ذلك الذي تعودت ممارسته في هذه المرحلة من الطقس.

لم يبتها أحد إلى القاعدة، لكننا نعرفها جميعاً، يجب الإبقاء على الأقدام داخل البذرة، لأننا لا نلبس رداء الحماية الذي ارتداه هؤلاء الفرسان فوق زردتهم. عاينت حجم البذرة، وفمت، تحليفاً بما لقيني إياه بتروس.

بدأت أفكر بطفولتي. وثمة صوت، صوت امرأة، بعيد في داخلي، أشد أغنية دويرة. حيوت على ركبتي، وتقوَّعت في وضع البذرة. وحده صغري بدأ بالرقص. شعرت أنني في حالة جيدة، تعمري البشوة التي تحللتها هذه الطقوس وتدرجاً، تحولت الموسيقى في داخلي، وأصبحت الحركات عميقة، ودخلت في نشوة

كبرى. كان كل شيء قائماً، ولم يعد لجسدي وزن في هذه الظلمة. عملت، نمت في حقول «أغاثا، الزهرة، والتقيت هناك جلدي وعمي اللذين طبعاً طفولتي بطابعهما أحسست باهترار الرمن في شبكته، حيث تمتزج، حتى التماهي، مختلف الطرق في وقت ما، رايت الأسترالي يعبر بسرعة كبيرة، وعلى جسده برهق أحمر

كانت الصورة التالية، التي رايتها تمثل كلاً وصينئة^(١)، وكان هذه الصورة تريد أن تقول لي شيئاً. حاولت تفسير لغزها ولم أستطع، مع أنني كنت متيقناً أن له علاقة بمسهي. ثم خلّفتني أرى وجه «رام، ينبتق من عمق الظلمة التي تشكّلت، عند اختفاء الكاس والصينية. لكن عندما اقترب الوجه، تبينت أنه وجه ن»، الروح المبتهل إليه لم يبق بأي اتصال خاص، وتبدد وجهه في الظلمة التي كانت تغيب، ثم تعود إلى الظهور.

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا، ونحن نرقص. والحاجة، سمعت صوتاً يقول: «بهوى» نترأغراماتون...، أغاطني هذا الأمر، لأنني كنت حينئذ متصلاً، ولا أنوي الرجوع، لكن العلم أصر.

رجعت إلى الأرض على أعقاب، وقد خابت مساعي. رايتني من جديد داخل البذرة السحرية، في الجو السلفي لقصر فرسان الهيكل.

نظرنا، نحن الحجاج، واحداً إلى الآخر. بد وكان القطيعة لم تعجب نياً منا. شعرت برغبة جارفة لأنكلم مع الأسترالي، عما رأيته. عندما نظرت إليه، فهمت أن الكلمات غير مجدية، لقد رأيته هو أيضاً.

تحلق الفرسان حولنا. بدأوا يصربون تروسهم بالسيوف، مثيرين ضجة قصم الآذان، إلى أن قال الكاهن الأعلى:

(١) طبق بقري من الذهب إجمالاً، يستعمله الكاهن خلال القدس، ليضع عليه القربان الكرس.

— يا روح ن، بما أنك استجبت لطلباتنا بسرعة فسوف ندمك
ترحل بجلال، دور أن تؤذي إنساناً أو حيواناً. أقول لك، إذهب، وكن
مستعداً وراغباً في العودة، معزماً دوماً بفصل الطقوس الكنيسة
لجمعية «الميراث». أمرك أن ترحل بسلام وسكون، وليعلم سلام الله
ببك وبيني. آمين.

بعد أن خرجنا من الدائرة، جئنا أرضاً منخفضة رؤوساً. صلى
أحد الفرسان سبع مرات «أبانا»، وسبع مرات «السلام». ثم تلا الكاهن
الأعلى سبع مرات: «نؤمن بالله واحد أب ضابط الكل... مؤكداً أن
عذراء «ميليغوري»، التي تمت تجلياتها في بوعوسلافيا، قد لوست
بذلك. وبنانا طقساً مسيحياً...

امر الكاهن الأعلى،

— اندرو، نهض، وتعال إلى هنا.

توجه الأوسترالي إلى المنبح الذي تحلق أمامه الفرسان السبعة.

وقال فارس آخر لا بد أنه كان مرشد:

— يا أخي، هل ترغب أن تقبل في شركة الكنيسة؟

— أجل، أجاب الأوسترالي.

وعزفت أن الطقس المسيحي الذي تشارك فيه، يتعلق بمسألة
فارس من «فرسان الهيكل».

— هل تعرف الوجبات الصارمة للكنيسة، والأوامر الإحسانية
المتعلقة بها؟

أجاب الأوسترالي:

— أنا مستعد لتحمل كل شيء بمعونة الله. وأرغب أن أكون
خادمك وعبد الكنيسة، الآن وكل أيام حياتي.

ثم جاءت سلسلة من الأسئلة الطقسية التي لم يجد لبعض منها

أي معنى اليوم، ويتعلق بعضها الآخر بالتفاني والحب. وأجاب أندرو
عليها جميعاً، وهو محني الرأس.

قال مرشده:

— أيها الأخ المتميز، إنك تطلب مني الشيء الكثير، لأنك لا ترى
من ديمنا إلا القشرة الخارجية، الشعر الجميل والثياب الجميلة أنت لا
تعرف الوصايا الصارمة التي ينصفها هذا النهر. في الواقع، يصعب
عليك أن تصبح، أنت سيد نفسك، خادماً للآخرين، لأنك نادراً ما
تفعل ما تريد. إذا كنت تريد أن تكون هنا، فسوف ترسلك إلى
الجانب الآخر من النهر. وإذا أردت أن تكون في عكا، فسنرسلك
إلى طرابلس أو إيطاكيها أو لرمينيا. وإذا أردت اليوم، فوخب عليك
السهر. وإذا أردت البقاء ساهراً، أرسلناك لتستريح فوق سريرك.

أجاب الأوسترالي:

— أريد دخول بيت الله.

بنا وكان «فرسان الهيكل» القدامى، النهر سكوا ذت يوم هنا
القصر، يشاهدون هذا الاحتفال المازي، برضى. وتأخجت بار المشاعل
بحدة.

ثم جاءت إنذارات عنة. وأجاب الأوسترالي أنه يتقبلها جميعاً، لأنه
راغب في دخول بيت الله وأخيراً، اتجه مرشده إلى الكاهن الأعلى،
مرئناً كل الأجوبة التي قالها الأوسترالي. سال الكاهن الأكبر
الأوسترالي، بجلال، عما إذا كان مستعداً لقبول القواعد كلها التي
يقتضيها دخول بيت الله.

— أجل، يا معلم، إن شاء الله. أتيت أمام الله وأمامكم أيها الإخوة،
لتضع إليكم، وأسألكم، باسم الله وباسم العذراء، أن تقبلوني في
شركتكم، وفي محاسن بيت الله، على الصعيدين الروحي
والزميني، بصفتي خادماً هذا البيت وعبد، الآن وكل أيام حياتي.

قال الكاهن الأعلى:

— حياً بالله، دعوه يأتي إلى هنا.

عندئذ، أخرج كل الفرسان سيوفهم من أعملتها، وصوبوها نحو السماء. ثم أخفضوا أسلحتهم، وصنعوا منها قاجاً فولادياً حول رأس أندرو عكست النار على النصول لوناً ذهبياً، مصفية على الشهد طابحاً مقدساً

اقترب معلّمه بمهابة، وسلّمه السيف.

«السبريرو»

سألت الفتاة الصغيرة، وهي الكائن الحي الوحيد الذي كان يعبر «فيلافراكا ديل بيريثو»، بعد هذه الطهيرة الشديدة القبط

— هل أنت حاج؟

نظرت إليها دون أن أجيب. كانت في حوالي الثامنة من عمرها، وكانت ترتدي ملابس رثة. هرعت إلى سبيل الماء، حيث جلست لأرتاح قليلاً.

كان شاعلي الوحيد أن أصل سريعاً إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، وأحسم أمري مع هذه المفجرة الجبوة. لم أستطع التوصل إلى سيار صوت بتروس الحزين في مستودع الحفلات، ولا نظرت البعيدة، حين التقت عيناها عيني خلال طقس «ليراث» بنا الأمر كما لو أن كل جهوده لمساعدتي لم تؤد إلى شيء. عندما استدعني الأوسترالي إلى المنبح، كان بتروس، حتماً، راغباً في استدعائي أنا أيضاً، وأنا متأكد من ذلك. وكان ممكناً أن يخبأ سيعي في هذا القصر الحافل بالخرافات وبحكمة الأقدمين، خصوصاً وأن أوصاف المكان تتطابق تماماً مع كل الاستنتاجات التي توصلت إليها، مفقّر، وبزوره بعض الحاج الذين يحترمون ذخائر «جمعية فرسان الهيكل» بالإضافة إلى أنه مكان مقدس.

لكن وحده الأوسترالي تم استدعاؤه من بيننا لا بد أن بتروس شعر بالإهانة، لأنه لم يكن مرشداً قادراً على هدايتي إلى مكان سيعي.

فرع أحدهم جرساً دوى صنده في القصر القديم إلى ما لا نهاية. أخفضنا جميعاً رؤوسنا واختفى الفرسان عن ناظرنا عندما رفعنا وجوهنا لم يكن إلا عشرة، لأن الأوسترالي خرج برفقتهم من أجل المأدبة الطقسية

بنينا ملابسنا، واقتربنا دون إجراءات شجكية. كانت الرقصة قد استغرقت وقتاً طويلاً، لأن النهار قد طلع واجتاحني شعور هائل بالوحدة.

كنت أشعر بالحسد من الأوسترالي الذي عثر على سيفه وتسلمه في نهاية سعيه. كنت وحيلاً لا مرشد لي، لأن جمعية «ليراث» في بلاد بعيدة من أميركا الجنوبية، قد طردتني دون أن تعلمني طريق الرجوع. كان لزاماً عليّ اختيار الطريق القريبة لـ «سانتياغو»، التي شارفت الآن، نهايتها، ولم أعرف سز سيفي، ولا الطريقة التي تخولني العثور عليه.

كان الجرس يفرع باستمرار. عندما خرجت من القصر، عرفت أنه جرس الكنيسة لجاورة يدعو المؤمنين لأول فانس. استيقظت المنية لتواصل ساعات العمل، وقصص الحب النعيسة، والأحلام البعيدة، والضرائب التي تتوجب تانيتها. لا هذا الجرس ولا هذه المنية يعرفان أن طقساً سلمياً قد أجر في الليلة الماضية. وما اعتبرناه مهتاً، منذ قرون، يستمر في التجنّف مظهره فترته المتعاطمة.

من جهة أخرى، أيقظ في طقس «الميراث» مجدداً شغفي بمعرفة الخفي الذي تعلّمت أن أنساه، فيما كنت أملك درب مار يعقوب، درب الناس العاديين. كانت التضرعات، والتحكم شبه المطلق بالمادة، والاتصال بالعوالم الأخرى... أهم بكثير من ممارسات «رام». لعل تطبيق الممارسات بات أكثر موضوعية في حياتي، ولعلني تغيرت كثيراً منذ شرعت في سلوك الطريق. اكتشفت، بفضل بتروس، أن المعرفة المكتسبة تستطيع أن تجعلني أتجاوز مسافط المياه، وأهرم الأعداء، وأتجاوز مع «الرسول» بشأن مسائل عملية. عرفت وجه موتى والكثرة الزرقاء للحب، المنتهم، الذي يغمر العالم أجمع. كما أظهرت استعداداً لأن أخوض «الجهاد الحسن»، وأن أصبح من الحياة نسيج انتصارات.

في أي حال، فإن هناك جزءاً خفياً مني لا يزال ينحسر على الحلفات السرية، والعبارات الاستعمالية، والبخور، والخبز المقدس. كان ما يدعو بتروس «تكريم الأقدمين» يمثل لي اتصالاً حاداً ونوستالجياً بالدروس القديمة المنسية. ثم إن فكرة عدم بلوغ هذا العالم كانت تحرمني حائل الذهاب أبعد في سعيي. أثناء العودة إلى الفندق بعد طقس «الميراث»، وجدت «دليل الحاج»، إلى جانب مفاتيحي، وهو كتاب استعان به بتروس عندما لم تكن العلامات الصفراء واضحة كما يجب. وقد سمح لنا الليل بتقدير المسافة بين مدينة وأخرى. تركت بوبغزاده في الصباح نصيباً، دون أن أحلّد للنوم، وتابعت الطريق. مكتسباتي، بعمق، ظهرت ذلك اليوم، أن الخارطة لم تكن مؤجّلة، واضطرت إلى قضاء ليلة في العراء، في ظل هجرة.

وهنا، راجعت كل ما حدث لي منذ لقائي السيدة سافان. وفكرت في ما قاله لي بتروس بالحاج، ليفهمي أن النتائج، خلافاً لما تعلمناه، هي وحدها التي تنقسم بالأهمية. الجهد خلاصي وضروري، لكن، إذا لم يمس إلى نتيجة، فهو لا يعني شيئاً. لا أستطيع أن أتوقع من نفسي، ومن كل ما حصل معي، إلا نتيجة

واحدة، العثور على سعيي. وهنا ما لم يحصل بعد. لم يتبق لي إلا مسيرة أيام قليلة، وأصل إلى «سانتياغو».

قالت الفتاة التي كانت تقف قرب سبيل الماء في «هيلافرانكا» ديل بويرثو، بإصرار،

— إذا كنت حاجاً، تستطيع مرافقتك حتى «بوابة الغفران» من عبر هذه البوابة لا يعود محتاجاً للذهب إلى مار يعقوب. فبمقدورنا قطع البويرثو لكي نرحل سريعاً، وتدعني بسلام. لكننا راحت نلهو بماء السبيل، ونرشف حبيبتي وسروالي. كزرت: — هيا يا سيد، لنذهب.

في هذه اللحظة، تكررت عبارات كان يقولها بتروس، وهي مستوحاة من إحدى رسائل القديس بولس، «ينبغي للحارث أن يحرق على الرجاء، وللدارس على رجاء أن يكون شريكاً في الغلة». كان علي أن أصعد قليلاً بعد، أن أتابع البحث دون أن أخاف الهريمة، وأن أحتفظ بالأمل في العثور على سعيي واكتشاف سره. لكن، من يدري؟ ثرى هل تحاول هذه الفتاة أن تقول لي شيئاً لم أكن راغباً في فهمه؟ إذا كان، لبوابة الغفران الموجودة في إحدى الكنائس، الأثر الروحي نفسه المترتب على زيارة ضريح مار يعقوب، فما الذي يمنع لأن أن يكون سعيي موجوداً هناك؟

أجابت الفتاة،

— هيا، لنذهب.

نظرت إلى الجبل الذي تحدثت عنه لتؤي. كان علي العودة إلى الورا، ونسلق جزء منه مجدداً. كنت قد مررت ببوابة الغفران، دون أن تعتريني أي رغبة في ريارتها، لأن هدفاً واحداً وصحته

نصب عيني، هو، الوصول إلى مار يعقوب، لكن، أمامي فتاة صغيرة، وهي الكائن الحي الوحيد الذي صادفته بعد الظهيرة الحازة هذه، وهي تصر أن أعود على أعقابى، وأقصد مكلباً لم تولد اهتماماً لعلني، بسبب من عجلتي وإحباطي، غفلت عن هدف كان موجوداً على طريقي. ثم لما لم ترحل هذه الفتاة، بعد أن أعطيتها المال؟

كان بتروس يقول لي، يوماً، إني أحب أن أروي لنفسي القصص، متوهماً أشياء كثيرة. لكن ماذا لو كان مخطئاً؟

تبعث الفتاة، وتذكرت قصة بوابة الغفران، لقد أرثت الكنيسة أن نتوصل إلى التدبير، يشمل الحجاج المرضى، لا سيما وأن الطريق أصبح، ابتداءً من هذا المكان وحتى الوصول إلى «كومبوستيلا»، وعرة وجبلية. لذا، أعلن أحد البابوات، في القرن الثاني عشر، أنه يكفي اجتياز بوابة الغفران لكل من فقد القدرة على متابعة الدرب، وهو يبال الغفرانات نفسها، التي يحظى بها الحجاج الذين بلغوا نهاية الطريق. وهكذا، قدم هذا الباب الحل لبعض الحجاج، وأعاد لبعض الحج المخلص.

تسلقنا المكان الذي مررت به سابقاً، طرفات متعرجة ومبرقة ووعرة. كانت الفتاة تتقدم بسرعة كالبرق. واضطرت، في مرات عدة، أن أطلب منها الإبطاء في سيرها. كانت تطيع لحظة، ثم تعاود الركض. وبعد نصف ساعة، وإثر اعتراضات عدة من جانبي، وصلنا إلى بوابة الغفران.

قالت،

— أملك مفتاح الكنيسة. سأدخل وأفتح البوابة، لتجتارها.

دخلت الفتاة من الباب الرئيسي، وبقيت أنتظرها في الخارج. كانت الكنيسة صغيرة تتجه فحة بوابتها إلى الشمال، وقد ربيت

كليباً بأصناف وشاهد من حياة القلجس يعقوب. وفيما كنت نصغي إلى صوت الفتاح في الفعل، طهر أمامي كلب راج لا أعرف من أين أتى، ووقف بيني وبين البوابة. تأهبت لقتاله.

وتذكرت، «إن تنتهي هذه القصة؟ أيضاً وأيضاً، تجارب وصراعات وإهانات. كل ذلك لم يرشدني إلى مكان،

ومع ذلك، وفي هذه اللحظة، فإن بوابة الغفران فتحت، وظهرت الفتاة الصغيرة. عندما رأيت الكلب الذي ينفرس بي — في الحقيقة أنا الذي كان ينفرس به — تلفظت بكلمات لطيفة لتدجين الحيوان. ابتعد الكلب، وهو يهز ذنبه، حتى جاوز آخر الكنيسة

لعل بتروس على حق. ولعلني أعشق رواية القصص لنفسي، وأتوهم أشياء وأشياء تحول كلب راج صغير إلى حيوان متوعد خارق القدرات. إن هذه علامة سيئة، علامة النعب الذي يمضي إلى الهرمة.

لكن بقي هناك أمل. دعيت الفتاة الصغيرة للدخول. اجرت بوابة الغفران، وأنا أعلن «أمر». وتلفيت الغفرانات ذنبا، التي يحظى بها زوار مار يعقوب.

جلست بنظري في أرجاء العبد المقدس، وأنا شبه معزود من التصورات. أسعى فقط وراء الشيء الوحيد الذي استولى على تفكيري.

قالت الفتاة، وكانت تؤذي دور الليل السياحي،

— هنا نتخذ تيجان العمود شكل صنفة، رمز الطريق. وهنا الكنيسة أغانا من القرن الـ

سرعان ما فهمت أن لا جدوى من القيام بهذه الرحلة إلى هذا المكان.

— وهنا هو مار يعقوب شاهراً سيفه، والمغاربة تحت حصانه. إنه تمثال يعود إلى القرن الـ ...

أجل، هنا يوجد سيف مار يعقوب، لكن سيفي ليس هنا. أعطيت الفتاة قطعاً من البيريتا، فرفضتها، وطلبت مني الخروج، وكأنها شعرت بالمهانة. وتوقفت عن تقديم الإرشادات.

اخذت من الجبل مجتداً، وعاودت السير باتجاه «كومبوستيان». وعندما كنت أعبر، للمرة الثانية، «فيلافريككا ديل بيريثو»، ظهر رجل يقول إنه يدعى أنجل. وسألني عما إذا كنت تؤذ زيارة كنيسة مار يوسف النجار رغم السحر الذي يتجلى به اسم هذا الرجل، فقد قلت، في نفسي، إنني خارج لنؤي من خيبة، وإن بتروس على حق، أنا واثق بذلك، وهو عارف تماماً بأسرار النفس البشرية. لدينا، يوماً، ميل إلى رؤية أشياء لا وجود لها، ونرفض رؤية الأمور البديهية الأوضح من النهار.

لكنني أحببت أن أؤكد من جديد. وتركت لأنجل أن يقودني إلى الكنيسة الأخرى. كانت مفضلة، ولم يكن المفتاح بحورته. نظرت إلى تمثال القديس يوسف، وهو يحمل أدوات النجارة، ثم شكرت الرجل، وأعطيته بعض المال. لكنه رفض أخذها، وتركني وسط الشارع.

قال،

— نحن فخورون بمنيبتنا. لا تفعل هذا من أجل المال.

تابعت طريقتي لمدة ربع ساعة، وتركت ورائي «فيلافريككا ديل بيريثو»، بأبوابها وشوارعها ومرسلجها الغامضين، الذين لا يطلبون شيئاً مقابل إرشادهم.

اجتزت، لفترة غير وجيزة من الوقت، قطاعاً جبلياً، وأنا أهدل جهداً كبيراً، وأتقن بصعوبة. في البداية، لم أفكر إلا بمشاعلي السابقة، الوحيدة، العار، لأنني خيبت أمل بتروس، سيفي وسزه. لكن صورتي الفتاة وأنجل كانتا تتراءيان أمامي، في كل لحظة. كانت عيماي موجهتين فقط إلى نيل المكافأة، فيما كنا يعطيناسي أفضل ما لديهما، حبهما لهذه المدينة، دور مقابل. تولدت،

في أعماقي، فكرة غامضة، فكرة تربط بين كل هذه العناصر. وكان بتروس يصز، يوماً، على ضرورة السعي إلى المكافأة، إذا أردنا نيل الظفر. كلما نسيت أمور العالم ولم يعد يشغلني شغل إلا سيفي، يعيدني بتروس إلى الواقع من خلال مساع الهمة. وقد تكرر هذا التصرف مراراً على طول الطريق.

كان هذا مقصوداً، وهنا يكمن سر سيفي. إن ما نلن في أعماقي بدأ يعتمد في نفسي، ويتسرب نور لطيف منه إلي. لم أعرف، حتى الآن، ما هو مزوع نفسي بالضبط، لكن شيئاً ما في داخلي كان يقول لي إنني أسير في الاتجاه الصحيح.

كنت ممثلاً لالتقائي أنجل والفتاة الصغيرة. كان هناك حب ملتهم يظهر من طريقتهما في الكلام عن الحكايات. وقد جعلاني اجتاز مرتين الطريق التي خططت لعبورها خلال بعد الظهر. ومن جديد، نسيت الانبهار الذي أحدثه في طقم البيريتا، ورجعت إلى أراضي إسبانيا.

تذكرت أن بتروس قد أعلن لي، ذات يوم بعيد جداً الآن، أننا اجتازنا مزات عنده الطريق نفسها في البيريتا. وتحضرت على ذلك النهار. كان بنهية جيدة. ومن يدري، هل يشكل تكرار الحدث نفسه علامة نهاية سعيدة؟

وصلت مساءً إلى إحدى القرى، ووجدت ماوي لدى امرأة عجوز، طلبت مني مبلغاً رهيناً من المال لقاء الغرفة والطعام. تحدثنا قليلاً، وأسزت لي إيمانها بقلب يسوع، وقلقها بشأن غلال الزيتون في هذه السنة التي تميرت بالجفاف. شربت الخمر الجيدة، وتناولت الحساء، ثم خلعت للنوم في ساعة مبكرة.

احسستني أكثر اطمئناناً، بسبب هذه المكرة التي كنت أكونها في داخلي، والتي «ستنفر عفا قريب. صليت، وأنجرت بعض التمارين التي علمني إياها بتروس، ثم استدعيت أستران. كان عليّ التحدث معه عن صراعي مع الكلب لا سيما وأنه فعل ذلك النهار كل ما في وسعه لإلحاق الأذى بي، كما أعلن رفضه

مساعدتي خلال فصل الصيف. بعد كل الذي فعله معي، صفحت، فعلاً، على إبعاده من حياتي وإلى الأبد، فلو لم أتعرف إلى صوته، لاستسلمت للتجارب التي اعترضتني بشأن الحركة.

قلت:

— فعلت بكل ما في وسعك لتساعد جوقة الشياطين على الانتصار.

احتج أمثران، قائلاً:

— لا أحارب إخوتي.

توقفت هذا الجواب. لقد أخطرت بذلك. وكان سخيفاً أن أعصب من «الرسول» لأنه يطاوع طبيعته بالذات. كان عليّ أن ألتفت إليه عن الرفيق الذي يساعدني في المحطات المائلة، فتلك وطبيعته الوحيدة وضعت حقلدي جانباً، وبدلاً من بحثي بأمور الطريق وبتروس وسر السيف الذي شعرت أنه موجود في داخلي. لم يقل لي شيئاً مهماً، عدا أن هذه الأسرار ممنوعة عليه على الأقل، وجدت من أتحدث إليه، بعد أن قضيت فترة بعد الظهر صامتاً تحتها، حتى وقت متأخر، إلى أن قرعت العجور بابي، مشيرة إليّ أنني أتحدث أثناء نومي.

نهضت على أفضل وجه، وتابعت السير في الصباح. وقنرت أنني سأصل بعد الظهيرة إلى أراضي «غاليسيا»، حيث توجد «سانتياغو» دو كومبوستيلا. كانت الطريق تنحني صعوداً دون توقف. وتوجب عليّ مضاعفة جهودي لمدة ربع ساعة تقريباً، لأحافظ على إيقاع السير الذي فرصته على نفسي. ومشيت أماماً، في كل لحظة، أن تحذر من الطريق عند المنعطف المقبل. لكن هذا لم يـ... إطلاقاً، وفقدت الأمل، في النهاية، للتقدم سريعاً هذا الصباح في البعيد، لمحت جبلاً أكثر ارتفاعاً، وتذكرت، في كل لحظة، أن اجتيازها مفروض عني، عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، فإن الجهد الجسدي قد علّق تفكيري، تماماً، وشعرتني أكثر لطعاً مع نفسي.

قلت في نفسي: تبدأ كم من الناس في هذا العالم يمكنهم أن يأخذوا على محمل الجد رجلاً يترك كل شيء، ليهبط عن سيف؟ وماذا يعني ذلك حقاً في حياتي إن لم أبح في العثور عليه؟ كنت قد تعلمت ممارسات «رام» والتقيت «رسولي»، وتصارعت مع كلب، وبطرت إلى وجه موتي. ولما أحاول أن أقنع نفسي بما تمثله طريق مار يعقوب الآن من أهمية لي. إن السيف لم يحسن إلا نتيجة وكنت أود أن أعثر عليه، لكنني كنت أود أكثر أن أعرف ماذا أفعل به. لأنه كان يلزمي استخدام عملي له، تماماً كما استخدمت التمارين التي علمني إياها بتروس.

توقفت فجأة، فالفكرة، التي كانت نعمل حتى الآن في كياني، انفجرت، وبات كل شيء من حولي واضحاً، وانحسرت في داخلي موجة عارمة من الحب الإلهي. رغبت، بحثاً، أن يكون بتروس هنا، لأروي له ما كان يريد معرفته عني، الأمر الوحيد الذي كان ينتظر في الواقع أن أكتشفه، ويتفجّر هذه الحقبة الطويلة من التعاليم على الطريق الغربية مار يعقوب، ألا وهو سر سيبي.

وسر سيبي، كسر كل انتصار يبحث الإنسان عن تحقيقه في هذه الحياة، هو أمر سهل للغاية، ما العمل به؟

لم أفكر في هذا من قبل. فكل ما رغبت في معرفته، أثناء الطريق، هو المكان الذي خبئ فيه. لم أتساءل قطّ لما كنت أريد العثور عليه، أو لما كنت أحتاج إليه. وجهت كل طاقتي نحو المكافأة، ولم أفكر أنه، عندما يرغب أحداً في شيء، فعليه أن يعرف الغاية الواضحة من هذه الرغبة. هذا هو الدافع الوحيد الذي يجبر بنا أن نبتش من أجله عن مكافأة وهذا هو سر سيبي.

كنت أريد أن أعرف بتروس أنني فمت بهذا الاكتشاف لكنني

بت متيقناً بعدم تمكّسي من رؤيته مجدداً. لقد انتظر طويلاً أن يأتي هذا النهار الذي أكتشف فيه ذلك لكنه، الآن، غائب، ولن أستطيع أن أقول له ذلك.

عندئذٍ، وبصمت، جثوت على ركبتي، ونباولت ورقة من مفكرة ملاحظاتي، وكتبت ما أنوي فعله بسيفي. ثم طويت الورقة بعناية، ووضعتها تحت حجر. في أي حال فإن الحجر قد ذكرني باسم «بتروس» وبصداقته. أعرف أن الزمن سيفر هذه الورقة سريعاً، لكنني سلّمتها إلى بتروس بطريقة رمزية.

إنه يعرف، مسبقاً، ما علي فعله بسيفي، وأن مهمتي معه قد اكتملت.

تسلّقت، قديماً، الجبل. كان الحب الإلهي يسيل مني، ويوزد كل شيء من حولي. الآن، وقد اكتشفت السر، عليّ اكتشاف الشيء الذي أبحث عنه. استولى إيمان ويقين لا يتزعزع على كياني كله وأخذت أتلدّن لحن الأغنية الإيطالية التي أنشدتها بتروس في مخزن الحافلات. وبما أنني لم أكن أعرف كلماتها، فقد اخترعت كلمات لها. لم يكن هناك أحد في جوارتي. اجتزت غابة كثيفة، وجعلتني عزلتي أغني بصوت أعلى. ثم شعرت أن الكلمات التي اخترعتها، تتخذ معنى غامضاً في رأسي. كانت وسيلة اتصال بالعالم الذي يتسنى لي وحدي معرفته، لأن العالم كان يعلمني.

سبق لي أن قمت بهذه التجربة، ولكن بطريقة مختلفة، خلال أول لقاء لي بجوقة الشياطين. في ذلك اليوم، تجلّت في موهبة اللغات. كنت، عندئذٍ، خادم الروح الذي استعملني لأفقد امرأة، وأجد عدوّاً، وأتعلّم الشكل الوحشي لـ «الجهاد الحسن». الآن، اختلف الأمر. كنت سيّد نفسي، وكنت أتعلّم الكلام مع الكون.

ورحت أكلّم كل ما يظهر في طريقي، جنود الأشجار، برك

الماء، الأوراق الميتة، النباتات الجميلة العزّشة. كان ذلك تمرين للناس العاديين الذي يتعلّمه الأطفال، ويمسك الكبار. كانت الأشياء تجيبني بشكل خفي، وكلها تفهم ما أقول، وتغمري، بالمقابل، بالحب للنهم. دخلت في حالة من الرعدة، وخفت، لكنني كنت مستعداً لتابعة اللعبة، حتى النهاية.

مرة أخرى، كان بتروس محقّقاً، أعلم نفسي، فأصير معلماً.

كنت ساعة الغداء، لكنني لم أتوقّف لتناول الطعام. وفيما كنت اجتاز المواحي الصغيرة، رحلت أتكلم بصوت أكثر انخفاضاً، وأصحك وحدي. وإذا أثار منطري اهتمام بعض الناس، فما من ضير في أن يستنتجوا أن الحجاج، في أيامنا هذه، يصلون، وهم في حالة جدوى، إلى كاتدرائية مار يعقوب. لكن ليس لذلك أهمية تذكر. فأنا أحتفل بالحياة من حولي، وأعرف ما علي فعله بسيفي، حالاً أعثر عليه.

مشيت ما تبقى من فترة بعد الظهر، وأنا أرتعد، مدركاً المكان الذي أقصده، ممثلاً حالة وعي تام للحياة المحبطة بي، والتي تعكس لي الحب الإلهي. للمرة الأولى، بدأت غيوم ثقيلة تتكوّن في السماء. تمّيزت أن تمطر، لأن المطر، بعد كل هذا السهر وسط الجفاف، يبدو تجربة جديدة ومثيرة. في الساعة الثالثة بعد الظهر، وصلت قديماً أراضي غاليسيا. ورأيت على خارطتي أن جبلاً واحداً يعصلي عن نهاية الرحلة. فزرت أن أتسلّق، وأنام في أول مكان مأهول على طريق المرور، في «تريكاستيلا»، حيث حلم ألفونس الحادي عشر، أحد كبار الملوك، بتأسيس مدينة كانت، قبل قرون، قرية في الربيع.

تابعت غنائي، وتكلّمت باللغة التي اخترعتها، إلى ما صادفته من عناصر. وشرعت في تسلّق آخر جبل «السيريرو». كان اسمه يطلق على قرية قديمة رومانية، ويبدو أنه يشير إلى شهر فبراير، الذي حصل فيه حادث هام. كان هذا الجبل يعتبر، قديماً، المعبر

الأصعب لطريق مار يعقوب. ولكن، اليوم، تغيرت الأشياء بالطبع. صحيح أن التسلق لا يزال وعراً، لكن أقيم على الجبل المجاور هوائي تلفزيوني هائل ليرشد الحجاج إلى الطريق، ويمنعهم من الضلال، الشيء الذي كان شائعاً ومحتملاً في الأزمنة الغابرة.

كانت الغيوم تنخفض أكثر فأكثر. وكنت على وشك اختراق الضباب. كان عليّ للوصول إلى تريكاستيل، أن أتبع بحذر العلامات الصفراء، لأن هوائي التلفزيون حجب الضباب. لذا تهت، فسأكون مضطراً إلى قضاء ليلة إضافية في العراء، وفي هذا اليوم، ومع المطر الذي يندثر بالهطول، لن تكون التجربة مفيدة. كنت أشعر بنقاط المطر تسيل على وجهي، كذلك ملأني شعور بالاكتمال والحربة والحياة. لكن أن أقضي الليلة في مكان رطب مع كأس نبيذ، وأن أصطحج في سرير مريح تخشياً لمرحلة هذا الشيء، وأن أنام في الوجل مستسلماً للأرق، يترضىني النهار، فركبة بسبب الصدمات المبلدة، شيء آخر. عليّ الاختيار بسرعة، إما التأجيل فليماً واختراق الضباب ما دام هناك نور، وإما الرجوع إلى القرية الصغيرة التي مررت بها قبل ساعات ألبت فيها ليلتي وإرجاء تسلق جبل «السيريرو» إلى الغد.

ما إن فهمت ضرورة اتخاذ قرار فوري، حتى لاحظت أن شيئاً غريباً قد حدث لي، دفعتي اليقين، بأنني اكتشفت سراً سيهني، إلى الأمام فليماً، باتجاه الضباب الذي سيفمرني. كان هذا شعوراً مختلفاً عن الشعور الذي حتمني لأتبع الفتاة إلى بوابة القفران، أو الرجل الذي قادني إلى كنيسة مار يوسف النجار.

تذكرت أنني، في المرات القليلة التي أقيت فيها محاصرات في البراريل، كنت، على الدوام، أقارن التجربة الصوفية بتجربة نعرفها جميعاً، التدرج على الدراجة. في المرة الأولى، نصعد على الدراجة،

ونعطي دفلاً للدواسة فنسقط. نتقدم ونسقط. نتقدم ونسقط. ومع ذلك فإن النوارس الكامل بتحقيق الحياة، ونتوصل إلى التحكم بالآلة. لا يعود ذلك إلى تراكم التجارب، بل إلى الأمر أشبه بمعجزة، تقودنا الدراجة، فوافق على اتباع خلل الدوابين، ونستعمل حركة السقوط لنجعل منها منحني، أو لتفادياً جديداً.

خلال تسلقي جبل «السيريرو» في الساعة الرابعة بعد الظهر، تبين لي أن المعجزة قد تحققت. فبعد أن سرت طويلاً على طريق مار يعقوب، بلت هي «تسيرني». كنت أتبع ما يدعو الناس الحارس. وبسبب الحب اللتهم الذي خبرته طوال النهار، وبسبب سراً سيهني الذي اكتشفته، وبالنظر إلى أن الإنسان في أوقات الزمة يتخذ دوماً الفرار المناسب فقد توجهت دون خشية نحو الضباب.

فلنت في نفسي، وأنا أحاول جاهداً العثور على العلامات الصفراء فوق الصخور وأشجار الطريق، لا بد أن لهذه القيمة نهاية. منذ حوالي الساعة، وأنا أمشي ضمن رؤية ضعيفة جداً، متابعاً الغباء، لأبعد عني الخوف، ومنتظراً أن يحدث شيء خارق. وقد نظرت إلى طريق مار يعقوب والضباب يحاصرني وحيداً في هذا الجو الوهمي، وكأني أمثل فليماً يجروني فيه البطل على القيام بأشياء لم يسبقه إليها أحد من قبل، فيما التفرجون في الصالة يعتقدون أن هذه الأشياء لا تحدث إلا في السينما. لكنني كنت أنا البطل، وكنت أعيش هذه الحالة بالذات في الحياة الواقعية. ازدادت الغابة سكوباً، وأخذ الضباب ينجلي بشكل واضح. لعلي ساصل إلى منتهى الطريق، لكن هذا النور يشوش عليّ الرؤية، ويرسم المنظر بألوان غامضة ومرعبة.

كان الصمت شبه تام. أصغت السمع، وخلتني أسمع صوت امرأة يصدر عن يساري. توقفت على الفور. انتظرت أن يتكرر الصوت،

لكن لم يكن هناك إلا الصمت، الصمت المطبق، حتى الأصوات التي نسمعها عادة في العابة، أصوات الجمادى والحشرات والحيوانات التي تغطى الأوراق اليابسة، اختفت. بظرت إلى ساعتى، إنها الساعة والرابع. فنرت المسافة الباقية، لأصل إلى توريستريللا، بحوالى أربعة كيلومترات تقريباً. وكان لديّ الوقت الكافى لاجتيازها في ضوء النهار.

حين رفعت نظري عن الساعة، سمعت من جديد صوت الرافد، ساعيش ابتداء من هذه اللحظة إحدى التجارب الأهم في حياتى كلها

لم يكن الصوت صادراً عن أي مكان بل كان مبعثاً من داخلي. استطعت سماعه بوضوح وجلاء، وجعله حسي أقوى حضوراً. لم أكن سيد هذا الصوت، كذلك لم يكن استرنا. لم يقل لي الصوت إلا أن أتابع المسير، وأطعت دونما تردد. كان الأمر كما لو أن بتروس قد عاد ليعلمني الأمر والطاعة، أو كأنني، في هذه اللحظة، أداء الطريق التي «تقودني» كان الضباب ينفث، وقد بدا على وشك الاصمحلال. كانت قربي أشجار مبعثرة، وأرض رطبة زلقة، ومنحدر وعراً اجتازه منذ فترة طويلة.

فجأة، وبسحر ساحر، انجلي الضباب تماماً، ورأيت أمامي صليبا مرتفعاً بمهابة فوق قمة الجبل.

بظرت حولي، فرأيت بحر الغيوم الذي خرجت منه، وبحر غيوم آخر فوق رأسي. وبين هذين المحيطين انتصبت رؤوس الجبال الشاهقة وقمة «السبريرو». استولت عليّ رغبة عميقة في الصلاة، بدا كل ما عندها غير مهم، حتى لو اضطرنى ذلك إلى التخلي عن طريق توريستريللا. عرمت على ارتقاء الجبل حتى القمة، وتادية صلواتي وتأملاتي عند أسفل الصليب استغرق الصعود أربعين دقيقة،

وسط الصمت الخارجي والداخلي. أما اللغة التي كنت اخترعها فقد فارقت روحي، ولم تعد تساعدي على الاتصال لا بالبشر ولا بالله. كانت طريق مار يعقوب هي التي «تقودني»، وهي التي ترشدني إلى مكان الصليب. مرة أخرى، كان بتروس محقاً.

عند القمة، رأيت رجلاً يجلس قرب الصليب وهو منصرف إلى الكتابة لوهلة، اعتقدت أنه «رسول»، أو أنني أشاهد رؤيا خارقة. لكن حنسي قال لي لا ورأيت الصليبة قد حيكت فوق ملابسه. كان حائلاً. نظر إلي وقتاً طويلاً، ثم رحل، وقد أزعجه حضورى. لعله كان ينتظر أمراً خارقاً كما كنت أنتظر، ملاكاً مثلاً؟ ثم اكتشفنا، معاً، أن من ينتظربا رجلاً، وليس ملاكاً على طريق الناس العاديين.

وعلى الرغم من الرغبة التي دفعتني إلى الصلاة، كنت عاجزاً عن قول أي شيء. بقيت لوقت طويل أمام الصليب، أراقب الجبال والغيوم التي تحجب السماء والأرض، فلا يشق الضباب إلا رؤوس القمم الشاهقة. على بعد مئة متر في الأسفل، أضيئت الأنوار في ضبعة تحوي خمسة عشر بيتاً وكهيسة صغيرة. على الأقل، لديّ مكان أستطيع قضاء الليل فيه عندما تفرز الطريق. لا أعرف متى سيحدث هذا بالضبط، لكن، رغم غياب بتروس، كان لديّ مرشدني، ولم أحرم منه، الطريق التي «تقودني».

تسلق حمل تائه الجبل، واستصب بين الصليب وبهمي. نظر إليّ وفي عيني شيء من الذعر بقيت وقتاً طويلاً أنافل السماء شبه السوداء، والصليب، والحمل الأبيض في أسفل الصليب، وأحسست، فجأة، بوطاة هذه الرحلة الطويلة من التجارب والصراعات والتعاليم والسير، وهي تلقي بثقلها على كاهلي. انتابني ألم فطيع في العدة، وامتدّ حتى خلقي، متحولاً إلى شهقات جافة دون بكاء، أمام هذا الحمل، وهذا الصليب الهائل المتوخد الذي يُظهر الصبر الذي لم يخترها الإنسان لإلهه، بل لنفسه. واسترجعت كلّ تعاليم طريق مار يعقوب وعبرها في ذهني، وأنا أشفق أمام هذا الحمل الوحيد.

قلت، وقد تمكنت أخيراً من الصلاة،

— يا رب، لنست مسجراً على هذا الصليب، ولا أراك مسجراً أنت أيضاً. هذا الصليب فارغ، ويجب أن يبقى كذلك إلى الأبد، لأن زمن الموت ولّى وانقضى. وها إن إلهاً يُخلق في الآن. هذا الصليب هو رمز القدرة اللامتناهية التي تملكها جميعاً، لتسمير الإنسان وبعثه إلى الهلاك. أما الآن، فهذه القدرة تُوظف من أجل الحياة. فالعالم أُنقذ، وأنا قادر على إنجاز معجزاتك، لأنني عبرت طريق الناس العاديين، وفيهم وجئت سرك. وأنت أيضاً عبرت طريق الناس العاديين. جئت لتعلمنا ما نحن قادرون عليه، ورفضنا تقبله. برهنت لنا أن القدرة والمجد هما في متناول الجميع، وأن هذه الرؤية المفاجئة لقدراتنا كانت أكبر من أن نحتملها. صلبناك ليس لأننا ناكرو الجميل حيال ابن الله، بل لأننا كنا نخاف أن نتقبل قدراتنا، نحن بالذات. صلبناك، لأننا خفنا أن نصير آلهة. ومع مرور الزمن وتعمُّدنا ما نحن فيه، رجعت الوهة بعيدة، ورجعنا إلى مصيرنا كبشر.

ليس خطيئة أن نكون سعداء. فتمارين قليلة وإنصات بفظ بكفيان لكي يحقق الإنسان أحلامه المستحيلة. كنت فخوراً بحكمتي، فجعلتني أعبر الطريق التي يستطيع الكل عبورها، واكتشف ما يستطيع جميع الناس اكتشافه، لو أولوا الحياة قلباً من الاهتمام. لقد أريمتني أن السعي وراء السعادة أمر شخصي وأن لا وجود لنموذج نستطيع نقله إلى الآخرين. قبل أن أكتشف مكان سيقي، كان علي أن أكتشف سزه، وهو بسيط للغاية، بكفيني أن أعرف ماذا أفعل به، وبالسعادة التي يمثلها لي.

اجتازت كل هذه الكيلومترات، لأكتشف أشياء أعرفها من قبل، ونعرفها جميعاً، ولكن يصعب علينا تقبلها. أي شيء يا رب أصعب على الإنسان من اكتشاف أنه قادر على بلوغ القدرة؟ هذا الألم الذي أشعر به الآن في صدري، والذي يجعلني أشفق وأخيف الحمل أمامي، رافق الإنسان منذ وجوده. قليلون هم الذين تقبلوا

جمال النصر، فلك أن أغلب الناس قد تخلوا عن أحلامهم، عندما صارت ممكنة، وامتنعوا عن خوض «الجهاد الحسن»، لأنهم لا يعرفون ما يفعلونه بسعادتهم الخاصة. كانوا أسرى أشياء الوجود، تماماً، مثلي أنا الذي يرغب في العثور على سيفه ولا يعرف ما يفعله به.

استيقظ في ناخلي إله نائم، وصار الألم أكثر حدة. شعرت بحضور معلّمي. ونجحت، للمرة الأولى، في تحويل الدموع إلى شهقات. بكيت عرفاناً لأجله، هو الذي دفعني لأبحث عن سيقي على طريق مار يعقوب. وبكيت عرفاناً لأجل بتروس الذي علّمني، دون أن يقول شيئاً، أنني سأحقق أحلامي، متى اكتشفت ما علي فعله بها. رأيت الصليب عالياً. ورأيت الحمل أمامه حزناً في التنزه، حينما يشاء على هذا الجبل، وفي تأمل الغيوم.

نهضت الحمل وتبعته. كنت أعرف إلى أين يفودني. ورغم الغيوم، فإن العالم قد أصبح شفافاً بالنسبة لي. لا أرى المجزة في السماء، لكن لديّ اليقين الكامل بأنها موجودة، وأنها ترسلني إلى طريق مار يعقوب. اتجهت الحمل ناحية القرية التي تحمل اسم «السبريرو»، كجبلها. هنا، ذات يوم، على هذا الجبل، حصلت معجزة، وتحول ما نفعله إلى ما نؤمن به، سز سيقي والطريق الغريبة لمار يعقوب.

فيما كنت أنحدر من الجبل، تذكرت هذه القصة، صعد أحد الزارعين، في يوم عاصف جداً ليسمع قناساً على جبل «السبريرو». كان هذا القناس قد أقامه راهب قليل الإيمان، ويحتقر في داخله تقوى الزارع وتضحيته. لكن، في لحظة التكريس، تحول القربان جسد للسيح، والخمر دمه فعلاً. ولا تزال الذخائر موجودة ومحفوظة في هذه الكنيسة الصغيرة، وهذا كنز يفوق كنوز الفاتيكان قاطبة.

توقف الحمل عند مدخل القرية التي تقود طريق واحدة فيها إلى الكنيسة. عندئذ تملأني الرعب، وأخذت أرند دون توقف، «يا رب لست مستحقاً أن أدخل بيتك». لكن الحمل نظر إلي نظرة اخترفتني كسهم. كان يقول لي أن أنسى إلى الأبد عدم استحقاقي هذا، لأن القدرة بُعثت في، كما يمكن أن تبعث في جميع الناس الذين يجعلون من الحياة «جهاداً حسناً». قالت عينا الحمل إنه سيأتي يوم ويرجع الإنسان من جديد فخوراً بنفسه. وعندئذ، ستحتفل الطبيعة بأكملها بهيضة الله الذي بهجج فيه.

كان الحمل مرشدي على طريق مار يعقوب. في وقت ما، أصبح كل شيء مظلماً، ورأيت أمامي مشاهد تشبه، إلى حد بعيد، تلك التي قرأت عنها في رؤيا القديس يوحنا، الحمل الأكبر جالس على عرشه، والناس يغسلون ثيابهم، ويظهرونها بدم الحمل. كانت هذه هيضة الإله الهاجع في كل واحد منا. رأيت، أيضاً، معارك واضطرابات وكوارث تهرأ الأرض هزاً في السنوات المقبلة. لكن كل شيء سوف ينتهي بانتصار الحمل، وكل كائن بشري على وجه الأرض، سيوقف، بكل قدرته، الإله الهاجع فيه.

تبعث الحمل إلى الكنيسة الصغيرة التي شيدتها للزراع، والراهب الذي بدأ يؤمن بما يفعل. لا أحد يعرف شيئاً عنهما. وهناك حجراً ضريح مجهولان، في القبرة المجاورة، يشيران إلى الموقع الذي نطقت فيه عظام الميتين. لكن من المستحيل تمييز قبر الراهب من قبر المزارع، ذلك أن حصول العجزة يتطلب أن تتحد القوتان لتخوضا «الجهاد الحسن».

كانت الكنيسة مضادة عندما وصلت إلى الباب. أجل، كنت استحق الدخول، لأنني أحوز سيغاً، وأعرف ما أفعل به. لم تكن بوابة الفخران، فقد غفر لي وغسلت ثيابي بدم الحمل. ولا أريد، الآن، إلا أن أضع يدي على سيفي، وأذهب لخوض «الجهاد الحسن».

في المبنى الصغير، لم يكن هناك صليب، بل كان على النبح ذخائر العجزة: الكأس والصينية اللتان رايتهما أثناء الرقصة، ومذخر من الفضة يحوي جسد السبع ودمه. عدت إلى الإيمان بالعجرات التي يستطيع الإنسان تحقيقها كل يوم. وبنت القمم العالية المحيطة بي، وكأنها تقول إنها ليست هنا، إلا لتتحدي الإنسان، وإن الإنسان لم يوجد إلا ليتقبل شرف هذا التحدي.

توارى الحمل وراء أحد القاعد. نظرت أمامي، عند النبح، وقف معلّمي مهتسماً، وقد اطمأنت نفسه، حاملاً سيفي في يده.

توقفت. اقترب مني، ثم تجاوزني، وخرج. لحقته إلى أن وقف أمام الكنيسة، نظر إلى السماء القائمة، ثم استل سيف من غمده، وطلب مني أن أشاركه خمله معه. شهر النصل، وهو يتلو الزمور القدس الخاص بهؤلاء الذين يسافرون ويصارعون بحثاً عن الظفر،

تسقط عن جانبك الثوب وعن يمينك الزنود

ويقترب السوء إليك

لا يصيبك شر، ولا تغزو ضربة من خبائك

لأنه بوصي ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك.

عندئذ جنوت راسكماً، وضرب العلم بنصل السيف كنتظي الواحدة تلو الأخرى وهو يقول

تطأ الأسود الأرض

تنوس الشبل والتنين.

ما إن أنهى تلاوة هذه الكلمات حتى بدأ المطر بالهطول. كانت تمطر، والمطر يخصب الأرض. وهذه المياه لن ترجع إلى السماء قبل أن يولد برعم، وتنمو شجرة، وتفتح زهرة. كانت تمطر بغزارة شديدة، وابقيت رأسي مستقيماً، أستقبل، للمرة الأولى على طريق

مار يعقوب، الأمطار الهاطلة من السموات. أتيت من الحقول للتصخرة، وأنا سعيد، لأن هذه الليلة ستفيض فيها الحقول ماء. تذكرت صخور ليون، وحقول القمح في «ناقارا»، والقحط، في كاستيليا، وكروم «ريوخا» التي ترتوي اليوم من المطر الهاطل بغزارة، مقطراً قوة السموات. تذكرت أنني أنهضت صليباً ستوقعه العاصفة من جديد، لكي يتمكن حاج آخر تعلم الأمر والطاعة بواسطته. فكرت بمسقط الماء الذي يهبط الآن بقوة أكبر، لأن ماء المطر يغلبه. وفكرت بـ «فونسبادون»، حيث تركت الكثير من القذرة لإخصاب التراب من جديد. فكرت بكل المياه التي شربتها من سهل كثيرة، وقد استعادت الآن ما فقدته. كنت جديراً بسيفي، لأنني أعرف ماذا أفعل به.

قدّم المعلم السيف إلي فأخذته. بحثت عن الحمل، لكنه كان قد اختفى. ومع ذلك، ليس لهذا أهمية تذكر. كانت الأمطار الحية تهطل من السموات وتجعل نصل سيفي برافاً.



خاتمة سانتياغو دو كومبوستيلا

هنا نافذة الفندق، حيث نزلت، أبصر كاتدرائية مار يعقوب وبضعة سناج أمام البوابة الرئيسية. كان هناك طلاب ينتزّهون وسط الحشد، وهم يرتدون ملابس قائمة قروسطية، وبائعو التذكارات يبدؤون وضع تخشيباتهم. كنت في وقت مبكر من الصباح. وكانت هذه السطور، باستثناء بعض الملاحظات، أول سطور كتبتها على طريق مار يعقوب.

وصلت إلى المدينة البارحة، بعد أن أفلتني العاصفة التي تؤمن الاتصال بين «بترالينا»، القريبة من «السبريرو»، وكومبوستيلا. لقد أمكن في أربع ساعات، اجتياز المئة والخمسين كيلومتراً التي تفصل بين المدينتين. وعلت بالذاكرة إلى مسيرتي مع بتروس، حيث كان يلزمنا أسبوعان لنجتاز مثل هذه المسافة. بعد قليل، سأخرج وأضع على قبر مار يعقوب صورة سيده «أباريسيل» المزودة بالأصناف. وبعلها، إذا كان الأمر ممكناً، ستقلني طائرة لأرجع إلى البرازيل، حيث تنتظرني أعمال كثيرة. تذكرت أقوال بتروس، عندما أخبرني أنه اختصر كل تجربته في لوحة. عبرت ذهني فكرة تأليف كتاب عما عشته، لكن هذا أيضاً لا يزال مشروعاً بعيداً، ولدي أشياء كثيرة يتوجب عليّ فعلها الآن، وقد استعنت بسيفي.

يبقى سز سيفي لي وحدي، ولن أعلن عنه أبداً. لقد كتبت

وتركته تحت حجر. لكن المطر، الذي هطل، أتلّف الورقة بالطبع.
وهذا أفضل. أما بتروس، فليس في حاجة إلى معرفته.

سالت معلّمي كيف عرف التاريخ الذي ساصل فيه، وهل كان
وصل قبلي بوقت طويل. فضحك قائلاً، إنه وصل صباح البارحة،
وإنه سيرحل غداً، حتى لو لم أت. كنتُ مصرّاً أن أعرف كيف
يمكن حدوث ذلك، فلم يجبني. وعندما افترقنا، وفيما كان
يتخذ مكاناً في السيارة التي ستقلّه إلى مدريد، أعطاني شعاراً
صغيراً من منظمة «مار يعقوب حامل السيف»، وقال لي إن أمراً
عظيماً قد تجلّى لي عندما نظرتُ إلى عيني الحمل. لكن، لعلني
ساتوصل، يوماً ما، إلى أن أفهم أن الناس يصلون يوماً في الوقت
المناسب، إلى حيث ننتظرهم.



www.rewity.com
By Dalyia